علي بدر

الطريق إلى تل مطران

رواية

مكتبة الفكر الجديد

دار الشروق

الطريق إلى تل مطران

الطبعة الأولى ٢٠٠٥
طبعة دار الشروق الأولى ٢٠٠٩

رقم الإيداع ٢٠٠٩/٥٧٩٦
ISBN 978-977-09-2634-2

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

٨ شارع سيبويه المصرى
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧ «٢٠٢» +
email: dar@shorouk. com
www. shorouk. com

على بدر

الطريق إلى تل مطران

رواية

دار الشروق

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة
الفكر الجديد

(١)

في مساء تشريني بارد، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها، كانت ليليان سركيس صديقتي الكلدانية التي لها مظهر منجم، والمشبعة بنوع خاص من القدرية، هي التي أرشدتني إلى كتاب السير كارما The Hand And Its Mistries الصادر في العام ١٩٢٤، في لندن عن مطبعة فيليب وآلن، وهو كتاب غزير المادة، يبحث في علم قراءة البخت في الكف ومعرفة خطوطها الخفية والسرية.

كنا التقينا في كافتيريا صغيرة في شارع المغرب في الوزيرية، وقد ثرثرنا طويلاً (ليليان وأنا) عن الأبراج والروحانيات وفن التنجيم، ودخلنا في مختلف الأحاديث التي تنقب بدقة متناهية في التاريخ الروحاني وفن التنجيم والسحر الأسود، وكان كلانا يبحث عن ذرائع لتعزيز حدسه وتصوراته عن هذا الفن، إلا أننا بعد فترة وجيزة شعرنا بالعجز الكامل عن تفسير هذه الظواهر الميتافيزيقية، لأنها لا يمكن التحقق منها كلياً في العلوم الطبيعية.

كنت آنذاك عاطلاً تماماً عن العمل، فبعد تسريحي من الجيش عقب انتهاء الحرب، توسطت لي ليليان لدى أحد أقاربها وهو التاجر المسيحي المعروف نجيب مرقص، لإيجاد مهنة لي، فأشار علي بالعمل في صالة كبيرة للروليت تقع في الطابق العلوي من فندق ميريديان في بغداد، كانت تملكها زوجته الشابة جانيت مرقص، فعملت فيها قاطعاً للتذاكر لمدة ستة أشهر تقريباً، إلا أني تركت هذه المهنة التي تتطلب مني قضاء الليل كله مع السكارى والمقامرين والعاهرات وتحمل أمزجتهم المتقلبة.

وحين عجزت ليليان عن إيجاد عمل لائق بي، أخذت تتوسط لي

مكتبة الفكر الجديد

عند أحد تجار الكتب المتخصص بالموسوعات العلمية والطبية، يقع مكتبه على مقربة من سوق باعة الكتب القديمة والمستعملة في سوق السراي، وكانت مهمتي هي كتابة خلاصات عن هذه الموسوعات وتصنيفها وبيان فائدتها ودرجة تطورها من عام إلى عام. وفي تلك الأيام كنت اكتشفت العالم الروحاني، حيث كان علي أن أقوم بتلخيص موسوعة العالم الروحاني التي كتبها مجتبي صدره الشيرازي في القرن الثامن عشر، وهي موسوعة صدرت بالفارسية في طهران في العام ١٩٠٣، بينما صدرت ترجمتها الإنكليزية في أميركا في العام ١٩٨٥، من دار جامعية تعنى بالأدب والثقافة الفارسية يطلق عليها «انتشارات إهرمزدا».

فانغمرت في هذا العمل ثلاثة أشهر متتالية تعرفت من خلالها على موسوعات عديدة تخص الأبراج وتحضير الأرواح ودورات الكواكب. وبالرغم من متعة هذه المهنة التي زودتني بمعارف غزيرة إلا أني تركتها، لأن الأجرة التي كان يقدمها لي رب العمل لم تكن تتناسب مع الجهد الذي أبذله في الترجمة والكتابة والتقييم. فبقيت عالة على ليليان التي كنت أطلب منها مبالغ صغيرة من المال واستعارة سيارتها بين آونة وأخرى.

(٢)

في الواقع، لم تكن ليليان جميلة إنما كانت جذابة، كانت تحافظ على الدوام على هيئة مغرية وتحرص على ارتداء ملابس مثيرة للغاية: التنورة القصيرة التي تكشف عن ساقيها البيضاوين، البلوزة الصوفية الضيقة المفتوحة الصدر والتي تكشف عن أعلى نهديها الصغيرين المحصورين بنعومة وقد تدلى صليب ذهبي صغير بينهما، كما كانت تترك شعرها الأسود الفاحم

مكتبة الفكر الجديد

مسترسلاً على كتفيها العريضتين. كانت ليليان تثيرني بملامحها المغرية والوحشية، تثيرني بأنفها المدور المرفوع إلى الأعلى، بشفاهها العريضة المقلوبة والمصبوغة بالحمرة القانية، وبعينيها السوداوين المحاطتين برموش طويلة تترك ظلاً فاتراً على وجنتيها.

وإن كانت ليليان مثقفة ومهتمة اهتماماً استثنائياً بتاريخ وثقافة طائفتها فإنها لم تكن متعصبة، ولم يكن يضيرها أن تكون صديقة لي، وحين كانت تقول لي إنها تتحمل انتقادات قاسية بسبب العلاقة التي تجمعنا، فإني من جانبي كنت أعد هذا الكلام من قبيل التسليات العابثة ولم أكن أعده من قبيل الابتزاز الداعر على الإطلاق.

(٣)

كنا جلسنا طويلاً في الكافتيريا، وكان النادل يقدم لنا بين آونة وأخرى الشاي بالحليب أو الشاي وحده، ومرة أخرى قدم لنا القهوة، ولم نتوقف عن الثرثرة على الإطلاق، نشرب الأشياء الساخنة وندخن وننغمر أكثر فأكثر في ميدان الروحانيات والتنجيم والأبراج وتحضير الأرواح حتى تعالت أصواتنا، فأصبح مشهدنا مثيراً للضحك بالنسبة إلى الجالسين على مقربة منا. وبعد أن دقت الساعة المعلقة على الحائط بمواجهتنا معلنة الساعة السادسة مساء، تناولت من على الطاولة القريبة معطفي الأسود المصنوع من الصوف المبطن والجلد السميك، بينما وقفت ليليان إزائي لإحكام إزراره معي، تاركة معطفها المشمع الأنيق مستلقياً على الطاولة ذاتها بصورة مبعثرة، فدعوتها لمبيت الليلة معي في شقتي، إلا أنها اعتذرت متعللة بالطقس، وبانتظار صديقتها في منزلها، وحين قبّلت راحة يدها ابتسمت لي وحذرتني من تقلبات الطقس ومساوئ الأنفلونزا.

مكتبة الفكر الجديد

(٤)

خرجت من الكافتيريا واتجهت صوب المكتبة البريطانية الواقعة على مسافة قصيرة من مقبرة الجنود الإنكليز في الوزيرية بحثاً عن كتاب «السير كارما»، وكنت أشعر بالإرهاق والتعب، وهو شعور غالباً ما يدهمني بعد كل حوار في الروحانيات، كنت أشعر بعد انتهائه وكأني دخلت في معصرة للخمور: الرائحة الحامضة الكريهة، الشعور بالدبق واللزوجة، والإحساس الغالب بأن المعارف التي تخص هذا الموضوع مذهلة في تنوعها وغزارتها إلا أنها سرعان ما تتبخر وتترك في نفسي رماداً شبيهاً برماد المقابر.

تقع المكتبة البريطانية في آخر الشارع، فاتخذت الطريق الذي يقطع الوزيرية من منتصفها حتى وصلت حديقة صغيرة مزروعة بالآس والسرو والصفصاف، فانعطفت قليلاً إلى اليمين واجتزت عطفة الشارع المرصوف بالقار والحجارة، مخترقاً الهواء المشحون بالرذاذ البارد، فامتلأت رئتاي برائحة السرو والأعشاب الغضة مختلطة برائحة القار والحجارة، فأصبحت المكتبة بمواجهتي، كانت واجهتها مبنية من القرميد ومقطعة بالزجاج السميك والألمنيوم، وكان سياجها عالياً يحجز حديقة كثة الأشجار، وحين دخلت من البوابة الحديدية الضخمة، رأيت قبالة المكتبة بضعة شبان وفتيات يحتسون الشاي والقهوة ويدخنون، كانوا يمسكون الأكواب البيض التي يتصاعد منها البخار الذي يتكاثف في الفضاء البارد ويتحدثون.

***

دفعت باب المكتبة الواطئة السقف، فواجهني الخشب المحزز

مكتبة الفكر الجديد

بلون اليود، يشيع في المكان فضاء من الدفء والرائحة النفاذة، فأحسست كأني أعوم تحت غطاء صمغي كثيف أسدل على عيني رؤية مضببة، إذ كانت المكتبة مزدحمة بالنساء، وعلى الطاولة القريبة من الباب كان هناك صديق لي يجلس مع صديقته ويقرأ في كتاب سميك الغلاف، فتحدثت معه قليلاً دون أن أنظر إليه، إذ أخذت أنقّل عيني بين رواد المكتبة، كانت النساء يعلنّ عن أنفسهن بصورة فاضحة: الأثواب الجميلة المتناسقة، السراويل الضيقة، البلوزات الصوفية، المعاطف الجلدية، والجاكيتات الملونة. كنت أحب النظر إلى هذه الملابس الباذخة لأنها تشعرني بالترف، وكانت الألوان تذهلني بمباهجها: الماكياج على الوجوه، المشابك الذهبية في الشعر، البروشات على الصدر، والأحذية المطاطية اللماعة في الأقدام.

في الواقع لم تكن المكتبة البريطانية في بغداد تخضع على الدوام إلى النظام، إنما كانت مختلفة عن المكتبات بهذه الفوضى، وهنالك بإمكانك أن تقف وتتحدث وتضحك وتستعير وتقرأ، وإن كان هذا الأمر يصيب البعض بالحزن والإحباط فأنا من جانبي كنت أحب هذه الفوضى، ولا سيما في الأيام الباردة، حيث يدخل الجميع إلى المكتبة اتقاء للبرد والمطر، وقد كان زحام النساء يصيبني على الدوام بدوار من الغبطة والفرح يتماوج مع رائحة الخشب الفذة وألوان الكتب وموسوعات المعرفة.

***

حين اجتزت العارضة الأمامية المشبكة لمقصورة الاستعارة، وقفت دقائق لخلع معطفي السميك وتعليقه على حمالة المشجب

مكتبة الفكر الجديد

الخشبية الكائنة لدى الباب، فرمقتني مسؤولة الاستعارة (المسز إيفون نادر) وهي سيدة إنكليزية متزوجة من جراح عراقي شهير، كانت تهتم بي اهتماماً خاصاً عند معاودتي المكتبة أثناء إجازتي الدورية في أعوام الحرب. أطلّت خلف الطاولة المستطيلة بوجهها الأبيض المستدير وشعرها الأشقر المصفف بعناية فائقة، وحيتني بيدها التي تمسك القلم، بينما انشغلت يدها الأخرى لتركز نظارتها الذهبية المستديرة على أنفها الناعم المستقيم، أنفها العسلي المنمش قليلاً بنقاط بنية وحمراء قاتمة.

وبعد عناء البحث والتنقيب في رفوف المكتبة عثرت على الكتاب المخلع الغلاف بأوراقه السميكة الصفراء نصف الممزقة، فحملته نحو العارضة الخشبية المشبكة التي تجلس قبالتها المسز نادر، كانت آنذاك مستغرقة كلياً في تثبيت بطاقات المستعيرين وجلهم من الطلبة الذين يتزاحمون حولها بنظاراتهم السميكة، وقصات شعرهم غير المصففة، ووجوههم البليدة المتجمدة الخالية من التعابير. وحين استشعرت وجودي أمامها حيتني بابتسامتها الرقيقة العذبة، فهززت رأسي مبتسماً، وقبل أن تنتهي ابتسامتي عادت لتنهمك في عملها المجهد على الطاولة المستطيلة المزدحمة بالكتب السميكة، والأوراق، والأقلام، وبطاقات المستعيرين، فأدرت ظهري مستنداً إلى العارضة الخشبية لأتأمل المكان من الداخل.

كان المنظر بألوانه الداكنة تحت الفضاء الرمادي شبه المعتم مذهلاً عبر شبابيك الألمنيوم المطلة على الحديقة، فالطقس كان بارداً يشمل المكان كله، وكانت الأشجار الغضة ساكنة، واهتزازات أوراقها الكسلى تغتسل برذاذ خفيف، فاستسلمت كلياً لهذا الفضاء

مكتبة الفكر الجديد

المتناقض؛ البرودة والمطر في الخارج، والدفء الذي يغمر الداخل بضوعه النفاذ ودفئه، المدينة المقفرة بشوارعها التي يبللها المطر، وزحام الناس وحميميتهم في المكتبة. كان هذا المشهد يغريني ويهيج حواسي كلها لتناقض احتفالي من نوع خاص.

وما أن كنت منغمساً كلياً في هذا المشهد حتى شعرت بشيء غريب هيمن على المكان بأسره، فاستدرت، كانت هنالك امرأة في الأربعين انسلت من شمال العارضة الخشبية مخترقة مقصورة الاستعارة، كانت ترتدي بنطلوناً ضيقاً ومعطفاً من الفيزون أحمر قانياً وقد عقصت شعرها بدبوس ذهبي. وحين التفتت نحوي أسرني وجهها، كانت تقاطيع وجهها صارمة حادة تبلغ حدتها عند مقدمة أنفها، وكانت نظرتها تكاد أن تكون لحدتها صوتاً يرنّ. وما أن وقفتْ ونظرتْ إلى المكان حتى شعرت بها وقد سيطرت عليّ كلياً، لقد اخترقت المحيط بسيرها المتزن وخطوتها الثابتة المنسقة ببراعة مع معطفها الفضفاض، أكاد أقول إنها سيطرت عليّ تماماً، أي بمعنى آخر، استحوذت على تفكيري واكتسحتني بشكلها العاصف، لقد كان وجهها غريباً، وجهاً من النادر أن تراه يومياً، وهيئتها مربكة لا يمكن لك - بل لا تسمح لك - أن تنسى حضورها أو قوة تأثيراتها.

لقد خلخلت المكان بحضورها ووجودها، وللحظة أثارت انتباه الحاضرين كلهم، كل الحاضرين بلحظة غير متوقعة أو مخطط لها، وشعرت لحظتها أن الزمن توقف، وأن آلته تعطلت، وأن الضوضاء الخفيضة التي كانت تشمل المكان بأسره اختفت، وكل من كان في المكتبة يحدق ببصره صوب المقصورة، يمنحها نظرة طويلة، ثم يلتقط الأنفاس ويمر.

مكتبة الفكر الجديد

لقد شعرت بوجودها «المسز» نادر أولاً فوقفت لتحييها وهي مضطربة، وكانت تجيبها بإنكليزية متقنة بصوت له جلجلة معدنية، وكانت عيناها الزرقاوان تلمعان ببريق ساطع، وبجاذبيتها المغرية كان تحيل المكان إلى سطح مستوٍ.

***

تركت مكاني واقتربتُ من «المسز» نادر ووضعت كتابي السميك المخلع الغلاف قبالتها على الطاولة المستطيلة، ثم نظرت نظرات متفحصة إلى هذه المرأة، فاستدارت «المسز» نادر نصف دورة وقدمتني لها تقديما بسيطاً، وأضافت لي «السّت صافيناز... والدها شاعر تركي معروف... عبدالرحمن أوغلو كان صديقاً لناظم حكمت.. وهي صديقة للأب بولص نويا اليسوعي... أما كنت تبحث عن كتبه؟». وقد احتقنت عيناها وبصعوبة كانت تلتقط أنفاسها.

في الواقع كنت أبحث عن كتب الأب بولص نويا اليسوعي، وكنت أهتم كثيراً به ولا سيما بعد أن قرأت مقدمته لكتاب أدونيس «الثابت والمتحول»، وقد وجدت العديد من كتبه في التصوف الإسلامي إلا أني لم ألتق به، فقالت لي الست صافيناز:

«ها الأب بولص نويا... إنه الآن في باريس، هل قرأت كتبه؟».

فأربكتني ببناء جسدها، وصدرها العالي، وجاذبية صوتها الذي يَرِنُّ بجرس مغر، لقد كانت يدها ناعمة طرية بلون النبيذ، كانت كتلة وردية تتحرك بالتناغم بين الصوت والحركة، وأخذت تتكلم

مكتبة الفكر الجديد

عن بولص نويا، وعن أدونيس، وماسينيون. الحق أقول بأنها لم تكن تتكلم بالمعنى الدقيق للكلمة، إنما كانت تفترس اللغة، تتلاعب بها، تحرفها وتقلبها عبر خداع منسق دقيق، وكانت تلبس كل شيء لبوساً ماورائياً، وتستخلص نتائج لا نملك أمامها إلا أن نوافقها، وهي تدقق بعينيها الغائمتين بكتاب «السير كارما» الموضوع فوق الطاولة المستطيلة، فاستدرت بخفة مواجهاً إياها لأخفي عن نظراتها المريبة المتفحصة عنوان الكتاب الذي أثار فضولها، فابتسمت مستخدمة حدسها المتأصل وقدرتها الغريزية على الاقتحام بنظرتها النفاذة غير المحتملة، وسألتني:

«والآن ما هو عملك؟» محولة نظراتها صوبي تماماً، مركزة في عيني اللتين انخفضتا غير قادرتين على مواجهتها.

لقد كان سؤالها مباشراً، ومدوياً مثل سقوط جدار. فجأة فقدت القدرة على الكلام، ولم يعد بوسعي سوى التحدث بهمس، وبصوت مبحوح. لقد كنت معها كمن يحاول صعود جبل، وعليّ التسلق بسرعة فائقة، بينما هدني ضيق النفَس بسبب الارتفاع الشاهق. كنت أحس بمداهمة خطر ما، خطر مطاردة حيوان بري، فهربت بسرعة مجنونة وأنا ألهث، لقد كنت مرتبكاً بصورة فظيعة. إلا أني تنفست بعمق وقلت لها بصوت بالكاد يسمع:

«لا عمل لي...». فضحكت بصوت خفيض ثم حولت نظراتها المصوبة نحوي جانباً، وقالت بصوت أجش يخفي تحت نعومته سرّاً ما:

«لي صديق يرعى بيعة الكلدان الكاثوليك في مدينة تل مطران.

مكتبة الفكر الجديد

الأب عيسى اليسوعي. هل تعرفه؟ كان صديقاً للأب لويس شيخو صاحب مجلة «المشرق» في بيروت... كان قد طلب مني أن أهيئ له معلماً، أو كما يقولونها هم بالسريانية (رابي) لتعليم أطفال تل مطران اللغة العربية... فماذا تقول؟».

لم أستطع الكلام، لقد صمتّ.. بينما أخذت هي تدقق في تعبيرات وجهي التي تقلصت في نقطة حول مقدمة أنفي، أخذت تحدق بعيني مباشرة وبنظرة ثابتة عنيدة وبتركيز عميق، فشعرت بها وقد اقتحمت مراصدي ومصداتي، وانتهت أية حماية ومن أي نوع، إذ إن التشوش كان قد استحوذ على ذهني كلياً، وأصبحت أعوم بفعل تأثيراتها، وهي تتحدر صوبي مثل زئبق بنعومة وسرعة مذهلتين، تستغورني فأحس بجسدها ينفذ مخترقاً عيني وينتشر في جسدي انتشار شعاع، لقد كان في صوتها المتغلغل نغمة اليقظة بعد سبات طويل، وبنظرتها التي أدركتها رغماً عني نظرة شرسة تربك بقوتها الحيوانية وسلطانها الوحشي أعنف المخلوقات. لقد كان اسم «تل مطران» بنبرته الغريبة الشاذة وحده كافياً أن يطلق ارتيابي ويثير طبيعتي المتشككة المحترسة، إلا أني كنت بحاجة لقسط من الوقت للاتزان والتروي في تجميع شتاتي وترميم نفسي التي تصدعت لحظتها، فلم أكن قادراً على النظر بثبات ونطق كلمة (كلا...) بحزم ووضوح تام أبداً، لأنها كانت تبعث إيحاءاتها في لحظة نفسية قلقة، وتعبر عن مطاطية رغباتها الروحية القوية عن طريق العينين والأعصاب والعضلات المكيفة لهذه النظرة الثاقبة الثابتة الحتمية، لقد كان سلطان عيونها يلقي نوره بين أبعاد الصالة فيدجن الكائنات التي تصطخب حولها، وما كان لي سوى أن أذعن، فأذعنت لها إذعان من يغمض عينيه منتظراً الموت برقّة، وأشرت إلى الموضع الذي يجب أن

مكتبة الفكر الجديد

تطعنني فيه - المغامرة - والتي تعني في أقصى لحظاتها استدعاء الخطر بنعومة وشغف.

«هل هي بعيدة تل مطران هذه؟» هكذا سألتها بعد أن لملمت نفسي التي تخلخلت بقوتها الروحية التي تحيل الشمس إلى قرص من الطين، إلا أن هذا السؤال المحايد هبط عليها مثل هدية، فاعتبرت الأمر - لا أدري كيف - مقضياً بموافقتي، ونفضت في وجهي آخر ما تبقى من غبار ضحكتها، وأطلقت تذكرة جديدة، تذكرة سأدفع ثمنها باهظاً فيما بعد، وقالت: «ستكون ظروفك أكثر تحرراً حين أمنحك توصية»، وسرعان ما استدارت بخفة، وخطت خطوات قصيرة واثقة نحو منضدة صغيرة كانت موضوعة بالقرب من العارضة الخشبية بصورة طولية، وأخرجت من حقيبتها ورقة وردية بخطوط دقيقة، وقلماً محززاً بزعفران فاح أريجه في سماء المقصورة، وأخذت تحرر رسالة بالسريانية بخط ناعم أنيق ثم وضعتها في مظروف أبيض اللون، كانت «المسز» نادر قد ناولته إياها من الدرج الذي قربها، وكتبت على المظروف العنوان التالي:

(شمال غرب الموصل/مدينة تل مطران/محطة ترام-موصل استنبول القديمة/الأب عيسى اليسوعي).

لقد كانت الأحداث الشاذة تتوالى رغماً عني سريعة خاطفة، وهي تغمرني بسطوتها الروحية التي أطبقت حولي بكثافتها وشدتها وغمرتني، فصرت أطيع أوامرها بسهولة ويسر وبكثير من التدليل والمجاملة. وحين انتهت ناولتني المظروف بعد أن مهرته من مكان افتضاضه بيدها التي توهجت مثل نبيذ، فمددت يدي التي

كانت ترتعش مثل خشبة منقوعة بالماء، متعرقة، شاحبة، فحدقت بها محاولة افتراسها وأطلقت تذكرة أخرى:

«إن يدك بخطوطها المتشابكة أغرتني بقراءتها».

وأردفت في نفسي: «برافو، فكتاب السير كارما استفزها».

فاكتسحتني بظل نظرتها الثقيلة المندفعة، وحشرتني في الزاوية التي حددتها عينها بالضبط، لقد كان كلانا يستغرق ملياً في الفواصل الزمنية، فنكشف بعضنا بعضاً. كان اكتشافي فيها يمثل المرأة التي تحوّل سلامك وخلاصك إلى ذوب وندم ودموع، اكتشاف الضربة الأخيرة في عالم ساكن، عالم أزلي. أما اكتشافها فيّ، فقد كان مخيباً، فلم أكن سوى المؤدب الذي يغلق براطمه بفزع، وينقاد بإذعان للمزحات ومن كل نوع.

ولم ينته الأمر بعد.. لقد أمطرتني هذه المرأة بسيل من الكلمات اللاهثة المتلاحقة، تتساقط مثل جواهر على سطح من كريستال، كانت تتهاوى، تتلاحق، تتدافع بعنف، ودفعة واحدة من كل ناحية من جسدها. ولم أكن سوى مسلوب الإرادة، إذ لم أكن مطلعاً على الأوساط الروحانية بعد، ولم تشكل هذه المعارف المتداخلة المختلطة حتى ذلك الوقت بالنسبة لي سوى محيط بكل غرائبيته وشذوذه وألغازه، كما لم أكن مهيأً لمثل هذا الاكتساح العاتي الذي شلني وجعل من يدي أمامها مفتوحة وهي تتنقل بعينيها من نقطة إلى أخرى. وبعد لحظات، وبينما كانت يدي اليسرى أمامها مفتوحة راجفة متعرقة، أخذت تسرد الأحداث الأكثر حميمية في حياتي، وضمن التوقع المباغت كانت تغمرني بعطاياها ومفاجآتها

مكتبة الفكر الجديد

وتمنح الخطوط الملتصقة براحة يدي مثل خط من التيزاب حياة وعنفاً وحركة. كانت تكتشف في تقاطعاتها واختفاءاتها وألوانها محطات مصيرية، خطوطاً مهملة إلا أنها تستمد قوتها من الكون بأسره ومن إشعاعات تُرسل في سنين وقرون، وتصبح أحوال الروح والبدن ضمن اتساع الكون الذي يتعذر إدراكه ممكنة، وهذا ما جعلها بحركاتها الاستعراضية المصنوعة والمفتعلة مفهومة مقنعة.

كانت تتفحص يومي بين خطوط الكوارث، وفي اللحظة المناسبة تطلق تحذيراتها برشاقة، فأحس بريح غامضة تشبه عاصفة ثلجية تخترقني وتغير شكل عظامي في نقطة موجزة، نقطة بين حدود ووجوه ومثلثات الكواكب، مثلثات الليل والنهار، برودة ويبوسة زحل، رطوبة المشتري الذي يدخل في النقطة التي تغير مسارات حياتي، وتحفر قبراً في راحة يدي وفي وسط عظام رجل ميت. فتحسست بيدي قبري، كانت عظامي داكنة وباردة وبعيدة، وليس هنالك ما يفصل بينها والتراب.

وأخذت بعينيها السريعتي الحركة تواصل إطلاق التحذيرات: «النتائج دوماً ضدك، احذر الحب، احذر المرأة التي تأتي متأخرة، وتخفي تحت عباءتها سكيناً صغيرة». ثم دخلنا في مياه جديدة، في مياه أكثر خطورة، خطوط الحب، القدر، الحظ، الحياة، الثروة، الجاه، تقاطعات المشتري، زحل، أورانوس، وكرات تحيط بها سحائب من الدخان كثيفة تسبح صامتة في المساوف، إلا أنها تبعث بإشعاعها لتحطمني تحطيماً كاملاً ورائعاً، ثم انعطفنا إلى كوابيس من الرعب أكثر سواداً: صعود وانزلاق، أمجاد وانتصارات، خذلانات من كل نوع، كانت تصف لي أعداء يبزغون بين خطوط

مكتبة الفكر الجديد

ودوائر النحس، بين نجوم العداوات وحلقات سليمان برؤوس حليقة وطاسات من السم وسكاكين قصيرة الأنصال، تقول:

«يكرهونك كما يكرهون الدم على الخبز، كما يكرهون دم الأسنان». وأنا أهرب معها، القمر في قرن الرعب ونجم السعد على كتفي، فأسمع خفيفةً دقات قلبي المتسارعة.

«الموت قريب، قريب جداً، يكفي أن تنزلق قدمك» وتشير ثانية إلى خط القدر الممتد عند قاعدة ساراتون نحو الإصبع الوسطى بأربعة تقاطعات.

«احذر دعوة الحب في الليلة...» ثم ضاع صوتها في فمها وكأنه قادم من مكان عميق الغور بعيد ومظلم وبارد، ونحن نواصل العوم بين خطوط الكوارث ونجوم السعد وحلقات الحكمة. كنت أعاين يدي متأملاً خطوطها التي بدأت تتحرك مثل نسيج من الهلام، حتى أخذت توجعني من منتصفها لشدة تركيزها فخلتها تريد أن تثقبها بتحديقها العميق المتواصل، كنت أعوم معها بين نذير الشر والمرض والعداوات والإخفاقات والنجاسة، ثم حولت نظرتها قليلاً، بعد أن رأتني متعباً وخائفاً، وقالت:

«عند منتصف فينوس يتلون خط حياتك بصورة حيوية، ويصبح أكثر تلوناً أكثر...» واختفى صوتها، بينما شعرت بنفسي وقد أصبحت مثل كرة متدحرجة من الثلج ما أن ارتطمت بعمود حتى انتشرت في كل مكان.

«حياتك طويلة ومبرأة من أمراض خطيرة» فأخذ الواقع الذي يحيط

مكتبة الفكر الجديد

بي يتصدع ويكشف عن وجوده الشبحي وكابوسيته التي تغلفه. ثم تبعتها نحو قدر مرسوم في خطوط يدي.

أعترف بأن هذه الروح العارية اكتسحتني بهيئتها الوحشية، وحين كنت أحدق بعينيها الكهفيتين الزلاليتين المصنوعتين من البلاستيك الحي أرى صوراً مرعبة، وعلامات وجفراً حلها بسيط وسهل (إن صدق)، وبعد أن أنهت نبوءاتها وتحذيراتها التي شلتني عن الحركة تماماً وعطلت تفكيري، قالت بنبرة إرشادية: «تذكر التحذيرات التي أطلقتها ولا تنسها مطلقاً. لقد حذرتك فإياك أن تنساها. لا تنسها مطلقاً».

حسناً، لقد نسيتها.

لم أدرك لحظتها أي خطأ ارتكبت بنسيانها، أي خطأ تذكاري ارتكبت علي دفع ثمنه فيما بعد، ولم أكن أدرك لحظتها ما قالته بشأن العداوات والحب والخائنة التي تأتي متأخرة. لم أكن أعرف خطوط النحس والحظ والثروة والقدر، ولم أكن أعرف هذه الحكمة العملية التي خلفتها ومضت.

التفتت هذه المرأة إلى «المسز» نادر وحيتها تحية في غاية اللطف، وشدت على يدي مودعة بابتسامة سريعة وخاطفة، واختفت مثل شبح بعد أن تركتني منذهلاً من حضورها واختفائها معاً.

أخذت «المسز» نادر من يدي الكتاب وثبتت تاريخ الاستعارة في البطاقة الورقية الملصقة في غلافه الداخلي، وتركت حقل إرجاعه فارغاً، ثم قالت وعيناها ذائبتان:

مكتبة الفكر الجديد

«ما رأيك أن يكون تاريخ إرجاعه لدى عودتك من تل مطران؟»).

ابتسمت لها ابتسامة غير واثقة بوجهي الذي تكور مثل كرة من العجين، بعد أن دحرجته هذه المرأة أني شاءت، وأخذت الكتاب وأنا أترنح من غير إشارة، وذهبت عائداً إلى شقتي متسللاً ببطء بين رواد المكتبة. وحين خرجت لم أجد الفتيات والشبان الذين كانوا يشربون الشاي ويمسكون الأكواب بأيديهم، فقد خلا المكان إلا من المنظف الذي يمسك مكنسته بيديه، ويطرد الماء الذي يتسرب عبر شقوق باب المكتبة.

(٥)

عدت إلى شقتي مساء، حاولت الاتصال بليليان فلم أنجح، وقد ردت علي صديقتها بأنها ذهبت للكنيسة لتقضي مشواراً قصيراً ثم تعود. كنت متعباً تماماً وغير قادر على التفكير على الإطلاق، كان الرعب قد خدرني، وقد نفذ سحر هذه المرأة التي رأيتها في المكتبة إلى أعماقي، كنت أشعر بالخوف وقد دفعته ريح لينة أرخت أعصابي، وامتزجت في الظل الغائم والعميق ليدي التي ما زالت تؤلمني من منتصفها.

لقد استولت علي خرافة الزهرة الشائكة التي نامت في سبات سحري حين وخز يدها مغزل، فما أن أغمضت عيني بنعومة حتى رأيت عدداً هائلاً من فراشات ذات أجنحة رقيقة تتماوج مثل مراوح ملونة، وهذه الإغماضة الحالمة التي لا تتجاوز الدقائق تستحيل قروناً، حيث تقف المرأة الجميلة أنيقة بشعر أزرق وهي تتوسط نهراً سحرياً متدفقاً، يطوقني ببخاره الرصاصي الشفاف مثل حزام رفيع.

مكتبة الفكر الجديد

***

استيقظت من نومي مرتبكاً وحاولت الاتصال بليليان مرة أخرى:

«ليليانة، كنتُ اتصلت بك قبل قليل وقالت لي صديقتك بأنك ذهبت إلى الكنيسة».

فجاءني صوتها مرتبكاً غائماً عبر سماعة الهاتف: «أوه... ما بك... لقد أيقظتني من نومي... أما تنتظر حتى الصباح لتكلمني، فأنا نعسانة...» ثم أغلقت سماعة الهاتف.

شعرت كأني عبرت الطريق الشاق للنهر السحري الذي لا يتجاوز عرضه قيد أنملة. كان وجهي في المرآة أصفر مريضاً مثل قيء متجمد، وروحي مثقلة بأبخرة أرجوانية شبيهة بأبخرة تتصاعد من معدن ذائب، فسمعت صوتاً خفيضاً غائراً من بعيد، وكلمات غير مفهومة هادرة مدمدمة خلف الستائر المخملية المتموجة التي مرّ بها تيار هواء بارد. لقد شعرت بروحي تتدلى بسكون عميق دون اختلاجة ومشاعري مزدوجة: الرعب بجماله العاصف، وفيض سعادة روحية حانت تغمرني بمسرات شبيهة بتلك التي نحصل عليها من المركبات المرعبة والخطرة في مدن الملاهي، حيث يساهم الجو شبه الهستيري بخلق ذلك الوهم الدائم ومؤداه أن الذي يحدث هو تحقيق للخيال.

في الواقع لم تكن هذه الحالة موضوعاً من موضوعات الحلم، ولو كانت كذلك لفقدت أهميتها، ولكن ما يميزها هو انعدام الخيوط الفاصلة بين الواقع بتجسيمه وبين الخيال بكل أثيريته وتجريده، فلم

مكتبة الفكر الجديد

أكن متيقناً تماماً من أنني قد استولى عليّ النوم بسلطانه العميق ولا اليقظة بحسيتها الحية، وقد أدركت إزاء هذا المشهد أن الشعر لا أهمية له، إذ لم تكن أحلامي ساعتها مرهونة بأفكاري بل ترتبط معها برباط ناعم.

***

اتصلت بي ليليان وسألتني ما بي، فقلت لها:

«ليليانة، لماذا تلح علي خرافة الرجل الذي ينام وتخرج الأفاعي من فمه؟».

فجاءني جوابها مفاجئاً «إنه التصور البدائي للروح التي ما أن تنفصل عن الجسد حتى تمسخ حيواناً» وأخذت تضحك مني.

ولكن ما أحسسته فعلاً أمام هذه المرأة هي روحها التي طوقتني مثل أفعى، وهي قوة من قوى السحر في أشكالها المتعددة. كنت أنظر إلى الشمس الشتائية الباهتة من خلال الستارة المخملية الناعمة، وهي تدور في سماء الحجرة الضيقة، فأحسست بأن شخصية المرأة التي تتصدع الجدران لنفاذها وعمقها قد اختفت، وحلت محلها شخصية الفراشة.

وضعت كوب القهوة على المنضدة أمامي، فشعرت بالراحة، إلا أني لم أجد تفسيراً لما حدث بالضبط في المكتبة البريطانية، كانت غاياتي محددة وواضحة بالنسبة لي. كنت أبحث عن عمل، ووجدت في معرفة علم قراءة الكف نوعاً من التسلية وإشباع الفضول، ومع ذلك شعرت بأني في النهاية وجدت عملاً.

مكتبة الفكر الجديد

أعددت حقيبتي الجلدية السوداء، فتحتها واتصلت بليليان مرة أخرى، فجاءني صوتها عبر سماعة الهاتف «سنلتقي بعد ساعتين في مطعم البندقية». اتصلت بالمحطة العالمية لحجز تذكرة في القطار الذاهب إلى الموصل، فجاءني صوت مسؤولة الحجز هادئاً «ألو... طيب... قطار الساعة التاسعة، هل يناسبك؟».

«نعم يناسبني...». وتركت مكان التليفون وذهبت لأجمع بعض الحاجيات والكتب كي أضعها في الحقيبة. فاخترت مجموعة من الدواوين الشعرية لشاعر سرياني يكتب بالعربية هو يوسف سعيد، وموسوعة جغرافية مختصرة عن شمال العراق، والسريالية والصوفية لأدونيس، وكتاباً تعليمياً في اللغة السريانية، وكتاباً عن الصوفية الإسلامية كتبه الأب بولص نويا اليسوعي، وكتاب «السير كارما» الذي يبحث في علم قراءة البخت، وأقلاماً وأوراقاً ومحبرة ومظاريف وأوراق رسائل... وبعض الصور التذكارية التي تجمعني مع ليليان.

ثم هيأت محفظتي الجلدية السوداء المصنوعة من جلد الماعز، وحشرتها مع «البرنُس» المقطع بألوان فاتحة، والمنشفة الزهرية اللون المبقعة بدوائر بلون الفلفل، ثم وضعت الغليون والتبغ في المعطف الأسود وألقيته على المنضدة التي تتوسط الغرفة ووضعت قربه قفازات جلدية مبطنة سوداء، ولفافاً رمادياً كنت اشتريته من متجر للملابس في الكرادة قبل شتاء.

(٦)

«معطف من الصوف، لفاف من القطيفة الناعمة، قفازات جلدية مبطنة... هذا أول ما تحتاج له لتحصن نفسك من برد الشمال ومن

مكتبة الفكر الجديد

طقسه المتقلب» قالت لي ليليان ذلك حين التقينا في مطعم البندقية في المساء. كان ضوء المصباح ينعكس على وجهها وهي تمسح بيدها على شعرها وتضحك: «الموصل... ماذا دهاك؟ أنت تعمل في الموصل؟ أمر مضحك حقاً». لقد كانت أكثر حيوية هذه المرة، أكثر إشراقاً، وروحها ترفرف أكثر خفة. فأخذت تمزح معي وتسخر مني، وهي تتحدث عن الشمال ومناخه المتجمد وطبيعته المثلجة القاسية. لم أكن مقتنعاً بكلامها بطبيعة الأمر، وكنت أدافع دون قناعة، قلت لها: «أنا أحب البرد لأنه يكثف المخيلة».

«هذا تبرير مضحك..». قالت ضاحكة وهي تمسح بلسانها شفتها السفلى «ومن ثم هنالك شيء آخر عليك أن تهتم به وهو أنك لن تستطيع الحياة في البرد دون امرأة».

«ومن قال لك إني سأبقى دون امرأة؟». قلت لها مازحاً وحاولت أن أتصنع هيئة جادة. كنت أكره المناطق الحارة التي تتصف باليبوسة والتبلد وتسم العقلية بالسذاجة والسطحية وفقر الخيال. كنت أحدثها عن الشمس التي تهبط على الرأس مثل صخرة وتحطم مخيلة الإنسان، بينما مدت ليليان يديها الناعمتين على الطاولة التي تحجزنا فلمع في خنصرها خاتم من العقيق الفاخر. وبعد صمت قصير تحدثت ليليان عن السريان الذين يسكنون الموصل، عن شعبها المتأمل، وعن مخيلتهم الملونة، قالت:

«السرياني يريد أن يقتحم كل شيء، وحين يخفق في اقتحامه فإنه يسحبه إلى الداخل. الكون كله في مكانه إلا السرياني فإنه دوماً هناك... وحين يخفق في الاقتحام يكون هناك في التأمل». كانت تتحدث وهي تنفض دخان سيجارتها في الفضاء، وتتنهد تنهدات

مكتبة الفكر الجديد

ساخنة، كانت تقول: «نحن أول من نظر إلى الكون بطابقين، طابق أرضي وطابق سماوي، وكان مجال الرؤيا ينحصر بين هذين المستويين، وقد آمن السريان بالتوحيد لأنهم لم يستبدلوا مطلقاً الخلود بالحجر الجامد ولا التماثيل الرخامية».

أخذت تتحدث عن السلطة والإمبراطوريات والممالك، عن طبيعة المناطق التي سكنوها، وعن الجنس الذي أولعوا به، ثم مدت يدها إلى الكتاب الذي أمامها وحاولت أن تقرأ لي فيه. وهي تنظرني بعينيها الوحشيتين. كان الكتاب الذي أمامها مكتوباً بالسريانية، يدور حول الشاعر سركون بولص، فأخذت تقرأ لي فقرات من قصيدة فيه عن الآثوريات العاريات وقد حملهن مغتصبوهن على المحفات، عن العبيد الذين يجرفونهم من الأنهار بالشباك ليلاً تحت غطاء من الأسرار. كانت ليليان تقرأ وعيناها تتلاقطان ببريق دامع، وهي تمسك كوب الشاي بكلتي يديها لتتدفأ ببخاره الساخن، ثم أخذت تحدثني عن هجرة الآثوريين من أرومية إلى همدان في إيران ثم إلى الموصل، أخذت تتحدث وهي تصف امرأة عارية على محفة يحملها العبيد والقراصنة والمهربون، وحين خلعت سترتها الحمراء الغامقة وردت ياقتها إلى العنق، كشفت ليليان عن صدرها الأبيض، فأخذت أنظر إلى الزغب البني الذي يلمع على ذراعيها تحت الشعاع المتسلل من ستائر الموسلين التي قبالتها، كنت أرمقها بنظرات مرتبكة، كنت أتخيلها الجارية الآثورية المحمولة على محفة العبيد، وكنت أتهامس مع المهربين خلف ستار الحانة لشرائها.

(٧)

كانت ليليان أمامي وهي تنفث في الفضاء دخان سيجارتها، أطلقت تنهيدة ثم تناولت شايها بهدوء ووضعت الكوب

فارغاً على الطاولة. وانغمسنا في مواضيع مختلفة، وبعد ذلك نـظـرت نـحـوي وسـألـتـنـي: «كـيـف وجـدت هـذا الـعـمـل فـي الموصل؟». فحدثتها عن صافيناز ابنة الشاعر التركي التي قابلتها في المكتبة البريطانية.

«صافيناز أوغلو...». قالت وقد وامتقع وجهها.

«هل تعرفينها؟» قلت.

«قليـلاً، إنهـا امـرأة خطيـرة. أراهـا بيـن حيـن وآخـر في الكنيسة. ويقولـون عنهـا ثريـة جـداً. والبعـض يقول إنها داعرة. ولكن أمرهـا مريـب».

«وماذا بعد؟» قلت لها وقد ارتبكت كلماتي في فمي.

«كان جدها ضابطاً في الجيش العثماني، وجدتها آثورية هربت مع أحد الفرنسيين الذين كانوا من أصدقاء جدها، فجاء والدها إلى بغداد. كان شاعراً شهيراً وصديقاً لناظم حكمت، تزوج امرأة آثورية من بغداد، طلقها فيما بعد وعاد إلى استنبول وترك ابنته صافيناز مع والدتها التي هي الأخرى تركتها في دير في الموصل وهربت إلى إيران».

لقد أفزعتني بردّها، وهي تتحدث بصوت حذر ونبرة مرتعشة، وبالرغم من أنها كانت تعرف بعض المعلومات عن هذه المرأة إلا أنـهـا لـم تـكـن متيـقـنة منـهـا تـمـامـاً. كـانـت ليـليـان تـتـحدث فتتأرجح خصلات شعرها على جيدها، وبعد أن أمالت رأسها قليلاً وحدقت

مكتبة الفكر الجديد

في وجهي بصورة مضطربة، تجمدت قدماي وأصبحتا ثقيلتين كالرصاص، وشعرب برطوبة تكتسح ظهري بعد أن سرت في جسدي رعدة من الخوف خفيفة.

لم أكن قادراً على سرد كل ما حدث بيني وبين صافيناز أوغلو في المكتبة البريطانية، لم أكن قادراً على الإطلاق، كانت لي رغبة جامحة بالحديث، ولكن الخوف تسرب إلى نفسي، فأخفيت الكثير عنها، كنت أشعر بصخرة تقف في حنجرتي تمنعني من الحديث، تمنعني من شرح تفاصيل قراءتها لكفي وتنبؤاتها، إلا أني أوجزت كلامي وختمته بأني انسحرت بعذوبة صوتها وقدرتها على الهيمنة على الكائنات المحيطة بها، وأنها طلبتْ مني العمل في مدينة تل مطران في الموصل لدى أحد القساوسة من أصدقائها وهو (عيسى اليسوعي).

«أعرفه. ولكن هل أنت خائف من هذا العمل؟» سألتني. فقلت لها: «لا أبداً، ولماذا أخاف؟»، ولكني كنت خائفاً. خائفاً جداً، ومع ذلك كنت أشعر بعدم قدرتي على رفض هذا العمل، لا لأني بحاجة له على الإطلاق، إنما لأني لم أكن قادراً على مواجهة هذه الإرادة التي تدفعني بقوة نحو شيء مرسوم في يدي، وملتصق بها مثل خط من التيزاب.

***

نهضنا من أماكننا، وضعت ليليان جاكتتها على كتفها وحملت مفتاح السيارة في يدها، ثم تقدمت أمامي، بينما وضعت يدي على خصرها وخرجنا.

مكتبة الفكر الجديد

وبعد أن أوصلتني إلى الشقة بسيارتها، فتحت حقيبتها وأخرجت كمية من المال دستها في يدي، سرعان ما أخفيتها في جيب بنطالي واستدرت لأطبع قبلة خفيفة على خدها، فأغمضت ليليان عينيها برقة، بعد أن دفعت رأسها إلى الوراء. شعرت بأنفاسها ساخنة وبدقات قلبها متسارعة.

(٨)

تـوجـهـت إلى مـحـطة القـطـار، كـان الطقس ذلك المساء مشبعاً بالبرودة والرذاذ، وكانت المحطة التي أنشأها الألمان في بغداد في العام ١٩١٤ محاطة بالثيل الأخضر المقصوص بعناية، بينما كانت أغصان شجر النارنج متدلية على الأسيجة الواطئة، فسرت على الرصيف المؤدي إلى الدرجات المرمرية خارج المبنى. كانت المحطة مزدحمة بالمسافرين المتجمهرين على الأكشاك الصغيرة المحاطة بالمشابك الحديدية، ليقطعوا التذاكر، وبما أني حجزت في قطار الساعة التاسعة، فقد كان لزاماً علي أن أدفع المبلغ واستلم بطاقتي.

تقدمت مع الزحام حول هذه الأقفاص، وحين نظرت من النوافذ شاهدت الأثاث المخلع الذي تتجمع عند قوائمه المسودة المشققة البالية أكوام من القاذورات والنفايات وبقايا الأطعمة المتعفنة. وقفت أمام الكشك الأخير، فخنقتني الرائحة الساخنة المنبعثة من شباكه الممزوجة برائحة العطن المنبعثة من جسد قاطعة التذاكر، وهي ذاتها التي تحدثتُ معها بالتليفون. كانت جالسة خلف طاولة خشبية مشققة، وجهها أصفر وعيناها ذابلتان تحيط بهما دوائر زرقاء كامدة، كانت تثرثر مع صديقتها ولا ترفع وجهها إلا أن يضع المسافر ثمن التذكرة بيده على الطاولة التي أمامها.

مكتبة الفكر الجديد

أخذت تذكرتي وابتسمت لها وذهبت مع المسافرين الذين يلتقطون حقائبهم وأمتعتهم ويسرعون إلى صالة الانتظار. كانت الصالة مطلية بطلاء أبيض يميل قليلاً إلى اللون البنفسجي، واجهتها تطل على الباحة الخارجية المظللة بالأفاريز المقوسة والمستندة إلى أعمدة أسطوانية زينت بالمرمر الأبيض وقد علقت في أعلاها المصابيح النحاسية، وحين دخلتها وجدتها مكتظة بالمسافرين وقوفاً على الأعمدة الجبسية المزخرفة أو جلوساً على المصطبات الرطبة.

خرجت إلى الباحة التي تقابلها حيث يتجمع الشحاذون الذين يعصبون رؤوسهم الصغيرة الشعثاء بعصابات خضر ويحملون بأيديهم صور الأولياء والتعاويذ والآيات القرآنية المنقوشة على ورق صقيل مخطط بخطوط مذهبة. كانوا يشعلون ناراً في جران كبير تتصاعد من فوهته أبخرة الحرمل وئيدة في الهواء الرطب. فسرت في ممر يؤدي إلى رصيف القطار، كان هنالك بضعة أولاد صغار يملأون المكان بزعيقهم وهم يطوفون حول المسافرين، ويعرضون بضاعتهم: منحوتات جبسية، سجائر أجنبية، عطوراً مقلدة، أدوات زينة بروائح مهيجة، ألبسة داخلية نسائية حريرية مخرمة، وصوراً خلاعية.

سرت تحت شجرة صفصاف ضخمة تظلل الممر، كانت السماء تنث مطراً خفيفاً، وأنا أحمل حقيبتي بيد، وباليد الأخرى كنت أرد ياقة معطفي على عنقي، فشعرت بشخص من الجهة الثانية يراقبني، شعرت به من صوت الحذاء الذي يحدث صوتاً مكتوماً بسبب المطر الذي يبلل بلاطات الممر التي تشق الحديقة إلى نصفين، وحين التفتّ رأيت صبية في العشرين ترتدي معطفاً شبيهاً بمعطف صافيناز أوغلو الأحمر، تحمل حقيبة جلدية صغيرة بيدها، وحين

التقت عيناي بعينيها أخفضت رأسها واجتازت الممر إلى الجهة الثانية، فأخذ قلبي يدق بصورة متسارعة، وتبعتها.

أخذت أسير بسرعة في الاتجاه الذي سارت به، فدخلت في ممر مظلم كث الأشجار، إلا أني شعرت بشخص آخر يتبعني، يسير خلفي ويقترب مني، فتجمدت أقدامي وشعرت بقشعريرة تجتاحني (ماذا لو طعنني في الظلام بسكين؟) هكذا فكرت في نفسي، ارتعبت والتفتّ نحوه بسرعة، كان صبياً صغيراً حليق الشعر، يحمل كيساً صغيراً وسخاً بيده، وباليد الأخرى كان يحمل مظروفاً سميكاً قدمه لي وقال «هل تشتري صوراً خلاعية؟».

قلت له (لا) وسرت، فصرخ ورائي: «زين أستاذ تشتري قلم؟». فالتفت إليه، كان يحمل بيده قلماً أبيض اللون، مرسوماً عليه صورة امرأة ترتدي «كلسوناً» أسود وحمالة نهدين سوداء وصوبه نحوي، وحين نظرت إلى القلم، قلَبه الصبي بيده فانحسر السائل الأسود الذي يشكل «كلسون» المرأة وحمالة نهديها وأصبحت عارية تماماً، وضحك بوجهه الصغير في الظلام ضحكة شيطانية.

تركته وسرت، وأخذ يسير خلفي، وبعد لحظات توقفت أمام عمود يحمل مظلة واسعة فالتفت للوراء، رأيت رجلاً مسنّاً واقفاً بحياء ظاهر مع الصبي ينظر إلى الصور، ويتلفت بحذر، وبعد ذلك أخفى بعضاً منها في جيبه بسرية تامة، وما أن مد يدهِ إلى الصبي بالمال حتى حمل حقيبته واختفى بين الأشجار، وبعد أن سرت خطوات رأيت مجموعة من الجنود يتحلقون حول صبي آخر والألق ينبعث من أعينهم وتنهداتهم، وهم يحملون الصور ويخفونها بين ملابسهم، ويختفون بين الأشجار، وهنالك مجموعة أخرى من

الجنود، كانوا يتلصصون خلف عمود الكهرباء على أصدقائهم، ويعلقون تعليقات فضائحية مصحوبة بضحكات مجلجلة، وحركات بالأيدي، وبلذة مكشوفة.

(٩)

أخذت أسير في الممر، كانت النساء في المقاصف لصق بناية المحطة العالية، قرب محلات وبوتيكات تكشف أضواؤها الملونة قطرات المطر المتساقطة باندفاعاتها البطيئة الكسلى، وعند الأروقة الطويلة المتصلة بالأفاريز المظللة بالعمد الجبسية، رأيت الفتاة التي كانت تراقبني تتحدث مع رجل طويل يرتدي معطفاً مطرياً أسود ويحمل بيده مظلة نشرها على رأسه، فتراجعت قليلاً واقتربت من مقصورة الشحن الكائنة أقصى المحطة. وقفت قرب عمود محزز واتكأت عليه، وأخذت أنظر إلى باب المقصورة الموارب حيث يكشف عن سيدة بيضاء بدينة تقبض بين أسنانها الصفر سيجارة طويلة، وبعينيها نصف المطبقتين كانت تنفث دخان سيجارتها من أنفها وفمها بطريقة خليعة، ثم تتناولها، وذراعها العاري يهتز بشحمه المترهل، وتضعها على المنفضة الموضوعة على الطاولة، كانت منهمكة في تسجيل القياسات والأوزان والطلبات والعناوين، وحين جلست كشفت تنورتها القصيرة الضيقة عن باطن فخذيها السمينين الأبيضين، ومع أنها كانت تشعر بمراقبتي لها إلا أنها لم تردّ تنورتها على الإطلاق، واكتفت بتوجيه نظرات متقطعة نحوي بعينيها شبه المطبقتين.

نظرت إلى اليمين، وجدت الفتاة ذات المعطف الأحمر والرجل ذا المظلة السوداء قد اقتربا مني، كانا يسيران بهدوء تحت المطر، متجهين إلى القطار، فتجمدت في مكاني، وحاولت إخفاء وجهي

بياقة معطفي، كانت الفتاة ترمقني بنظرات متقطعة من خلف كتف الرجل، وبعد أن تجاوزاني بخطوات نفث القطار الذي يتوسط المحطة نفثات متقطعة من البخار فوق المحرك تطايرت في الهواء، ثم صفر صفرة طويلة معلناً بدء الرحلة، فهرع المسافرون نحو الممرات التي تفضي إلى القاطرات الطويلة المربوطة بكلاليب ضخمة من الحديد، فأخذت أسير وراء الرجل والفتاة وهما يسيران ببطء أمامي حتى تجاوزتهما ووصلت إلى باب القطار.

كان هنالك موظفون يرتدون بذلات رسمية بألوان داكنة أصلحت نهاياتها وأطيلت أكمامها وعولجت بالنشا والكي حتى أصبحت مثل غضاريف. كانوا يحملون حقائب حكومية صغيرة وأنيقة، ويضعون على أيديهم معاطف صوفية ثقيلة بياقات أسطوانية وجيوب منتفخة، وكانت هنالك قرويات متشحات بالسواد، يرتدين لفاعات ناصلة اللون، ويحملن صراراً مصنوعة من قماش ملون محشوة بالملابس والخرق التي تنبعث منها روائح إصطبل.

(١٠)

صعدت الفتاة التي كانت تراقبني والتي كانت ترتدي معطفاً شبيهاً بمعطف صافيناز أوغلو إلى القاطرة، وصعد الرجل الذي كان إلى جانبها خلفها بعد أن أغلق مظلته، فانسحبت بهدوء وقررت تغيير القاطرة، حملت حقيبتي بيدي ورددت ياقة معطفي على رقبتي وذهبت إلى قاطرة أخرى. صعدت السلم المشبك بهدوء ودخلت، كان هنالك رجال محترمون أمعنوا في التأنق من الشوارب المشمعة الملمعة المفتولة والشعر المعالج بالدهان المعطر وحتى السلاسل الذهبية التي تتدلى في مؤخرتها الساعات المطعمة بالأحجار الكريمة، كانوا يجلسون على المقاعد الأمامية، وحين

مكتبة الفكر الجديد

صعدت عرضوا نبل أخلاقهم علي وسألوني إن كانت بطاقتي تشير إلى رقم هذه القاطرة أم لا، وحين تناولها أحدهم من يدي أشار بإصبعه إلى القاطرة الأخرى وقال: «هناك... عليك أن تتقيد برقم القاطرة ورقم المقعد من فضلك».

فتبعت راهبتين ناحلتين كانتا قد تأخرتا في الوصول، فصعدتا قبلي على عجل وكانتا قد دخلتا القاطرة خطأ أيضاً، وفي الباب كان هنالك شخص يفحص أرقام التذاكر، اقتاد الراهبتين إلى مقعدين متقابلين قرب عائلة محتشمة انزوت في مؤخرة القاطرة، عند الباب الذي يفضي إلى مقصورة التواليت التي تفوح منها رائحة البول النفاذة والصابون المعطر.

ثم اقتادني شخص آخر إلى مقعدين متقابلين أحدهما شاغر والآخر مكلل بالعُدد المنزلية ولوازم النوم: شراشف، مناشف، محارم، وإلى الجانب كانت هنالك عائلة متكونة من فتيات مراهقات وأم عجوز بشعر فضي وبشرة متجلدة، ورجلان مسنان وحدت جلساتهما العكازات المصنوعة من الخيزران ولحيتان بيضاوان شبيهتان بلحى السحرة. كانت فتيات العائلة المراهقات يتحركن حركات سريعة مضطربة، ونظرات باحثة متقصية شبقة، وهن يتأففن من مراقبة الأم ونهراتها المتكررة.

وفي تلك اللحظات دخلت امرأة أرمنية سمينة ترتدي تنورة قصيرة ضيقة وتدفع مؤخرتها إلى الوراء، فتقدم بضعة جنود نحوها وأخذوا يحتكون بمؤخرتها وهم يمدون أيديهم لباعة الشطائر والسجق والشيكولاتة والشاي والصحف والسجائر الذين يهرجون القاطرة بزعيقهم وصياحهم، فأخذت المرأة تصرخ،

مكتبة الفكر الجديد

والجنود يصرخون، حتى حدثت مشاجرة عالية، فأثار هذا المشهد أحد المسنين الجالسين جواري، وأخذ يضحك حتى سقطت أسنانه الاصطناعية في حضنه، وحين رآني أراقبه أعاد أسنانه بسرعة فائقة إلى فمه، خشية أن تنكشف فضيحة لثته الصلعاء المتوردة ودخل في صمت مرتبك.

كنت أجلس وسط الزعيق والصياح والخصومات والنقاشات الدائرة بين الذين يضعون أمتعتهم على الشبكات أعلى المقاعد، وبين الذين يريدون تعليق معاطفهم الصوفية المبطنة الثقيلة والأغطية هناك، بين الذين أشعلوا سجائرهم المتنوعة وغلايينهم حتى غطت سحابة من الدخان فضاء العربة وبين الذين لا يدخنون، وقد أثار الدخان بحدته تأفف النساء ودموع المراهقات وسعال العجائز، كنت أحاول أن أرى الفتاة التي تراقبني في المحطة إلا أني لم أجدها أول الأمر حتى دخلت امرأة حبلى كانت تدفع ببطنها المنتفخ المكور أمامها بصعوبة بالغة، كانت تتحرك بمشية متناهية البطء مثل سلحفاة، وأخذت تبحث لها عن مكان وسط صخب الجنود وضحكاتهم المجلجلة، وقد رسمت على شفتيها ابتسامة مائعة، وحين قرأ الشخص الذي يقف في الباب تذكرتها اصطحبها إلى مكان في الزاوية القصية خلف مقعد يشغله شاب يتحدث بنصف إغفاءة إلى صديقته، يتحدث بنعومة تكاد تميز من وراءها شهقاته وتنهداته، بينما ظلت نظراتها الطويلة بوجهه تحرك في جسده الجامد قفزة متوثبة، وحين تبينتها جيداً عرفت أنها الفتاة التي كانت تراقبني وقد خلعت عنها معطفها الفيزون. كان الصياح والزعيق يزداد، ويزداد معهما الذين يصعدون ويهبطون وهم يحملون حقائبهم وأمتعتهم و.. الشجارات تزداد، ويزداد صخب القاطرة حتى استدعى أحد

الجالسين شرطي القطار الذي ألقى بصوته الراعد بياناً عن الهدوء والتزام النظام، ثم مسح فمه بكمه ومضى.

(١١)

وحين سار القطار أخذت جموع المودعين تتحرك وترفع أذرعها وتطلق صيحات مبهمة بأفواهها المفتوحة الفاغرة وهي تعب تيارات الهواء الشتائية الباردة، بينما اتضحت أنوفهم المحمرة المتجلدة وهم يجأرون بصراخ غير مسموع، وقد تجمع المسافرون متزاحمين على النوافذ الزجاجية من الداخل، يتفوهون بكلمات متقطعة إلى الذين يتبعون القطار مهرولين ملوحين، حتى تتباطأ أقدامهم كلما ازدادت سرعة القطار. وحين مخر ضباب المحطة بصفير متقطع ومتصل، وقد غطت سحب دخانه الكثيف الأسود الحالك ليل المحطة البهيم، عاد المسافرون كل إلى مكانه.

يتوقف القطار في المحطات، في ضواحي المدن الصغيرة، كلما كنا نتوغل بعيداً في الشمال المتجمد، يتوقف فيهبط أو يصعد إليه المسافرون الذين يتجمعون قبالة المقاصف والمقاهي والمحلات والبوتيكات بواجهاتها الزجاجية المضاءة، وكانت نافذة القطار تسمح لي برؤية الأرصفة المكسوة بطبقة خفيفة من الجليد الملطخ بالنثار الأسود المنبعث من صنابير الكاز، وفي كل محطة كان يصعد المسافرون: موظفون صغار في النواحي، ضباط وجنود من الكتائب المنفية في صحارى الثلج، سائقو عربات شحن، تجار صغار للماشية والعلف والدواجن، طراشون أكراد، نقاشون مسيحيون، قزازون، حدادون وشرطة يحتذون جزمات طويلة من الجلد المبرنق، يعتمرون قلانس صوفية من جلد الغنم، ويجرون بسلاسل ضخمة هاربين من الجيش يتوقفون بعراقيب متجمدة من،

مكتبة الفكر الجديد

البرد، يكشفون صلعاتهم أمام أبواب العربات الدافئة، ويمسكون الركائز والحواجز الخشبية الموصولة بالسياج، ويتأملون، كانت وجوههم متورمة لوّحها الهواء الذي يثقله الصقيع، حتى بدت بلا ملامح خلف زجاج النافذة المغطاة بطبقة خفيفة من الثلج.

كانت الرطوبة والصقيع تندفعان من خلال الباب الذي يهبط منه المسافرون أثناء وقفات القطار في المحطات، فتختلط بدفء الأنفاس والحرارة المنبعثة من الأجساد النائمة. ومع تباشير الفجر الأولى بدأت حركة المقطورة تنشط نحو التواليتات: استيقاظ بأصوات مسموعة، تثاؤب، سعال، عطاس، بصاق، اندفاع الماء، رفرفة المناشف، رنة الأمشاط، وخشخشة فرش الأسنان، ثم اكتسحت العربة رائحة التواليتات الكريهة ممتزجة برائحة الصابون المعطر.

(١٢)

كنت متعباً ومرهقاً بسبب سفرة القطار، فذهبت صوب مقصورة التواليت، ممسكاً بمنشفتي الزهرية المبقعة بدوائر بلون الفلفل، وزجاجة الزيت المعطر بيدي، ففاجأتني سيدة لدى الباب كانت قد خرجت توّاً من مقصورة التواليت مخلفة وراءها اندفاع الماء ودوي باب الألمنيوم الذي ارتطم بالجدار، كانت تضع منشفتها التي فاح منها عطر رائق على وجهها الأبيض المتورد من سخونة الماء، ثم وضعت مشطها المرمري اللون في جيب تنورتها الصوفية المقطعة، وراحت تسوي كولون جواربها الشفافة إلى فخذيها المضغوطين بنعومة، وما أن رأتني خجلت وابتسمت لي ابتسامة ذائبة.

وبعد أن رطبتُ وجهي بالماء الساخن ورششت قطرات من سائل الزيت المعطر على شعري، أطلق القطار صافرته الطويلة مثل

سعال اخترق فجر المحطة الأخيرة، فعادت الضوضاء إلى الظهور ثانية في العربة، فخرجت من مقصورة التواليت بعد أن أحدثت المقطورات قرقعة ودوياً هائلاً، وهي تنفصل آناً وآناً تلتصق كي تقف في المحطة الأخيرة. كان الدخان يتصاعد سحباً في الفضاء الأزرق الفاتح، وكانت رائحة الأشجار والثلج الذائب تهب، فأخذ المسافرون بحزم الحقائب والأمتعة وهبطوا من العربات وهبطت معهم، وأخذت أسير في محطة الشمال باتجاه الموصل. كانت النباتات تتخلل السكك المتوازية المتقاطعة، وكانت تزحف أمامي قبعات نسائية من جلد الغنم، معاطف ثقيلة، عباءات سود، ومن الجانب الآخر كان عمال الترام ببزاتهم الرسمية ومعاطفهم الزرق، وأحذيتهم التي تصل إلى الركب يقفون قبالة مكاتب المحطة.

كان مراقب المحطة واقفاً بمعطفه المفكوك الأزرار، يرفع ياقته حتى أذنيه المتوردتين، ويحمل في يده فانوساً مقعور القاعدة، وعلى صدره ترفرف شارة عامل السكك، أخذ يرفع الفانوس ويخفضه إلى القطار حتى توقف خارج المساحة المبلطة ببلاطات مرمرية.

(١٣)

حين دخلت مدينة الموصل سحرتني بمساجدها وقببها وبيوتها الحجرية، كانت الأشجاء شديدة الخضرة مبللة بالماء الذي يتركه الضباب على أغصانها، مدينة قديمة بمزيج غريب من الأزياء واللكنات واللغات تمور في شوارعها. سرت حتى وصلت الشارع العام، كان البرد شديداً، وكانت السماء تتدثر بغيوم كثيفة داكنة، بينما كان الضباب يخفي معالم المدينة بين كتله التي تهبط متراكمة أسطوانية كأسوار معابد مرمرية، كانت الحدائق واسعة، وأشجار

مكتبة الفكر الجديد

السرو باسقة نحيفة مبللة، وعلى أسيجة منازلها تتهدل أشجار الحامض والبرتقال.

كنت أنتظر سيارة تقلني إلى شمال الموصل، بينما تزداد كثافة الضباب شيئاً فشيئاً حتى أثقلت على صدري، فأخذت أتنفس الهواء والضباب بصعوبة بالغة، وأنا أمسح بقفازي قطرات الماء المتكاثفة من أعلى أنفي الذي جمده البرد، وبعد دقائق ظهرت شاحنة قديمة بطلاء برتقالي كامد متصدع، دنت مني وتوقفت على مقربة، فلحقت بها، وفتحت بابها الثقيل الذي أكله الصدأ بمعاونة سائقها الكردي الذي كان يضع على كتفه معطفاً عسكرياً بكمين ممزقين، وسألته إن كان يمر بطريقه بمدينة تل مطران.

أومأ لي بالإيجاب بعينيه الباردتين برودة الصقيع، فصعدت بعد أن ألح علي بحركة جسمه الفرحة المهتزة، وبيديه الطويلتين اللتين أخذ يضرب بهما على المقود وهو يضحك ضحكات مكتومة. تناول مني حقيبتي وألقيت بنفسي بكليتي إلى جانبه وأغلقت الباب. كان وجه السائق مستطيلاً وكانت بشرته داكنة لوحتها الشمس وتيارات الهواء الباردة، وكانت أسنانه عريضة مصفحة بالكلس الأصفر ولثته زرقاء ممتلئة بالأوردة. كان يسير بسرعة جنونية مما أرعبني، لأن الضباب الكثيف بتكتله وتماسكه وانهماره الشديد يعدم الرؤية تماماً، وكلما كنت أنبهه على خفض السرعة، كان يظن أني أريد النزول فيقول لي «كاكا... تل متران بعد ما وصل».

* * *

حين تجاوزنا الطريق العام أخذ الضباب ينقشع شيئاً فشيئاً،

فانحدرت الشاحنة إلى طريق ضيق بين تلال عالية. كانت السماء ملبدة بالغيوم، وكان الفضاء رمادياً داكناً، ساكناً وعذباً، وكان الشارع الإسفلتي الذي تسير عليه الشاحنة يخترق مجالاً صخرياً يحيط بالقرى والمزارع الخضر، وبعد أن اجتزنا المضيق، أخذت الغيوم تنث مطرها الخفيف حتى أصبح الشارع الإسفلتي زلقاً. كانت الشاحنة تسير، فدخلنا في منعطفات تدور حول قرى صغيرة كائنة على التلال.

وبعد المنعطف أخذ المطر ينهمر بقوة، كانت ضرباته تزداد بعنف حتى تحولت السماء إلى خراطيم من الماء تتدفق غزيرة مدوية، وكانت السيول تتدفق حتى غطت بطميها ومياهها الشارع المعبد بالإسفلت، فأخذت الشاحنة تخوض في ضحضاحه خوضاً، ثم اندفعت المياه نحونا فأراعني هول تفجرها وعنف تدفقها واندفاعها المخيف، حتى كدت أشك في أننا سنمنح سلاماً نهائياً وسط هذا الطقس المرعب.

ثم أربدت السماء بغيوم رمادية متغيرة بصورة مفاجئة، وهي تتدافع بعنف شديد محدثة زوابع رعدية وأعاصير من الريح والمطر تجلد الأرض بوحشية، أحالت المشهد إلى وجه غاضب متجهم شبه مظلم. وكان الفضاء يطبق بدواماته الضيقة علينا ونحن نتنفس تحت الزوابع العاتية المهولة بصعوبة بالغة. كانت الشاحنة تزحف عكس الريح الشديدة التي تعصف بنا مثل إعصار مدمر، وقد كفننا ظلام باهت مريض، فانعدمت الرؤية من خلال الزجاجة الأمامية إثر اندفاع المياه ورشقات المطر التي عصفت بها الرياح باتجاهنا. وحاول الكردي أن يطل برأسه من النافذة ليستطلع الأمر، فتدلى رأسه من عنف المطر الهابط مع اهتياج الريح المضطربة المتغيرة

مكتبة الفكر الجديد

التي خلخلت ثباته، فارتد إلى الداخل بعد أن أطلق صيحة رعب جمدتني من الهلع، فانكمشت على نفسي مثل قطعة لحم منقوعة بالخل، وظل يمسك بالمقود ويئنّ أنيناً خفيضاً مخنوقاً يتصاعد من نفس مرتعبة، بينما طلع من جهة الشرق ضياء قرمزي براق ملأ روحي التي خمدت قوتها بالصمت والذهول، فهبطت منه زوبعة مدمدمة هادرة، كلانا أطلق لها صرخات ذعر مبحوحة. شعرت لحظتها بأن ركبنا أخذت ترتجف تحت أجسادنا المهتزة، ثم توغلنا وسط هذه الدوامة وكأننا نشق نسيجاً مظلماً يخفي وراء كثافته عالماً نستدل على ملامحه شيئاً فشيئاً.

(١٤)

كان السائق يحاول أن يتعرف على الشواخص القليلة المخفية، ليعرف طريقه من الشارع قبل أن ننجرف مع التيار، ونهبط في منحدر من المنحدرات المملوءة بالماء. كنا نسير وأيدينا على قلوبنا، وكان الخوف يهيمن علينا تماماً، وفي تلك اللحظات لا أدري لماذا شعرت براحة غريبة، شعرت بالطبيعة بعنفها وشرها، وكان للشر لحظتها وسامة خاصة، وسامة جعلت قواي المعطلة تنهض برعشات كبرى، ولم تكن في روحي سوى رغبة واحدة، رغبة أن أتحطم فيها فأتلاشى وأذوب على صخورها.

لم يكن هنالك من شيء يبرر هذه الفوضى الكونية التي تنتظم بتدرج موحد، هذه الفوضى التي تتابع وتسير باتجاه نقطة محددة، سوى الحماسة التي أبذلها لممارسة الحب معها، كنت أحاول اختراقها، والتوغل فيها بجسدي كله، كانت هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها الطبيعة وهي عارية تفتح فخذيها وتتنهد، وكنت أشعر بالانتصاب الذي يجتاح كل جسدي ولم تكن لي سوى رغبة

مكتبة الفكر الجديد

واحدة هي أن أقذف بنفسي من زجاجة الشاحنة وأرتمي هنالك ميتاً عارياً وأخوض في الطبيعة، أخوض في ضحضاحها هزات عنيفة متتالية ثم أسكن.

(١٥)

كان هذا المشهد قد زلزل كل ما هدأ وسكن في عمقي، وشعرت بعتمات روحي قد زالت بعد أن أخذت الطبيعة تهدأ، تخدر في سكون، كنت شعرت بأني نفذت إليها، نفذت إلى عمقها، فارتمت عارية ساكنة وقد ردت الرداء إلى أطرافها واستسلمت إلى سكون عجيب.

كان المطر يفتر شيئاً فشيئاً حتى أخذ وتيرة واحدة. وكانت السيارة قد انعطفت بنا نحو جبل قمته بيضاء تحيط بها الغيوم، وانحدرنا باتجاه منخفض بمحاذاة الشارع الذي كنا نسلكه، وقد شعرت بتنمل ساحر في جسدي، شعرت باستسلام روحي إلى راحة عجيبة، وكنت ثملاً غير قادر على الحركة، كانت لدي رغبة شديدة بالنوم، فأشار الكردي بيده إلى مدينة صغيرة ترقد على خاصرة الجبل، وقال: هذه هي مدينة تل مطران، التي أقصدها. تحركت السيارة بنا إلى منحدر أسفل الشارع، فواجهنا تيار لاهث يجرف القش والطيور الميتة والكلاب النافقة والنباتات، ينحدر أسفل الدرب الذي يصعد نحو تل مطران ملتفاً مثل أفعى، ويرتفع باتجاه الجانب الغربي من المدينة، وكنت لمحت من بين بيوتها الحجرية، نواقيس البيعة بريازتها القديمة وأحجارها الكلسية المبللة تحت غلالة منسوجة من خيوط الأمطار التي تغمرها، كانت غلالة رقيقة برقة شبكة حريرية تهتز بتيارات الريح المتقطعة، بينما يتصاعد الضباب شفيفاً يخفي معالمها بغشاوة رصاصية.

مكتبة الفكر الجديد

كان الماء يسيل من صفحة الجدار الجبلي الوعر ويتجمع عند أسفله محملاً بالقناني والأغصان الصغيرة، أغصان سرو، وقوقب، وأشجار عليق، وتختفي النفايات المزبدة والفضلات الطافية بحركة بطيئة متأنية، حتى تتقدم باتجاه القمامة رويداً رويداً، فيرتفع الطوف من مقلب النفاية محملاً بالصفائح المهملة، وصناديق الزبالة المحطمة التي تتساقط منه علب السردين الفارغة، الأسمال القديمة، الجوارب الممزقة، وقشور البيض.

***

توقفت الشاحنة في منتصف الدرب، وكان هنالك خان يرتفع عن الأرض، فأشار الكردي إشارات تنم عن ارتباك، وهو يرتدي جزمته المطاط ومعطفه المشمع، وأفهمني أنه يمكنني المبيت في هذا الخان لتعذر الصعود إلى درب تل مطران.

كان الخان مرتفعاً قليلاً، مشيداً بالحجر ومحصناً بجذوع الأشجار، وكان بابه المصنوع من الخشب السميك، يرشح ماء من الشقوق والحزوز الطولية في واجهته، وهنالك نافذة فولاذية مقطعة بالزجاج تطل على الشارع المؤدي إلى درب تل مطران، ويحيط بها سياج من الطوب المهدم، وخلفه براميل فارغة مقلوبة وأكياس مخلفات حديدية مهملة صدئة.

وعند القاعدة الحجرية قن دجاج أسفله قاعدة صخرية مغطاة تماماً بالجنفاص، سمعت منها صوت الدجاج ورفرفة الحمام والريش المتطاير في المكان، وهناك تحت حظيرة غير مسقوفة وقفت بقرة مربوطة بالحبل إلى وتد غمره الماء، تظللها أعواد سميكة، وإلى

مكتبة الفكر الجديد

جانبها بغل يضرب بأرجله ويطرطش بالماء، بينما يرتفع البخار الرصاصي وئيداً من السرقين الطافي.

(١٦)

أخذت أخوض بالماء الضحضاح الملوث بالريش والقش وراء السائق الكردي، وكنت أتحسس الارتفاعات الطينية الزلقة بقدمي، حتى وصلت إلى درجتي الدكة الصغيرة المغطاة بالنشارة والتبن التي تفضي إلى باب الخان. كانت هنالك كرة نحاسية تستخدم للطرق مثبتة بكلاب مفصلي وسط الباب، وبعد طرقي ثلاث مرات متواصلة، وأنا أحتمي بإفريز قصير من الخشب المشرح يعلو الباب قليلاً، التفتّ إلى الكردي الذي هرع مسرعاً وصعد إلى الشاحنة، وأدارها نحو الطريق العام المؤدي إلى الشمال، فلملمت معطفي حولي، وتلفتُّ فأبصرت البغل بحقويه المقوسين يخشخش في الطين، وخلف الخان الحجري المطوب بالأحمر، تتعالى أبخرة الزيت المقلي، مطلقة رائحة سوداء كريهة.

ثم عاد السائق مسرعاً نحوي، وحين قبضت الكرة النحاسية لأطرق مرة أخرى، انفتح الباب بهدوء نصف فتحة، كان الخان من الداخل مظلماً، يكشف عن ظلام أسود مدخن، يبضعه ضوء خافت يطل من الزاوية البعيدة، وقد تحصنت خلفه امرأة، لم أتبين ملامحها، حتى خلتها عارية، فمد الكردي رأسه هناك، وحدثها بكلام لم أفهم منه شيئاً (ربما كان يتحدث بالكردية أو بالسريانية، أو بلغة خليط بين هاتين اللغتين)، ولم أكن أرى غير اهتزاز كتف الكردي الذي ظل خارج الباب، بينما رأسه وعنقه الطويل إلى الداخل، وبعد لحظات أخرج رأسه مبتسماً مكشراً وعيناه ثابتتان تماماً، ثم هز رأسه المستطيل ومسح شاربه الثقيل

مكتبة الفكر الجديد

المتدلي، ودفعني إلى مركز العتمة بلطافة، وأدخل حقيبتي ورائي إلى الداخل.

بقيت متجمداً والماء يرشح مني، وكنت أسمع الشاحنة تشخر في الطين يتبعها نباح كلاب من بعيد، كانت المرأة أمامي شبه عارية يدل مظهرها على الجنون، وسط مكان معتم حشرت على كلا جانبيه غرفتان صغيرتان يتوسطهما فناء مفتوح، انتشرت على أرضه المفروشة بالخرق قطع صغيرة من النشارة والتبن وأعواد من القش، وكانت رائحة الخان نتنة وعطنة لا تحتمل لثقلها، فتناولت المرأة قنينة مملوءة بالكيروسين وعلى فوهتها المثلومة عجينة سوداء وأشعلتها، فأنارت جدران الفناء المتصدعة المرصعة بالذباب، ثم قادتني نحو الحجرة اليمنى، وحين وصلت إلى السرير شبه المهدم، ألقيت بنفسي عليه، أغلقت المرأة الباب ورائي وخرجت.

(١٧)

لا أعرف كم ساعة نمت.

لقد سمعت صوت الناقوس الذي يتدلى من برج حجري في تل مطران يدق من بعيد دقات متقطعة، وحين فتحت عيني بصعوبة شاهدت شعاع الشمس يتسلل من النافذة على الجدران المتصدعة، وبعد لحظات سمعت وشوشة ناعمة، فحملت حقيبتي ونهضت، وحين فتحت الباب، رأيت المرأة قد فتحت باب الخان الخشبي على مصراعيه، تاركة شعاع الشمس أن يلج المكان بسحره الذي لا يقاوم، وقد وقفت بسروالها الأبيض الناصع وصديريها المنقوش، واضعة على رأسها عمامة بلون مربى المشمش. كانت جميلة بعينيها السوداوين الواسعتين.

مكتبة الفكر الجديد

الممسوحتين بالتماعة براقة وبلون بشرتها البيضاء وقد تشربت بحمرة باهتة.

وحين دخلت الحجرة واجهتني بحياء وابتسامة جميلة، كاشفة عن أسنانها البيض وقد أحنت رأسها حين رأتني، فوقفت أمامها وسألتها عن الأجرة. فقالت «خليها علينا...» إلا أني رفضت وأخرجت محفظتي من جيب معطفي، ووضعت كمية من النقود على المنضدة ورحلت، لأصعد الدرب متجهاً نحو تل مطران.

(١٨)

لم تكن مدينة تل مطران بعيدة عن الخان، وحين صعدت الدرب المؤدي إليها خلعت معطفي ووضعته على كتفي، كانت الشمس ساطعة، ونسمات الهواء باردة منعشة، ولم يبق من المطر سوى برك مائية تتخلل المنخفضات والغدران والشقوق المؤدية إلى الوديان.

كانت المدينة جميلة بمنازلها وكنيستها الحجرية الصغيرة، والأشجار المعمرة المحيطة بها من كل مكان، وحين وصلت إلى التقاطع الذي يربط الدرب الذي يصعد إليها مع شارعها العام اندهشت من نظافتها وجمالها، فقد كان الشارع الذي يؤدي إلى ميدان المدينة مرصوفاً بالحجارة المقطعة بأشكال هندسية، وكان الرصيف مطلياً بلونين أبيض وأصفر فاتح، وعلى جانبيه كان هنالك صف من الأشجار الضخمة المعمرة التي تزقزق عليها العصافير، وتحت كل شجرة من هذه الأشجار كانت هنالك مصطبة خشبية صغيرة.

كنت رأيت المدينة للوهلة الأولى وقد انقسمت إلى ضاحيتين:

مكتبة الفكر الجديد

الغربية التي تضم كنيسة مبنية على الطراز الإنكليزي بمحاذاة مقبرة مشيدة وسط حديقة واسعة ملأى بصفوف الأزهار، والسوق الذي يتوسط ميدان المدينة، وهنالك طرازان من المنازل الحجرية، منازل صغيرة قريبة من الكنيسة والسوق، ومنازل فخمة منعزلة قليلاً تمتد حتى الميدان الحيوي للمدينة، بينما كانت الضاحية الشرقية تضم مبنى الجمارك والبريد والسلخانة وبعض المطاعم والملاهي والفنادق ومنازل حجرية جميلة مشيدة على طراز واحد، وعند الصعود إلى درب المدينة يمكنك أن ترى من بعيد معسكراً للجيش يتوسط الهضبة العالية.

***

في الواقع تشبه هذه المدينة إلى حد بعيد المدن التي شيدها الإنكليز إبان احتلالهم للعراق، المدن التي شيدتها شركات النفط مثل عين زالة وT1، أو المدن التي بناها الجيش الإنكليزي وألحقها بمعسكراته في الحبانية والشعبية. ووجود معسكر للجيش على مقربة من المدينة، وتشابه بناياته مع المنازل الحجرية المشيدة على الطراز الكولونيالي في الضاحية الشرقية يثبت أن المدينة كان قد شيدها الإنكليز للعاملين في المعسكر. وحين قطعت الطريق الذي يتجه نحو السوق، رأيت بعض العلامات والتواريخ واليافطات المكتوبة باللغة الإنكليزية والتي تعود إلى ذلك العهد، فما زالت يافطة معدنية حمراء كبيرة موضوعة على مبنى البريد، تشبه اليافطات الحمر التي تميز البريد الإنكليزي مكتوب عليها (post office)، وما زالت هنالك قطعة بيضاء مكتوب عليها (Tal Moutran) موضوعة على واجهة مبنى عال في الشارع الرئيس المؤدي إلى الميدان الحيوي للمدينة، كما أن المدينة تتميز بمظاهر سكانها الراقية، فلا

مكتبة الفكر الجديد

يربطها مع المدن الإسلامية أو حتى المسيحية (مثل القوش، وتلكيف القريبة منها) والتي يمكنك أن تراها وأنت تمرّ شمال الموصل أي رابط، سوى السوق الشعبي الذي يتوسط الميدان، فقد كان شرقياً بالكامل، ويصح أن نطلق عليه (بازار).

(١٩)

اتجهت نحو الكنيسة أول الأمر، فكان لزاماً علي المرور في السوق الصغير الذي يتوسط ميدان المدينة، كانت هنالك دكاكين الصاغة ومتاجر الأقمشة وبعض المحلات التي تبيع البضائع التركية المهربة على حافة بازار مسقف أطلق عليه «بازار العطور»، وأمام الساحة كان هنالك باعة الرز والحنطة والبقول يجلسون على الأرض دون حوانيت، وكانت الخراف والنعاج والسخول تتجول في الساحة بحرية تامة، وعلى الرصيف كانت البائعات المسيحيات اللواتي تميزهن من الطريقة التي يعقدن شعرهن بها يجلسن على دلاء مقلوبة، وأمامهن أقفاص الدجاج، البط والطيور.

كنت أسير على الرصيف المزدحم بالبائعين والبائعات، أتخطى ببطء خلفهم لأن وجوههم كانت تتجه نحو الساحة، وفي الطرف الأخير من الرصيف كانت هنالك عربة تحجز الشارع، ولكي أجتازها كان علي أن أقفز فوق بضائع البائعين الملقاة على الأرض وهم يصرخون بأصوات عالية متداخلة ومتمازجة مع بعضها، وفي الطرف الأخير كانت هنالك شابة تحمل ديكاً رومياً وقد عرضت أمامها بضاعتها: قفصاً للدجاج، ومجموعة من علب الزينة وتصاوير الممثلين التي علقتها بملاقط على حبل ربطت طرفه بقفص الدجاج، وربطت الطرف الآخر بذيل بغل يقف إلى الجوار منها. كانت قوائم البغل كالحة، وأردافه سمينة مكورة، تسيل على

وبره الكث رغوة دهنية كثيفة بين الحزام الجلدي ولحمه المسلوخ، وكان يهز بأذنيه كلما وقف الذباب على رأسه وفمه. كانت الشابة تطلق صوتاً مبحوحاً، وهي تدلل على بضاعتها، تمسك الديك الرومي بيدها وبصوت عذب تتوسل المارين أن يلقوا نظرة على بطنه السمين الممتلئ، وحين صرت أمامها مباشرة، أمسكت بمعطفي دون أن تنظر لي، وأخذت تعرض مفاتن ديكها باللغة السريانية، ثم حولت نظراتها نحوي، وأصبحت عيناي بعينيها مباشرة، فشهقت ووضعت يدها على فمها، ثم أطلقت صرخة عالية، رمت الديك الرومي في وجهي، فصفق بجناحيه الطويلين الأسودين بعد أن صعد كتفي بحواف ريشه السميكة على عيني وفر مسرعاً خلفي.

في الواقع كانت هذه الشابة السريانية قد فاجأتني بذعرها، فاضطربت وبدأت أتقدم نحوها لتهدئتها، إلا أنها ارتدّت أمامي إلى الخلف، ثم تعثرت بالحبل الذي ربطت به التصاوير وأدوات الزينة فقلبت القفص وفر منه الدجاج مذعوراً، وحين رأت فرار الدجاج زعقت بصوت مبهم بالسريانية وهربت. وفي تلك اللحظة انضم بغلها إلى هروبها وجر الحبل بذيله وسحل قفص الدجاج على الأرض، وعندما قطع الساحة من منتصفها، اضطربت السخول قالبة قوارير العطر وعلب مساحيق الزينة، فانتقلت الفوضى إلى السوق بأجمعه، وكلما كنت أتقدم نحو شخص لأوضح له الموقف كان يصرخ ويهرب أمامي مذعوراً، فتعالت الصيحات الحادة والصرخات المضطربة والزعيق المصحوب بهلع الحيوانات الهاربة وخرجوا من السوق، لقد كانوا ينظرون نحوي بهلع شديد، وكنت كلما أتقدم نحوهم يتقهقرون أمامي حاملين بأيديهم ما يستطيعون حمله، ومخلفين وراء فرارهم

المذعور سلالهم المقلوبة وشياههم الضالة وأقفاص الطيور المتروكة فوق البراميل، وعلى الارض تبعثرت حبوب الحنطة والماش والعدس وزجاجات النبيذ المهشمة والنعال المتروكة، ومن بعيد كانت الكلاب تطلق نباحها الخائف المرتبك.

(٢٠)

قطعت الجادة التي تحول نظامها إلى فوضى من منتصفها، كنت متجهاً نحو الضاحية الغربية، فاتخذت الطريق الحجري الذي ازدحمت على جانبيه محلات الملابس والعطور والسجائر ومجلات الموضة، وفي الطرف كان هنالك متجر صغير، أبوابه مفتوحة على مصراعيها، يقع عند تقاطع الطرق المؤدية إلى البيعة، وكانت صاحبته العجوز ترتب الفاترينة المزدحمة بالعطور، والمفروشة بالقديفة القرمزية الملساء، كان وجهها أبيض مترهلاً، وكانت تدندن بلحن قديم، فتتدلى خصلة فوق جبينها من شعرها الفضي الذي يلمع في الضوء الذي يخترق الزجاج مباشرة.

أردت سؤالها عن منزل الأب عيسى اليسوعي، فوقفت أمام الفاترينة وطرقت بإصبعي على الزجاج، فانتبهت لوجودي، سوت ثوبها الذي ارتفع فوق عجزها السمين، وزرّرتْ معطفها، وشمرت شالها على كتفيها بعد أن لفته إلى عنقها، وحين أصبحنا وجهاً لوجه سألتها «من فضلك أين منزل الأب...» وقبل أن أكمل جملتي صرخت في وجهي، ودفعتني بيدها ولاذت بالفرار إلى الشارع، كانت تركض وهي تصرخ مذعورة، وقد تركت إحدى فردتي حذائها في منتصف الطريق، بينما ظلت الأخرى معلقة برجلها، كانت تسقط أحياناً على الأرض، فتنهض صارخة بصوت متشنج «نخرايا.. نخرايا.. نخرايا».

***

لقد أرعبتني المدينة التي أرعبتها.

فتحت حقيبتي الجلدية السوداء وأخرجت الرسالة، ثم انطلقت بسرعة نحو البيعة التي تبينت واجهتها الحجرية من استدارة في الطريق، وبعد أن تجاوزت الحديقة الصغيرة في آخر الشارع رأيت الكنيسة بأقواسها الحجرية الداكنة التي تكلل المداخل، وفي الأعلى كان برجها العالي يرفع الصليب المذهب الكبير في الفضاء، وقد كلّلت أسفله النواقيس النحاسية الكبيرة، بينما يهبط من منتصف أكبر ناقوس من نواقيسها حبل من القنب المجدول إلى الأرض.

سرت شيئاً فشيئاً حتى أصبحت قبالة بوابتها الخارجية المفتوحة على مصراعيها، كان بيني وبينها مسافة سمحت لي برؤية الحديقة المحيطة بها، والرواق الطويل المسقف بأقواس مدببة مصنوعة من الزجاج الملون والحجر، وقد تزاحمت تحته جموع الفوضى والاضطراب مثل دوامة هادرة، اندفعت نحو الخارج أول الأمر وحين رأتني ارتدّت على أعقابها متقهقرة صارخة فزعة، لم أكن قادراً على تهدئتهم على الإطلاق، فقد كنت أكثر فزعاً منهم، وكان خوفي يتركز على نقطة واحدة: ماذا لو يئست هذه الجموع وأنا أتقدم نحوها فتقدمت نحوي؟ فإنها ستفتك بي لا محالة. لذا تراجعت خطوات للوراء. وفي تلك الأثناء تقدمت نحوي راهبة طويلة، كانت ترتدي غطاء أبيض على رأسها وفي يدها مسبحة، وتبعها راهب وسيم بصلعته البيضوية القرمزية المتلامعة وبنظارته المعدنية المموهة بالذهب، كان يحمل في يده صليباً مرصعاً بالجواهر يهز به مشيراً إلى الجمع المرتعب المضطرب خلفه لتهدئتهم.

مكتبة الفكر الجديد

قلت لها: «أرجوك... أنا أحمل رسالة إلى الأب عيسى اليسوعي... رسالة من السيدة صافيناز أوغلو». كنت أنظر إليها على نحو متوسل، بينما ظلت الراهبة متحفظة بهدوئها تتقدم بخطوات واثقة نحوي، تتبعها الجموع بحذر شديد مادين أعناقهم من على أكتاف بعضهم مستطلعين الأمر، وهم فاغرو الأفواه، ثم مددت الرسالة بيدي وقد جف فمي تماماً من الذعر حتى أصبح لساني مثل خشبة.

***

تقدمت الراهبة نحوي، تناولت الرسالة، وفتحتها بعد أن مزقت المظروف وأخذت تقرأ، وكان الجمع وراءها بملامحه المذعورة الباكية، بعضهم يجلس على ركبتيه ويصلي ويرسم إشارة الصليب في الهواء، وكان أحدهم يجثو على ركبتيه أمام أيقونة موضوعة في المدخل، يتوسل ويستنجد مشيراً إلي بيده اليمنى، ثم يشبك يديه إلى الأعلى ممسكاً بمسبحته.

كان الراهب يقف وراء الراهبة مباشرة يرمقني بنظرات ثابتة واثقة، وخلفه إلى جهة اليسار قليلاً وقفت فتاة لا حد لجمالها، كانت ترمقني بعينين خضراوين عليهما التماعة جذابة، وترد خصلة شقراء تتدلى على جبينها الأبيض، كانت ترتدي ملابس مثيرة، الكنزة الضيقة التي تبرز صدرها الناتئ الصغير وبنطلونها اللازق على لحمها الرشيق، فتخال أن بنطلونها سيتفتق ويظهر أمامك جسدها الوردي بكل بضاضته وترفه.

كنت أنتظر جوابها وأنا أتطلع إلى التماثيل التي تكلل الواجهة المرمرية، ومن باب البيعة كان ينبعث شذى بخور ثقيل يتسلل من

العمق شبه المعتم إلى الخارج، وكنت أرى المذبح الواطئ المحاط بالشموع النحيفة الشاحبة بجلال مقدس، ولهبها الصغير الذي يتراقص بجمال أنثوي.

أعطت الراهبة الطويلة الرسالة بعد أن قرأتها إلى القس الذي يقف خلفها، حيث أخذ يقرأ بصوت عال وهو يمسح صلعته براحة يده، والجميع يتطلع نحوي بفضول وذعر بينما كنت أتصور أنهم سيضحكون على أنفسهم، فما الداعي إلى الفزع ما دمت معلماً للأطفال في البيعة ولست فرانكشتاين؟! نظر القس نحوي بعد أن أخرج ساعته من جيبه وقطب حاجبيه الكثين الأصفرين على عقاربها ثم أعادها إلى مكانها، وقال وهو يخلع نظارته: «الأب عيسى اليسوعي مريض جداً... إنه في الواقع يحتضر... ستبيت الليلة عندي ومن ثم نتفق حول مسألة الرابي في بيعتنا» ثم أشار على الفتاة التي خلفه ووشوش في أذنها، والتفت نحوي قائلاً «سترافقك شميران إلى المنزل...» بينما بقيت الراهبة الطويلة واقفة جامدة تنظر نحوي بارتياب، وهي تشير إلى الجمع المضطرب بالدخول إلى الكنيسة.

أخذ الناس يدخلون باب البيعة وهم مضطربون، وفي الرواق المؤدي إلى البوابة الداخلية التي تفضي إلى المذبح، كان الداخلون يرتجفون وهم يلتفتون نحوي بنظرة صامتة خائفة، يصلون باتجاه الأيقونات والتماثيل التي تكلل الواجهة ويرسمون إشارة الصليب في الهواء ثم يحنون الرؤوس بخشوع تام ويدخلون.

(٢١)

التقطت شميران الحقيبة الجلدية من الأرض وناولتها إلى صبي معتوه له وجه شبيه بوجوه المنغوليين تبعها، «عوديشو تعال

معنا...» قالت للصبي الذي يهز رأسه البيضوي الكبير من الذعر أمامي وكأنه يتلقى صفعة من يدي، فسرنا (شميران وأنا) مخلفين الصبي وراءنا، كان يسير ويتعثر بلحمه السمين المترهل وبكرشه المتدلي الذي يخرج من بلوزته الصوفية القصيرة، ثم انحدرنا مخترقين المدينة من عطفة صغيرة وراء الكنيسة مندفعين إلى الداخل، وبعد خطوات انفتحت المدينة كلها أمامنا، وأدركت لحظتها أن واجهة المدينة تميل إلى اليسار قليلاً، وكنت دخلتها من جهتها الخلفية وليس من أمامها كما خيل لي في الصباح.

كان هنالك شارع واسع يفصل جانبي المدينة محاطاً برمته بأشجار السرو الخضراء الداكنة التي اختفت سيقانها تحت غلالة شفيفة من البخار المتصاعد بفعل أشعة الشمس، يحمل يافطة كبيرة مكتوب عليها «شارع النبي دانيال». كنا تجاوزنا بدايته واتجهنا غرباً إلى حي سكني صغير قادنا إليه شارع بسيط مرصوف بالقار والحجارة، وقد امتدت حدائق الأزهار الصغيرة على أرصفته، كانت منازله البسيطة كصفوف حجرية على الشارع بنوافذها المغروسة في الواجهات، وأفنيتها المفتوحة، وفي نهاية الشارع توقفنا أمام منزل منيف مسوَّر بأشجار الزعرور المهذب بالمقص، وقد توسطته فرجة مستطيلة بطول قامة بشرية حددت من أعلاها بشرائح من الخشب المقوس، وكانت واجهته تحمل مرمرة تشبه شاهدة القبور وقد نقشت باللغتين العربية والسريانية (القاشا خوشابا الساعور).

فتحت شميران البوابة الخارجية وقالت لي «تفضل...» وأنا أنظر إلى جسدها الجميل المتناسق خلف بنطلونها اللازق وكنزتها الضيقة.

دخلنا عبر ممر مرصوف ببلاطات تفضي إلى المدخل الرئيس. وفي الحديقة الصغيرة، بمواجهة الباب، انتعشنا بهبات هواء قصيرة عبثت بشعر شميران وتماوجت خصلاته على أكتافها، كان هنالك شذى الآس بصفوفه المقصوصة بهيئة مستطيلات في عموم الحديقة المعشبة بالثيل الأخضر الداكن، وهناك أشجار الحامض التي تلقي بثقلها على السياج. وحين دخلنا إلى الصالة واجهنا دفؤها المنبعث من وجاق كبير يبرز في الواجهة وقد أثقلت سقفه المبلط بالموزاييك الزهريات الخزفية الملونة، والصحون التي تنبعث منها أبخرة دينية أشبعت الصالة بحدتها ونفاذها، وكانت هنالك المكتبة الكبيرة التي تواجه الوجاق مباشرة، حيث تنعكس شعله على خشبها الصاج الصقيل، وعلى طاولة الكتابة بأقلامها المذهبة وأوراقها المنسقة بعناية.

وعند السلَّم المرمري كانت طاولة الطعام الطويلة المنسقة شراشفها مع كراسي الخيزران المنجدة بالقديفة الحمراء التي تتلاءم مع لون فرش الأرضية التي تمتد مع ساحة الصالة وحتى صحن السلم. كنت أحاول أن ألقي نظرة على الصالة يتبعني عوديشو وتتقدمني شميران التي تسلقت السلم قبلنا بدرجاته المرمرية الصغيرة وقد غطته السجاجيد الحمر.

نصف دورة وقادنا السلم إلى حجرتين صغيرتين في الأعلى تشرفان بإطلالة داخلية على قضاء الصالة، فتحت شميران الحجرة الأولى مخلية الطريق للمعتوه الذي تبعها بسرعة رامياً الحقيبة إلى الداخل بصورة عشوائية ليبتعد عن الباب، وقد وقفت شميران بجانبه من الخارج وهي تنظر لي بعينيها الحادتين وقد ارتعشت شفتاها القرمزيتان، ولمعت عيناها الخضراوان التماعة جذابة.

مكتبة الفكر الجديد

كنت أمسك معطفي بيدي اليمنى بينما تركت الأخرى سائبة، وجلت بنظري على الحجرة من الداخل، كانت هنالك خزانة للملابس كبيرة، وسرير نظيف بفرشه وبطانياته الصوفية وبياضاته الناصعة، ومدفأة نفطية كبيرة موضوعة في فتحة تكشف قليلاً عن البلاط الأصفر، وقد فرشت الأرضية بفرش منسوج من جلد الماعز، كان يبعث رائحة متميزة في الحجرة. رميت معطفي على الكرسي قبالة السرير، ووضعت ساعتي وقفازاتي في «كومدينو» مصنوع من خشب بلون العاج، ثم وضعت الحقيبة الجلدية في الخزانة، خلعت ملابسي الرطبة ورميتها على الكرسي الذي يقابل السرير، وانسللت في الفراش الدافئ.

(٢٢)

كم ساعة نمت؟ لا أعرف.

كنت شعرت بطرقات خفيفة على الباب وصوت هبوط على السلم، فاستيقظت من النوم، ارتديت ملابسي على عجل ونظرت من النافذة فرأيت الليل بسواده الحالك، ما خلا الأنوار الخافتة الملونة المنبعثة من المصابيح الكهربائية في شارع «النبي دانيال» والتي تأتي من بعيد، كنت أستمع إلى صوت الجنادب في الليل الشتائي الحالك، والهدوء البارد الذي يخيم على المكان، كانت حجرتي دافئة إلا أني وضعت اللفاف على عنقي، فتحت باب الحجرة وهبطت السلم.

كان القس خوشابا هناك يجلس على مقعد كبير ملقياً قدميه الضخمتين المحتذيتين جزمة سوداء بثنيات عند العرقوب على رخام الوجاق المبلط. فنظر نحوي بوجهه الوردي مبتسماً وقد

مكتبة الفكر الجديد

لمعت صلعته تحت النور، ودعاني للجلوس قبالة الوجاق المشتعل بالحطب المقتلع من جذور السدر، بينما كانت رائحة احتراق الخشب بضوعها وشذاها الكثيف تهيمن على الصالة. قال القس بصوت عذب ونبرة لا تنسى – نبرة السرياني الخارجة من الأنف: «لا بد أنك جائع». كانت هنالك سيدة تعمل في الحجرة السفلية الأولى جنب درجات السلم، وهي تدندن بصوت خفيض أغنية سريانية مشهورة «لو كان بالإمكان لأرسلت دموعي لتخبرك...».

دعاها أن تعد العشاء لي بصورة آمرة «جولي... عشاء الرابي».

استدار نحوي مبتسماً وقال: «جولي أوقفت حياتها لخدمتي». ثم ركز نظارته المموهة إطاراتها بالذهب بإصبعه النحيف، ومد يديه الناعمتين المسحوبتين برقة يد عذراء على صفحة الوجاق وتناول زجاجة النبيذ وكأسين صغيرتين ووضعهما على طاولة بالقرب منه، وفي تلك الأثناء دخلت جولي وهي تحمل صينية من النيكل عليها صحن لحم العجل المطبوخ بالخل والفلفل، وخبز الرقاق الذي يشتهر به الكلدان، وصحناً صغيراً من السلَطة ووضعتها على طاولة قبالة المكتبة. كانت جولي أقرب إلى العاهرات في شكلها، الشعر المصبوغ باللون الأحمر اللاهث وقد ردته إلى الوراء ليبرز وجهها السمين المطلي بطبقة ملونة من المكياج، رموشها الغاطسة بالكحلة، صدرها البارز والمتقدم إلى الأمام، وكان عجزها يتراجع بعنف تحت التنورة القصيرة الضيقة، كانت تهتز كلها ولا تستقر على الإطلاق وهي تتحدث، وتطق بعلكتها في فمها.

لقد تجاوزت سنها الأربعين ومن الواضح أنها ما زالت عذراء، وحين وضعت الصينية أمامي ابتسمت لي ابتسامة خليعة، استدارت

وهي تقول لي «لعل الأكل يعجبك رابي» ثم سارت عني وهي تدور بردفيها السمينين أمامي وتدندن بأغنيتها العاطفية. فأخذت ألتهم الطعام وعيناي تدققان في عناوين الكتب الموضوعة في المكتبة، بينما انشغل القس ببرد عدسات شفافة في يده، وأخذ يحك بنهاياتها وينظفها بمنديل أبيض أخرجه من جيبه، ثم خلع نظارته، وأخذ ينظر بالعدسة التي في يده، نظر صوبي مبتسماً وقال «بالعافية...»، ثم عاد للانشغال مرة أخرى ببرد العدسات.

كانت الطاولة موضوعة في المكان الخطأ، على الأقل بالنسبة لي، لأني نسيت تذوق الطعام وانشغلت بالتعرف على الكتب الموضوعة على رفوف المكتبة، كنت أقرأ وأنا جالس في مكاني – مندهشاً – المجموعة الكاملة من مجلة «المشرق» للأب لويس شيخو بمجلداتها الأنيقة المذهبة، «لغة العرب» للكرملي، مجلة «شعر» ليوسف الخال، الصحيفة الآسيوية التي أصدرها المستشرق الفرنسي جان باتيست شابو، مجموعة شعرية لكافافي. «كافافي... ماذا يفعل هنا...» قلت في نفسي، وسألته: «كافافي مَن... الشاعر اليوناني أم غيره؟» فأجابني ببرود «ليس هناك سوى كافافي واحد...» قال ذلك دون أن ينظر نحوي وهو منشغل ببرد عدساته. قلت له «ترجمة...» ودون أن أكمل قال «نعم.. سعدي يوسف». كنت أضع اللقمة في فمي دون أن أنظر إلى الصحن الموضوع أمامي، وعيناي تتنقلان بين العناوين (كتب الليتورجيات) باللغة اللاتينية، جنبها موسوعات مذهبة عن الرحلات إلى الشرق، وكتب فلسفية لشوبنهاور ونيتشة وكيركيغارد وسارتر، قلت في نفسي «قس ويقرأ نيشة وشوبنهاور وسارتر...»، وهنالك كتب عديدة عن التصوف الإسلامي عربية وفرنسية، كتاب «الطبقات» للسلمي، «الصلة» لعريب القرطبي، «المقابر المشهورة» لابن أنجب الساعي،

مكتبة الفكر الجديد

كتاب ماسينيون عن الحلاج، كتاب عن التصوف الفارسي لهنري كوربان، كتاب عن ابن الرومي للمستشرقة الألمانية أنا ماري شمل، كتاب عن الحشاشين والحسن الصباح لبرنار لويس وكتب في التصوف الفارسي، وهناك أيضاً «موسوعة العالم الروحاني» لمجتبي صدره الشيرازي الصادرة عن «انتشارات أهرمزدا» في العام ١٩٠٣، وإلى جانبها كتب الأب بولص نويا اليسوعي، وأردت حرف الموضوع قليلاً إلى جهتي فقلت «هذه كتب الأب بولص نويا... ها؟» لم يهتز على الإطلاق وبقي منشغلاً بتسليته، فأعقبت «كان صديقاً لصافيناز أوغلو. هل تعرفها؟»، قال ببرود شديد «نعم...» وفي طرف المكتبة تمتد كتب أخرى باللغة الإيطالية من دانونزيو إلى أمبرتو إيكو، وهنالك كتب بالعربية: لأدونيس، محمد عابد الجابري، هشام شرابي، حسن حنفي... وفي المقدمة دواوين شعرية متعددة لسركون بولص، جورج حنين، الأب يوسف سعيد، ريتسوس، السياب، بول تسيلان، سعيد عقل، يوسف الخال.. وترجمات من كل نوع: شعرية، روائية، نقدية، فلسفية... ولكن ما أثار انتباهي حقاً هي روايات ألبير قصيري، فصرخت دون أن أتمالك نفسي «هذا ألبير قصيري» فنظر إلي بسرعة ولم يتمالك نفسه وابتسم لي، ثم عاد إلى عدساته. قلت له «إني أحب رواياته...». لم يجبني بشيء، إنما تمتم في نفسه بكلمات غير مفهومة سمعت منها «دانونزيو» فقط. في الواقع كانت لهذا القس هيئة غريبة تشبه غرابة شخوص روايات دانونزيو وشرورهم. بعد أن فرغ من تسلياته ترك مكانه بهدوء وجلس قبالة النار مباشرة. وضع ساقاً على ساق وهو يدخن غليوناً أزرق من البورسلين تناوله من على صفحة الوجاق، وأخذ ينفث في الفضاء نفثات صغيرة متقطعة، فقمت من مكاني، مسحت يدي وفمي بالمنديل، ثم تناولت موسوعة مذهبة عن المستشرقين الألمان، وجلست أمامه مباشرة على الكرسي الذي

مكتبة الفكر الجديد

يقابله، كانت نظرته متعالية وهو يرتدي نظارته ذات الإطار المعدني المموه بالذهب، وأخذ ملقط الجمر وراح يؤجج النار المنبعثة من الجذور الرطبة التي يتصاعد دخانها الكثيف في المدخنة، وبينما كنت أقلب صفحات الكتاب رمى الملقط من يده وقام بهدوء ليصب لي في كأس رقيقة الزجاج شيئاً من نبيذ التفاح، كانت رائحته المعتقة الحادة النفاذة سحرتني، فتناولت الكأس من يده، كان يبتسم لي ابتسامة غريبة وهو يجلس على الكرسي الموشى بالرسوم أمام النار المتلامعة، المتطايرة شعلها على السجاد.

قلت له: «كنت جلبت معي بعض دواوين الأب يوسف سعيد في حقيبتي، قلت في نفسي طالما أنا ذاهب على مدينة يقطنها السريان فلا بد أن أقرأ شيئاً عنهم» فنظر لي بابتسامة مستهزئة: «لن تجد سرياناً في دواوين يوسف سعيد إنه يتحدث عن المسيحية والمسيحية ليست السريان. إنه شاعر ديني بالأحرى ولكنك تجدهم على نحو قليل لدى سركون بولص...» قلت له مباشرة: «كانت صديقتي قد قرأت لي بعض قصائده قبل مجيئي إلى هنا... إنه آثوري»، قال: «نعم إنه آثوري من كركوك.. كان صديقاً لي حينما كنت في كركوك هو وجان دامو».

وحين وضعت الكأس في فمي التفت نحوي وقال: «أتمنى أن تطيب إقامتك بيننا رابي». ثم صمت، وهو ينظر لي «ستقطن معنا في هذا المنزل ريثما أتدبر أمر سكنك في شارع النبي دانيال، فهو يناسبك أكثر».

قال ذلك دون أن يوضح ما يعنيه بـ «يناسبك أكثر»، فأدركت أنه يريد أن يصرفني عن هذا المكان، مما زاد ارتيابي فيه.

«بماذا يناسبني شارع دانيال رابي؟» قلت وقد وضعت الكأس على الطاولة التي تفصل بيننا. «مركز المدينة يناسبك أكثر. هناك المركز الحيوي.. الفنادق، المطاعم، الملاهي، ستكون ظروفك أفضل بكثير. كما أنها خليط من الناس أما هنا فمركز ديني وسوق وقد تجمعت منازل المؤمنين حولنا». قال ذلك بهدوء وبصوت إيماني خالص، ومع ذلك لم أفهم. ثم حول نظراته عني وخلع نظارته وأخذ يمسح عدساتها بمنديل أبيض «ستواجهك مشاكل تتعلق بطبيعة المدينة لا بطبيعتك، ولكنك ستتعود عليها. أنا واثق من ذلك. ستذللها».

وقبل أن أنطق أية كلمة، قال مباشرة: «أنت ستلتحق بالبيعة في أي وقت تشاء، وأنا من جانبي أوعزت إلى شميران، شميران التي أوصلتك هنا صبيحة هذا اليوم بمساعدتك في أمر الأولاد. نحن مسرورون حقيقة بك رابي». كنت أنظر نحوه بصمت منتظراً منه أن يحدثني عن السبب الذي جعل المدينة ترتعب مني هكذا، إلا أنه لم يتحدث عن ذلك مطلقاً، إنما انشغل بتسوية ثوبه الفضفاض ونفث الدخان من غليونه البورسلين في الفضاء نفثات قصيرة متقطعة، ثم أخذ يدقق ويتفحص وجهي، فقلت له متمتماً «قاشا ما السبب الذي جعل القيسارية ترتعب مني... عندما دخلتها؟».

خرجت هذه الجملة فاترة باهتة من فمي، إلاّ أنه ارتعش فجأة لها، وحول نظراته صوب النار المتلامعة وهو يخفي شيئاً ما وقال: «لأنك نخرايا...» أخذ زجاجة النبيذ المضلعة وصبّ لي في الكأس الرقيقة الزجاج شيئاً من نبيذ التفاح الأصفر الباهت لأرطب برشفة صغيرة حلقي المتيبس. «ماذا يعنون بنخرايا.. فقد سمعت المرأة تصرخ نخرايا نخرايا وهي هاربة» فضحك ضحكة هادئة

مكتبة الفكر الجديد

ليسخف الأمر وقال: «النخرايا باللغة السريانية هو الغريب رابي، نخرايا هكذا نسميه بالسريانية... وضعاف الإيمان لا ينظرون للموت بعينين صافيتين مفتوحتين... نعم رابي الكلدان يخشون الغرباء... كلهم، كل الكلدان يخشون الغرباء كما يخشون الموت» ثم صمت برهة وهو يحني رأسه الأصلع تجاهي وقال «أتمنى أن تعتاد على هذه الأشياء... أشياء غريبة إلا أنك ستألفها بالتأكيد».

وسرعان ما حول الموضوع إلى الشعر بطريقة ذكية، نظر إلى الموسوعة التي في يدي، كانت هنالك صورة للمستشرق الألماني بورغشتال وأسفلها تعليق وثلاثة أبيات من الشعر لجلال الدين الرومي كان قد ترجمها بورغشتال إلى الألمانية، فقال لي «الشاهد هنا في يدك، هذه أبيات جلال الدين الرومي ترجمها بورغشتال إلى الألمانية تقول: إن الذي لا يحب الغريب، يستقبل الموت وهو خائف» وسرعان ما حول الموضوع إلى ترجمة بورغشتال للمثنوي، وقال «لقد واجه انتقادات شديدة لترجمته» ثم انحرف شيئاً فشيئاً إلى الحديث عن سركون بولص، عن السياب الذي تعرف إليه في أيامه الأخيرة من مرضه، تحدث عن ترجمات سعدي يوسف لكافافي ولريتسوس، عن أدونيس وترجمته لسان جون بيرس، تحدث عن مجلة «شعر» وأنطوان سعادة وغسان تويني وهشام شرابي وسعيد عقل، وكل مرة يركض نحو المكتبة ليأخذ كتاباً ويقرأ لي فقرات مثل معلم. في الواقع كانت الأحاديث متناثرة وسريعة وعميقة، من مجلة «شعر» إلى مجلة «حوار»، من قضية الترجمة إلى قضية التأليف، كما كان هو الذي يقود الحديث لا أنا، كانت الكلمات تتناثر من فمه بسرعة، بسرعة شديدة وبصورة متلاحقة، كما أنه يلقي بجمل تقريرية دون أن يبين السبب، جمل تعميمية مثل: «نعم أحببت ترجمته لأن فيها

مكتبة الفكر الجديد

روحاً محلية». فأقول له «ولكن حضرة القاشا كان عليه أن يلتزم بالنص الأصلي»، فيسخر مني ومن المترجم: «وهل تظن أن النص الأصلي قريب من الترجمة؟»، فيضحك ضحكة عالية: «لا... لو كنت قرأتها باليونانية...» أو يقول «لو كنت قرأتها بالإيطالية... أو بالفرنسية – حسب اللغة المترجم منها – فإنك ستضحك من المترجم، ولكنه منحنا قصيدة أخرى. ولأنه شاعر فقد قرأنا قصيدة جديدة قريبة من شعره هو، لا من القصيدة ذاتها، أو من الشاعر ذاته». ثم تحدث بعمق عن الشرور التي تسيطر على الطبيعة البشرية، أخذ يتحدث عن نيتشة وشوبنهاور، عن التدمير والخراب والرغبة بالتغيير والتدمير والتخريب، وهو يتلو علي إعلاناته، يذهب إلى المكتبة ويخرج كتاباً لدانونزيو ويقول «انظر ماذا يقول دانونزيو» ويقرأ باللغة الإيطالية فقرة طويلة من كتاب: (انتصار الموت Il trionfo della morte) لدانونزيو، ثم يخلع نظارته بيده ويلتفت نحوي وهو يترجم لي معناها.. ويعقبها «هل فهمت؟» وأنا جالس في مكاني أمامه مثل أبله غير قادر على التواصل مع أفكاره، كما أني غير قادر على الإطلاق على إيقافه عند حده وأن أقول له بنبرة صافية «لا... إن ما تقوله قابل للنقاش...» أبداً، ما أن أفتح فمي حتى يهجم علي بصوته الراعد وقد تنازل عن هدوئه الإيماني تماماً.

لقد حولني هذا القس – وهو يكشف ببطء عن المفاجآت وبهيئة دفعات متوالية ليمنعني من الصدمة – إلى جرذ اختبار، كلما يتوقف الجرذ يضع العالم في فمه قطعة من الحلوى لتدور الحلقة بسرعة، ما أدهشني حقاً هو الاحترام الشديد الذي يكنه هذا القس لدانونزيو شوبنهاور، وهو ما أخافني أيضاً. لقد كان يظن أن العالم على شفا الهاوية وأن الشر حلقة وهو يدور بالخاتم الألماس في يده ويقول

«مثل هذا الخاتم يدور ويدور على نفسه... الخطيئة الأولى سبب للخطيئة الأخيرة وهكذا».

كنت أقول في نفسي لتذهب أفكاره وآراؤه في الزبالة. ماذا يعنيني من الأمر؟ ولكن ما الذي يخفيه هذا القس لي؟ وما معنى كلامه؟ نظرات غريبة، مداورة في الكلام، تهرب من الإجابة الصريحة الواضحة، أشياء غريبة لم آلفها ستحدث، أشياء مضمرة تتعلق بي شخصياً وبمصيري مخفية، أسأله عن صديقه سركون بولص فيتحدث لي عن غابرييل دانونزيو وشوبنهاور وعن التدمير والتخريب الضروري للعالم لكي نبني يوتوبيا جديدة، هنالك خطر حقيقي، لو كان هذا الخطر قادماً منه ما همني على الإطلاق، سأعده عدواً ضعيفاً أمامي، فقد كان لدي شعور كامل بأني بذكائي وقوتي قادر عليه، ولكن الخطورة تكمن في خوف الناس وارتعابهم مني، أمر صعب حقاً أن ترى الناس، كل الناس ترتعب حين تراك وتهرب منك دون أن تعرف سبب ذلك.

كان القس يلطف من حدة أفكاره التدميرية بإضافة مفهوم اليوتوبيا، طالما أن الشر متأصل وأصيل في الروح البشرية إذن علينا أن نفهم هذا الشر، وحين نفهمه يمكننا أن ننغمس فيه، لأن اليوتوبيا لا تكون إلا حين تدرك البشرية خطاياها، واليوتوبيا بحاجة إلى من يقودها، بحاجة إلى من يطهر الخاطئين ويدخلهم إلى فردوسها.

كان يتحدث بصورة غريبة مرعبة مخيفة، وحين أسأله يتهرب بخبث ومكر فظيعين. وحين أدرك أني لم أعد قادراً على متابعته إنما أصبحت مثل تمثال فاغراً فمي أمامه، استأذن مني لينصرف إلى حجرته لأن الوقت قد تأخر كثيراً، وأن عليه أن يستيقظ صباحاً لأن

مكتبة الفكر الجديد

الأخت فكتوريا قد كلفته بأمر عاجل لإنجازه، كان يتحدث عن ذلك وهو يحرك يده المخروطية الناعمة المحلاة بالخواتم الذهبية، وقد لمع ألماسها النفيس تحت شعاع المصابيح التي تغمر الصالة.

صعد إلى الحجرة التي تقابل حجرتي، وتركني وحيداً في المكتبة، أقلّب في ديوان شعر لريتسوس وعلى مقربة مني كتب دانونزيو، وشوبنهاور وطه حسين واحداً فوق الآخر.

في تلك الأثناء دخلت جولي إلى الصالة، كانت قد خرجت من الحجرة السفلية الواقعة جنب درجات السلم، وتقدمت نحوي بجسمها المائع المخصر وهي تدور ردفيها المستديرتين بصورة متناسقة. قالت: «تجلس وحدك رابي...» ثم ألقت بجسمها على الكرسي الموشى بالرسوم الذي كان يجلس عليه القس قبالة الوجاق، فاهتز نهداها الممتلئان المضغوطان بالمشدات، وكان صدرها مكشوفاً من الأعلى، وبين كرتي نهديها المضغوطتين، بين اللحم الأبيض الناعم المكور، تدلى صليب صغير مذهب ومطعم بحجر يلصف في الضوء، فأسندت وجهي بين يدي وملت بجسمي نحوها.

في تلك الأثناء رفعت جولي ساقها ووضعتها على الساق الأخرى، فانكشف فخذها الأبيض الذي يكسوه زغب بني خفيف، بعد أن انحسرت تنورتها الصوفية الضيقة بأذيالها البنفسجية الفاتحة الموردة مع رفعة ساقها، وهي تطق بعلكتها البيضاء فارجة قليلاً عن شفتيها الكبيرتين الملطختين بالحمرة القانية، ناظرة أمامها بالضبط، وبصورة مستقيمة دون انحراف، مثبتة عينيها الناعستين على شيء خلفي، فأدركت لحظتها أنها لا تنظر إلى شيء على وجه التحديد، إنما تترك لعينيها نقطة بعيدة تنظر نحوها، وهي ترهف

مكتبة الفكر الجديد

سمعها إلى محدثها، وكأنها لا تصغي، وتهز بطة ساقها المخروطية هزات سريعة متناغمة مع علكتها، فتهتز تكورات جسدها الممتلئ من النهدين المندفعين إلى الأمام اندفاعة مستهترة، إلى الردفين المضغوطين والمتشكلين كدائرتين كبيرتين على الكرسي.

حاولت أن أصل إلى الشيء الذي أبحث عنه ولم أحصل عليه من القس بوساطة الحصول عليه من جولي، فابتسمت وقلت لها بصوت خفيض «جولي، الكل خاف مني هنا في تل مطران، وأنت الوحيدة الشجاعة فيهم، فأنت وحدك لم ترتعبي مني».

فقالت دون أن تنظر إليّ مباشرة «من قال لك إني لم أخف؟».

ثم تناولت سيجارة «الكنت» من العلبة التي أمامها ووضعتها بين شفتيها الكبيرتين، ثم أشعلتها ببطء، وأخذت تنفث دخانها الرصاصي الكثيف حلقات من فمها وأنفها.

في الواقع فاجأني جواب جولي وكان لزاماً علي أن أعيد السؤال بشكل مختلف دون أن أثير تشككها «ولماذا تخافين مني جولي؟ أنا لا أأكل النساء كما يشاع عني».

صمتت دون أن تجيب، إلا أن فمها الذي كان يتحرك بصورة ميكانيكية قد توقف مع حركة جسدها، وبقيت تنظر نحو النقطة البعيدة الكائنة خلفي.

وأعدْت السؤال عليها «جولي هل يشيعون عني أني أأكل النساء أو...»، قالت «...لا».

«إذن لم ارتاعت مني تل مطران هذا اليوم وأنا لست أكثر من رابي لتعليم أطفالهم اللغة العربية؟».

«أأأ...» وصمتت. فقلت لها «هيا قولي، لا بد أنك تعرفين كل شيء، فامرأة ذكية وجميلة مثلك لا بد أنها تعرف كل ما يدور في محيطها» كنت أتحدث وذيل التملق والتزلف يهتز خلفي بصورة مكشوفة.

«لأنه حقق نبوءة الكردية أوَلمْ يحدثك القاشا عنها؟» قالت جولي ذلك. بينما شعرت بسورة من الخوف اجتاحت جسدي كله «كلا جولي. حدثيني ماذا قالت الكردية في نبوءتها؟».

«هيا حدثيني...» وكانت هنالك قطرات من العرق باردة تسيل على ظهري من الخوف.

إلا أني تسرعت بسؤالي وإلحاحي على جولي فحدقت بعيني طويلاً، ثم امتقع وجهها، فأطفأت سيجارة «الكنت» في المنفضة الموضوعة على الطاولة أمامها، وقالت: «لا يمكنني أن أحدثك بشيء لم يحدثك القاشا به» ونهضت من مكانها ثم التفتت نحوي وهي خائفة وقالت: «هل تطلب مني خدمة قبل أن أنام فأنا نعسانة؟» وذهبت عني وهي تدور بردفيها المستديرتين مثل مروحة، بعد أن تركت سيجارتها الملطخة بالحمرة القانية في المنفضة نصف مطفأة، يتصاعد منها الدخان الرصاصي الخفيف حلقات في الغرفة المضاءة، وتركتني وحدي أصارع هواجسي.

في الواقع كنت أحاول أن أستدرج جولي فقمت بتعزيز احتراسها،

مكتبة الفكر الجديد

وزدت من حذرها، ولكني تيقنت أن الحب وحده قادر على أن يجعلها أكثر تهوراً واستهتاراً لتتمرد على القس وتطيعني.

(٢٣)

تسلل شعاع الشمس الشتائية من خلل الستارة، كان ليمونيا شاحباً يرتسم على الجدار المقابل للنافذة، بينما كانت ضجة العصافير المزقزقة بطيرانها الشائه الملتوي على شجر السرو تأتيني من النافذة المطلة على الحديقة الجانبية للمنزل. وحين هبطت إلى الصالة وجدتها خالية، بينما كانت النسمات الباردة العذبة تهب عبر الستائر المخرمة برسوم صينية أو يابانية على أذيالها، ونار الوجاق مطفأة.

حين سرت على البلاطات الملونة التي تقسم حديقة المنزل إلى قسمين، شعرت برغبة اكتشاف تل مطران، واكتشاف شوارعها، فاتخذت درباً آخر غير الدرب الذي قادتني منه شميران ظهيرة البارحة إلى منزل القس، فاستدرت متخذاً محيط الحديقة إلى الشارع الخلفي، فاندهشت من رقي المنازل هناك، شرفاتها العالية، واجهاتها الملونة بالسيراميك، والتجاويف الحجرية المرفوقة بالدعامات المرمرية، وقد أحاطتها حدائق كثيفة تداخلت أشجارها العملاقة، وتهدلت أغصانها المتشابكة الثقيلة بالثمار التي تحملها، وقد اصطخبت بالعصافير الرمادية والبلابل والفناجس والهداهد والببغاوات.

كان الجو هناك قد صفا وتعطر بتيارات الهواء الرطبة المشبعة برائحة الشبوي وأشجار النارنج التي ألقت بنفسها على الأسيجة المرمر، وكانت هنالك متاجر كبيرة، جدرانها

مكتبة الفكر الجديد

مطلية بلون أرجواني تعرض بضائع متنوعة، وقد امتدت من أعلاها السقوف المعدنية الحمر والمظلات المذيلة بالألوان الوردية والبنفسجية الزاهية. كنت أتطلع إلى داخل المتاجر المملوءة بالبضائع، وقد جلست البائعات الكلدانيات والآثوريات بثيابهن المحلية المشدودة عند الخصور، وعمائمهن القرمزية المطرزة، كانت وجوههن صافية بلون مربى الرقي ولهجتهن مائلة مرحة ترن مثل أجراس صغيرة. لقد شعرت بالراحة وأنا أسير في الشارع الفسيح الذي تقسمه الأشجار العملاقة إلى قسمين والمؤدي مباشرة إلى الميدان، حتى قادني بطبيعة الأمر إلى البازار، فشعرت وكأني دخلت في فضاء آخر: عربات سحب تجرها الخيول والبغال والحمير، بضائع مرمية على الأرض من كل نوع، صخب وصياح البائعين، وهنالك الأكراد القادمون من مضائق الجبال.

تخطيت خارج الميدان خشية أن اخلق فوضى أخرى في السوق كما خلقتها في الليلة الماضية. كنت خطوت خطوات هادئة حذرة وأنا أنظر مندهشاً إلى الخليط الذي يضمه السوق، وعلى مقربة من نهايته البعيدة كنت أشاهد الأكراد بسراويلهم العريضة ذات اللون المغبر، يسيرون بوجوههم البرونزية الداكنة وقد رافقتهم البغال الرصاصية التي ربطوا بأعناقها الأجراس الصغيرة، وكانت تزين أكتافهم العريضة صديريات من الجلد تنتهي بقرون صلدة، وهم يعرضون بضائعهم من اللبن والتبغ والسمن والشمع والعسل وجلود الأغنام والماعز، يقايضونها بالجلود المدبوغة، والبسط الصوفية الملونة، والإزارات الحمر، والثمار الطازجة، وخمور تل مطران المعتقة، ويتفرقون محملين بالعُدد واللوازم المنزلية نحو الشوارع الفرعية.

مكتبة الفكر الجديد

* * *

وقرب الحي الذي بالكنيسة من جهة السوق، كانت هنالك بضع ورش للحدادين التي تسمع قرع مطارقها وسنادينها من بعيد، وهنالك ورش للوقادين حيث علقت على واجهاتها الفوانيس والمصابيح والطناجر النحاسية والطسوت. فانعطفت إلى شارع يؤدي إلى زقاقين وساحة صغيرة لتجمع السيارات والعربات، يؤدي أحدهما إلى مباني الحكومة في شارع النبي دانيال، حيث تتجمع موظفات الجمارك والبريد وسسترات المستشفى في الساحة لتقلهن العربات إلى هناك، والثاني يؤدي إلى الكنيسة.

كان صخب الأطفال وزعيقهم يميز هذا الحي الصغير، حيث يصعدون على أشجار الجوز المعمر ليصطادوا العصافير والطيور، وكانت منازل الحي مشيدة بسقوف واطئة من الحجر الأحمر، تتقدم بأفاريز تسندها الميازيب المعدنية، وسطوحها مائلة تطل على الشارع، بينما كانت شرفاتها مفتوحة، يمكن من خلالها أن ترى النساء وهن جالسات يتحدثن مع بعضهن وقد ارتدين الملابس المنزلية شبه العارية، أو اللواتي يصعدن إلى السطوح لنشر الغسيل وقد وضعن على رؤوسهن إيشاربات لماعة ملونة لا تلف على الأعناق مباشرة كما تفعل المسلمات، بل من الأمام إلى خلف الشعر فتظهر الأعناق بيضاء شهبة مثل غرانيق، بينما كانت أجسادهن ممتلئة مكتنزة الأفخاذ، وأردافهن متجسمة تحت الملابس اللازقة.

(٢٤)

كنت وصلت إلى آخر الشارع، فلم أتجه إلى الكنيسة، إنما عدت لأكتشف الطرف الأخير من المدينة، وهو الطرف المطل على

مكتبة الفكر الجديد

الوادي، فلاحت لي قرى العرب من بعيد وقد سكنوا الوديان والمنخفضات، ومن الجهة المقابلة كان هنالك معسكر الجيش الكائن على الهضبة القصية التي تقابل المدينة، وعند المضائق الحمر التي تطوقها الأسلاك الشائكة والعوائق كانت هنالك مظلات الحراس ومواقع الحاميات وقد انتشرت في وهادها العنابر الكاكية والسرادقات المرقطة، ومن بعيد كانت أجهزة الرادارات متخفية خلف الدغل الأخضر والأحراش الطويلة السيقان التي تنتشر عبر المرتفعات المحيطة بالجبل، ومن بعيد رأيت مجموعة من الجنود ترافقهم البغال المحزومة بجليكانات الماء، وقد وضعوا على الأكتاف بنادقهم المشكوكة الحراب، عذباتها تبرق في وهج الشمس. كانت أحزمتهم الجلدية العريضة ممتلئة بالقنابل اليدوية وشواجير الرصاص، وعلى خوذهم الداكنة ورق الشجر الأخضر وبقع الطين المستخدم في الغارات للغش والتمويه، كانوا يتخذون الطريق الترابي الذي يصعد إلى تل مطران، وكنت أسمع من بعيد بضع رصاصات تصفر في الريح تعقبها طقطقات رشاشات تئز، وبضعة رجال يختفون في الأدغال الكثيفة القريبة من مضائق الشلالات التي تصدر الهدير المتوحش، تتبعهم كتيبة من الجيش وصلت طلائعها المضائق الحمر، بانت من خلل الأدغال الكثيفة أطواقهم وسيورهم البنية، ومن بعيد كانت قائمة الجبل حمراء كدم الثور.

***

وعلى الحافة الشاهقة التي تفصل تل مطران عن الهضبة الترابية، كان هنالك طريق يمتد حتى القرى العربية البعيدة في التلال المنبسطة والمنخفضات، وكان الخيالة القادمون من هناك

مكتبة الفكر الجديد

يصعدون الدرب المؤدي إلى تل مطران على خيولهم وجيادهم، يرتدي شيوخهم الملابس البيض المشمعة والياشميغ، بوجوههم السمر النحيفة ولحاهم البيض وهي تطير في ريح البراري، وكان شبانهم حاسري الرؤوس، حليقي الشعر من الجوانب، وقد تركوا نواصيهم السود فاحمة كخوافي الغربان، وعيونهم السود صقرية حادة، وقد وضع الجميع الخناجر المفضضة المطعمة بالأصداف على مقدمة البطون، بينما وضعوا البنادق الروسية على الأكتاف العريضة الملفوفة بالعباءات السود، أجسادهم ناحلة كأعواد الخيزران، وبطونهم مخمصة، يبيعون الخناجر والسيوف والسكاكين وحراب الجند المسروقة والمغازل الخشبية وأكوار الصوف ويأخذون مكانها مطيبات نسائية، وشالات بلون الفيروز.

***

وعند المتجر كان هنالك جندي شاب أبيض الأسنان يتحدث بالسريانية، يحمل بندقية مشكوكة الحربة في يده اليمنى ويلف يده اليسرى بضماد إلى عنقه. سقطت خوذته المعدنية وعليها أوراق خضر وبقع طين متيبس، فالتقطتها فتاة كلدانية مرحة تتدلى من رأسها الصغير ضفيرتان محليتان ووضعتها على رأسها بعد أن أطلقت ضحكة عذبة رن صوتها مثل جرس صغير في الطريق الرئيس المؤدي إلى الدهاليز المتقاطعة بلا نهاية.

وعند وصولي إلى الشارع الفسيح الذي يقابل الكنيسة نظرت إلى قصر كبير بشرفاته وأسيجته العالية وقد أحاطت به الحدائق الكثيفة من كل مكان، كان قصراً في غاية الفخامة والرفعة وبناؤه الكلاسيكي الكبير يذكر بالقصور العثمانية القديمة.

مكتبة الفكر الجديد

* * *

كانت الكنيسة أمامي: جدارها العالي المصنوع من الحجارة المحززة، برجها الشاهق المستقيم وهو يحمل صليبها في الفضاء عالياً، بينما تدلت نواقيسها البرونزية الكبيرة إلى الأسفل، كان رواقها المؤدي إلى بوابتها الداخلية محمولاً بالعمد وقد دخله الأطفال ببذلاتهم السود وشرائطهم اللماعة، وقد عقدت قمصانهم البيض النظيفة بالدانتيلا.

وعند دخولي إلى الرواق خلف الأطفال ارتعشت بغبطة غير مكتنهة، بعد أن انطلقت من ناقوس البيعة رنة عميقة الغور، فرفعت رأسي إلى الأعلى. كان برج الكنيسة أبيض ناصعاً وكانت قمته بلون الزهور. تبعت الأطفال لأعرف أين قاعة الدروس، فقادوني إلى فسحة مرصوفة بالمرمر وقد أحاطتها جدران الكنيسة العالية وهي تكلل الأفنية الجليلة وانحناءاتها الطويلة الممتدة إلى الممرات المشربة بلون الفيروز، كانت فضاءاتها مشبعة برائحة الشموع الذائبة وضوع البخور الحار المقدس الذي يوحي بالضراعة والخشوع.

وعند الفسحة العريضة تفرق الأطفال في الممرات والحجرات، فسرت على الأرض المرمرية التي تحيط بها تماثيل القديسين وهي تصارع الوحوش وتقاوم الآلام، كانت رؤوسها المنقوشة بدقة، مكللة بباقات من الزهور وأطواق من الآس.

(٢٥)

كنت أسير وحدي في الممرات الخالية، وليس هناك سوى صوت حذائي الذي يتردد صداه بصورة عميقة بين الجدران، وبعد

مكتبة الفكر الجديد

لحظات سمعت باباً كبيراً في نهاية الممر الطويل وقد انفتح بهدوء، وحين التفتّ وجدت شميران واقفة هناك، كانت ترتدي ثياباً منقوشة شبيهة بالثياب التذكارية للأديرة القديمة، كان قوامها النحيف مشدوداً بثوب طويل من المخمل وقد عقدت على خصرها حزاماً من الساتان المذهب بخيوط من الموهير اللماع، كما عصبت عمامة كلدانية جميلة مطرزة بالليرات على رأسها. كانت تنظر نحوي بعينين مخضلتين بالدموع، نظرة الخشوع المنكسرة، يرافقها طفل يُحمل الكتاب المقدس على صينية مذهبة ويقف خلفها، فقلت لها «أرجو ألاّ أكون قد تأخرت...». فلم تجبني، إنما نظرت نحوي نظرة خاطفة، ارتعشت لها شفتاها القرمزيتان، وقادتني من يدي إلى ممر طويل، سرنا فيه حتى وصلنا إلى قاعة واسعة تقع في مؤخرة الكنيسة، كانت جدران القاعة واطئة مزخرفة بزخارف دينية مسطحة، وتشابكت عليها رسوم القديسين، وهنالك تمثال أم الأحزان يستقر على قاعدة حجرية مرتفعة قليل، وقد حددت بحواف عنابية. وأمامها عمود عال يحمل ساعة كبيرة ببندول صغير مزخرف.

***

«قيدمتوخن برختة» قالت شميران بعد أن دخلت القاعة.

«قيدمتوخن برختة» أجابها الأطفال وهم يهزون برؤوسهم الحموررابية الصغيرة.

ثم تحرك الطفل الذي كان خلفها خطوات قليلة في القاعة نحو دكة حجرية تقع في الجانب ووضع الكتاب المقدس عليها وهو ينظر

مكتبة الفكر الجديد

نحوي نظرات باسمة. كانت عيون الأطفال تومض بعذوبة والتماعة جذابة وسط الوجوه الأليفة البريئة، وهم يجلسون على مقاعد خشبية بسيطة وقد وضعوا كتبهم المزينة بصور القديسين وآيات من الكتاب المقدس بالعربية أمامهم. تقدمت نحو طفلة تجلس في المقدمة وتناولت كتابها، كان الكتاب بحروف كبيرة ملونة، وغلافه السميك مذهباً وقد طبع في المطبعة الكاثوليكية التي تصدر مجلة «الفكر المسيحي» في نينوى. نبهتني شميران للتقدم نحوها، وحين وصلت إليها ناولتني كتاباً كان موضوعاً على منبر صغير مخصص للمعلم في القاع وأخذت أتصفحه، وقبل أن أنطق بكلمة قالت شميران: درسنا اليوم هو وصايا الرب، سنكتبها ونقرأها. ثم تناولت الطباشير وأخذت تكتب على السبورة.

***

في الواقع لم أكن مدرساً للغة العربية من قبل، ولم أدرس أطفالاً في حياتي، وكانت تجربتي الوحيدة هي إعطاء بعض الدروس الخصوصية باللغة الإنكليزية لسيدة كانت تعمل في إحدى السفارات. لا أقول إني واجهت صعوبة أو شعرت بأني في مأزق. لا على الإطلاق، ذلك لأن شميران أخذت كل شيء على عاتقها، وانحصرت مهمتي أمامها بإبداء الملاحظات، ولم تكن ملاحظاتي ذات أهمية كبيرة إنما ملاحظات شكلية، وسهل علينا الأمر معرفة الأطفال للعربية الدارجة، فكانت مهمتنا تنحصر في تعليمهم اللغة العربية الفصحى ونظامها الكتابي. الشيء المهم الذي أثار انتباهي واهتمامي هو أن شميران كانت تجيد العربية بصورة متقنة، وكانت قادرة على أداء هذا العمل بصورة ممتازة ورائعة، وكنت أتصور قبل مجيئي أن حضورها ليس ضرورياً لأن مهمتها ستنحصر بترجمة ما

أقول إلى السريانية لتخفيف صعوبة الأيام الأولى في تعليم الأطفال، لكني فوجئت بأن حضوري لم يكن ضرورياً، لأنها كان بإمكانها أن تؤدي هذا العمل على أحسن ما يكون. إذن لم استقدمتني كنيسة تل مطران لتعليم أطفالها اللغة العربية؟

***

حين دقت الساعة الموضوعة في القاعة صمتت شميران وتحرك الأطفال وتململوا في مقاعدهم، وبعد ثوان سمعنا صوت الجرس الذي قرع بصورة متواصلة وأخذ صداه يرن في الخارج، فنهض الصغار من أماكنهم ووضعوا دفاترهم وكتبهم في حقائبهم ووقفوا صفاً واحداً لتحيتنا «بشو بشلامة». «بشو بشلامة». قالت شميران بصورة فاترة وقلدتها أنا أيضاً» وقلت: «بشو بشلامة» فابتسمت شميران وهي تنظرني وأنا ألفظ جملة بالسريانية بصورة صحيحة.

سرنا أنا وشميران في الممر الذي قادنا إلى الرواق، فسألتها: «شميران، كان يمكنك أن تعلمي الأطفال اللغة العربية فلماذا استقدمتني الكنيسة هنا؟». فصمتت أول الأمر ولم تنظر نحوي ثم أجابتني: «أنا أردت أن أخفف عليك رابي وأرجو أن لا يضايقك وجودي معك». قلت لها: «أبداً، أبداً شميران، وجودك لا يضايقني ولكني كنت أفكر فحسب».

«إسمع – قالت لي وهي تنظر نحوي – هذا تقليد قديم في تل مطران منذ أسسها الإنكليز في العام ١٩١٩. فهي تستقدم معلمين عرباً مسلمين لتعليم الأطفال اللغة العربية، إلا أن الكنيسة أبطلت

مكتبة الفكر الجديد

هذا التقليد منذ واحد وعشرين عاماً وآخر معلم كانت أمي برفقته مثلما أنا الآن برفقتك. وقد تسبب هذا المعلم بمقتل والدتي فأبطلت الكنيسة هذا العمل».

ثم صمتت شميران. قالت ذلك وصمتت. ولم أكن أنا من جانبي قادراً على مواصلة الحديث، فقد تسبب هذا الكلام بإثارة الخوف في نفسي، فسكتّ حتى وصلنا إلى الروضة الخارجية للكنيسة. كانت الشمس دافئة، وكان الهواء العذب يتلاعب بخصلات شعرها التي هبطت على جبينها من تحت عمامتها المطرزة بالليرات. وفي الشارع الذي يقابل الكنيسة أخذت أنظر إلى القصر المنيف في أقصى المدينة، وقد كان متوحداً بسياجه وأبراجه البيض العالية، وشرفاته الواسعة المطلة على حدائقه الغابية الكثيفة، فابتسمت شميران وقالت «هذا قصر جدي. إنه مختار تل مطران. هل سمعت به؟». قلت لها «لا أبداً... قصر جميل». قالت: «ستدخل... وتراه يوماً ما». فقلت لها بالسريانية: «بسيما رابه شميران». فضحكت ضحكة عالية وقالت: «لي ديقرة رابية، ها أنت تعلمت السريانية بسرعة» وافترقنا.

(٢٦)

في الشارع المؤدي إلى شارع النبي دانيال كانت هنالك مجموعة من اليزيديين وقد حلقوا رؤوسهم تماماً وتدلت لحاهم على صدورهم، بينما وضعوا على أكتافهم ريشاً أحمر كان يرتعش في الهواء العذب، وقفوا هناك ينظرون بهدوء وكبرياء إلى بغال تمر أمامهم تحمل رشاشات وآلات خياطة، وعلى مقربة منهم شاهدت خمارة كبيرة مكتوب على اليافطة الموضوعة على بابها باللغة الإنكليزية (Bar-Fox).

مكتبة الفكر الجديد

كانت الخمارة عتيقة إلى حد ما، وهيئتها كلاسيكية جداً تعود إلى بدايات القرن. فشبابيكها عالية وزجاجها نظيف، ومسارجها البرونزية ممسوحة بالنيكل وموضوعة بلا عناية على العمد تتوسط الرصيف الحجري، بينما كانت بوابة الخمارة مصنوعة من الخشب المطعم بالمعدن، وقد حززت نهاياته ببلاستيك أزرق باهت.

كنت دفعت الباب الذي يفضي إلى فسحة مضاءة من الداخل بمصابيح حمر خافتة، فواجهتني جدرانها العالية المطلية بدهان بلون الخشب. كانت مقاعد الخمارة منجدة بالقماشات السميكة البالية أطرافها، وقد صُفّت حول طاولات خشبية كبيرة توزعت بشكل نظامي في الخمارة، وفي الجانب القصي يقع البار بدعامته الخشبية المستديرة التي وقف خلفها النادل وقد انتشرت حوله زجاجات الخمر بأنواعها، وجلس أمامه شخصان يرتديان ملابس أنيقة وضعا زجاجات الخمر والكؤوس أمامهما على الدعامة، ومن داخل البار تدلى مصباح أصفر ليموني، كان يلقي بضوئه على الشخصين الجالسين بصورة شاحبة.

وحين تقدمت نحو البار واجهني النادل مباشرة فنظر نحوي مثل مصعوق. كان بقامته الطويلة وصدره العريض غير المتناسق مع جسمه النحيف قد تجمد في مكانه، وشحب وجهه المستطيل وهو يحدق بعينين مفتوحتين على اتساعهما. فخفت منه. كنت خشيت أن أحدث فوضى شبيهة بالفوضى التي أحدثتها بالسوق يوم مجيئي إلى تل مطران، فحاولت أن أجد لي مكاناً قريباً وأجلس فيه، وبالفعل سحبت كرسياً قريباً مني وألقيت بنفسي عليه ووضعت يديّ كلتيهما على الطاولة المغطاة بشرشف أحمر خشن ووسخ أيضاً.

كـان النـادل يـنظـر نـحوي بفـزع وقـد فغر فـمه وتـخشب هيـكلـه، وانكمش وجهه، ثم غمز بارتباك الشخصين الجالسين قبالته على دعامة البار الدائرية، فالتفتا نحوي التفاتة موحدة، وقد غزاهما الرعب والهلع لحظة سقوط أنظارهما علي، فقلب أحدهما زجاجة الـخمـرة الـتي كـانت أمـامه فسالت على الدعـامة واندلقت على الأرض، بينما سارع النادل بانتشالها بيده، وقد عمّتهم الفوضى والاضطراب، وانشغل النادل يمسح دعامة البار بمنديله الأبيض الذي أخرجه من جيبه.

كان النادل يتبادل معهم كلمات سريانية بصوت خافت، وأحياناً يعلو صوته باضطراب وتلجلج. وفي تلك اللحظة دلف شخصان آخران جالسان قرب الباب هاربين بصورة سريعة خاطفة، متحاشيين النظر نحوي فاصطدما بكرسي موضوع أمام طاول شاب يدمدم وقد غالبه السكر والإعياء، أسند وجهه بين يديه وبصعوبة كان يلوك الكلمات.

***

طلبت النادل، فاضطرب خلف دعامة البار وقد شحب وجهه من الخوف أول الأمر، ثم تقدم بهدوء نحوي، وقف وركبتاه ترتعشان لا تقويان على حمله، وكتفاه تهتزان، وقد أمسك دفتراً صغيراً بيده، وقلماً من القوبيا، وعدل من هندامه مثل تلميذ صغير. كان حذاؤه المصنوع من جلد الروغان يلمع، وبنطاله كان لازقاً على ساقيه النحيفتين، ولم يكن يضع فيونكا على عنقه الطويل كعادة العاملين في الخمارات، إنما اكتفى بزر قميصه الأبيض المسودة ياقته إلى عنقة، ووضع ساعة في جيب صداره الساتان الأسود اللامع من القذارة والكي، وقد تدلت سلسلتها المعدنية.

مكتبة الفكر الجديد

قلت له «معتق عنب من فضلك».

كان يتحاشى النظر في عيني مباشرة، وما أن لفظت كلماتي حتى هرول مبتعداً عني، وهو يدمدم بكلمات سريانية غير مفهومة، تاركاً عندي رائحته النتنة ورائحة التبغ التي تفوح من فمه المتلوي. وبعد قليل جاءني يحمل الزجاجة والكأس. وضعهما على الطاولة بهيئة ذليلة راضخة وهو يسحب شهيقه بعنف وكأنه يعاني الاختناق.

***

أخذت أشرب بهدوء وأنا أنظر حولي في الخمارة التي خلت تماماً إلا من الشاب الذي تعتعه السكر، والشخصين الجالسين لدى البار، ورجل قصير القامة يجلس على جهة اليمين، وبضعة أشخاص كانوا يجلسون على مقربة طاولتين من الشاب السكران.

كان الرجل القصير ينظر نحوي وهو يبتسم بين آونة وأخرى، لم يكن كبير السن، فشعره كان أسود فاحماً، وقد انسحبت طبقة من البياض على فوديه، وكان وجهه أصفر متورماً من أثر الكحول، وعيناه حمراوين تخفيان التماعة جذابة بحركتهما البطيئة الهادئة، فرمقته بزاوية عيني، أولاً استدرت نحوه، وهو يحتسي كأسه دفعة واحدة، وبعد أن وضع كأسه على الطاولة أنارت وجهه العريض ابتسامة عبرت عن طيبته، وحياني بهزة من رأسه، وحين رددتها عليه أغراه هذا الأمر وشجعه فحمل كأسه وزجاجته وتقدم نحوي، وحين أصبح أمامي مباشرة سحب الكرسي وجلس دون استئذان: «طالما قلت... طالما قلت إن تل مطران بحاجة إلى معلمين لا إلى أنبياء».

كنت أشم رائحة الكولونيا المنبعثة منه بفوحانها الحاد ورائحتها المصنوعة من نوع محلي رخيص، وقد بالغ في دلقها على ملابسه ووجهه، لقد كانت ممتزجة رائحة الخمرة برائحة التبغ المنبعثة من فمه الفاغر حين كان يتحدث، وقد ذابت عيناه في وجهه المسطح مثل صفيحة وقال: «كلنا بحاجة إلى معلمين... رابي... نحن بحاجة إلى معلمين لأن المشكلة ما عادت مشكلة إيمان... الناس كلها مؤمنة من العاهرة إلى القديس... اسأل العاهرة هل تؤمنين بالله... ستقول لك نعم... اسأل أي خاطئ... أي قديس... الكل يؤمن بالله... لو جاء نبي هذه الأيام وقال لهم إنه مبعوث من الله... وإن الله يقول لهم افعلوا كيت وكيت... لضحكوا عليه... سيقولون له هذه شغلة قديمة... نعرفها من زمان... وقبل أن يكمل النبي سيقولون له نعم... الله يأمرنا بأن نفعل كيت وكيت... ولكن مو هذه المشكلة... المشكلة كيف نعمل الكيت والكيت... وهذا هو شأن المعلم... المعلم هو الذي يعلم الناس كيف يفعلون الكيت والكيت... ولذلك قلت نحن بحاجة إلى معلمين لا إلى أنبياء... لأن الأنبياء انتهى دورهم.... وجاء دور المعلم مو صحيح رابي؟».

قلت له «نعم... – وأنا أشرب – منو ما يعرف الخطيئة». قال وهو يلتقط أنفاسه بقوة: «لكننا نكرر خطايانا بنفس الحماسة، وبنفس القوة. لدينا ذخيرة من التوسل والخضوع كلما نستريح نخطئ، نتعذب، ونتوب ثم نعود ونخطئ... ولذلك نحن بحاجة إلى معلم يضرب على أيدينا في الحياة كلما نخطئ مو ننتظر بعدما تنتهي الحياة ويكون فات الأوان وكل شيء انتهى».

كان يلتقط أنفاسه بقوة وهو يشخر من أثر السكر، ويعب كأسه في جوفه مباشرة دون أن يقطعه إلى جرعات. تحدث بكلام كثير عن

مكتبة الفكر الجديد

الأنبياء والمعلمين، عن الخاطئين والقديسين، عن الملائكة والشياطين، وتحدث عن أشياء لم أفهم منها شيئاً، إنما كان كلامه شبيهاً بالهذيان، حتى أخذ يتحدث عن تل مطران التي دمرتها الطائرات في الحرب وكيف هرب أكثر الناس من المدينة نحو الجبل، بعد أن تركوا مدينتهم مأوى للنعاج والمطر، وتحدث عن بطولته لأنه لم يترك مدينته بسبب الخمارة «نعم رابي بسبب الخمارة، فكنت أعرف أني لا أستطيع العيش دون خمرة، لذلك كان علي أن أبقى هنا فكسرت باب الخمارة وأخذت أسكر من الصباح إلى الليل».

في الواقع كانت بطولة هذا السكير هي حفلة مجانية على حساب الخائفين الهاربين المحتمين بالجبل، ولم تكن بطولة بالمعنى الحقيقي. ثم وجدت في عملية تصويره للمدينة روحاً سادية حقيرة حيث كان يتلذذ بتصوير تفاصيل الناس الذين روعهم الخوف فهربوا نحو المضائق والكهوف والصخور الضخمة، كان يصورهم كيف كانوا منحنين على حقائبهم وصرارهم ولوازمهم التي خف حملها، كان يتلذذ وهو يراهم يسوقهم كابوس الموت قاسياً مرعباً، وقد كان فرحاً لأن الحرب أوسعتهم مكاناً ضيقاً، فلا شيء للأكل، لا مكان للنوم، لا فرش للنكاح، لا نجدة، ولا غوث، ولا تحضيرات، لا مكان للنفاية، لا للاستراحة، لا للصلاة وظل ناقوس البيعة يدق من الصباح إلى المساء، يؤذن بالموت، بينما امتلأت المدينة بالجرحى السابحين بدمائهم.

كان يضع الكأس على شفتيه، ويغمض عينيه، ثم يرد الكأس بقوة على الطاولة وهو يشهق، فيعود ليصور كيف كان يشرب قرب الشجر الباسق عند المبنى، وأمامه تل من الأعضاء المبتورة، أقدام،

مكتبة الفكر الجديد

أرجـل، أذرع، أيـد، وأطـنـان مـن الـلـحـم الـمشـوي، والعضـلات المعرّاة، والشرايين المفتوحة على تيارات الريح الباردة الهابّة، كان يصور لي الجثث المطينة التي تكفل هو بدفنها بعد أن كتب أسماء الضـحـايا على ضلع برميل، أو لـوحة مـحطـمة وغرزها بـالطـين، ووضع عليها صليباً مصنوعاً من خشبتين متعامدتين.

قال لي: «كنت فرحان لأني للمرة الأولى أعمل شيئاً في حياتي صالحاً».

ثم أخذ يتحدث لي عن البيوت المهدمة المدمرة المسودة جدرانها بالدخان، تحدث عن غوث الهاربين الذين كانوا: مرضى، عجزة، مـجـانـيـن، وأطـفـالاً مفقودين، وأرواحاً ضالة، معذبة، مرعوبة، محترقة، متقيئة، وكانت المدينة معرضاً من معارض الحرب في الهواء الطلق: جثث حارة، دماء ساخنة، نعالات بلاستيكية، بضائع نسـائـيـة مـخـرمـة، أذرع تـحـمـل خـواتـم زواج وأخـرى مـعـطـلـة، سوتيانات، كورسيهات، كلسونات، حبوب منع حمل، حبوب صداع، سراويل مغسولة نظيفة، وأخرى بقطرات حيض، أحذية بمقاييس كبيرة وصغيرة ما زالت الأقدام محشورة فيها وهي تقطر دماً وسوائل صفراً وبنية، بطون مبقورة، أمعاء وأقلام مذهبة ورسائل مـعـطـرة، أعضـاء آدمـيـة ترتدي بنطلونات شتوية وقـمـصـانـاً بيضاً وأخرى مقلمة، وامرأة مخوزقة من مؤخرتها على عمود حديدي يبـزغ مـن سـيـاج الـحـديـقـة، وقد تـجـمـع حولـهـا الرجـال لـخـلـعـهـا بصعوبة، بينما كانت ملامحها ساهية محايدة لا تعبر عن عاطفة راضية أو مشتهية، وهم يدوسون على رؤوس بغال محاطة أعناقها بـالأجـراس قـرب براميل التبن، وقش الحظائر الـمـمـتـلـئـة بـمـقـابـر حـيـوانـيـة: دجاج، خنازير، أبقار، ماعز، سخول، طيور منتوفة

مكتبة الفكر الجديد

الريش، مخلعة المناقير، منزوعة الأجنحة، لقد كانوا أرواحاً ضالة، لا ورق صحياً ولا صابون معطراً.

ثم التقط القنينة من أمامه، انتزعها بقوة وأخذ يشربها حتى أنهاها، ثم تركها على الطاولة وأخذ ينفخ بحدة.

لقد استشعرت الألم الذي كان يحس به على الرغم من تصويره السادي الواضح لهذه المشاهد، ذلك من خلال استغراقه في تفاصيل الحادث المروع، الذي ترك ولا بد في نفسه ألماً صلباً قاسياً استعصى عليه تفتيته، رغم المدة التي انقضت ورغم لا أباليته الناتجة عن الوهم الذي يفرضه على نفسه.

رفع رأسه الذي تدلى على صدره، فقلت له: «هل أطلب لك شيئاً يا سيد...» قال: «اسمي وردة...» وأطلق ضحكة وهو يرد رأسه إلى الخلف فانقلب من على الكرسي لثقل جسده، وتكوم قرب الطاولة، فقمت مسرعاً بعد أن دفعت الكرسي وتقدمت نحوه وأسندته بيدي، إلا أنه أخذ يتحدث بالسريانية كلمات غير مفهومة، فاستشاط الشاب السكران الذي كان يجلس قريباً منا وهو يخنق عبراته بقوة، ونهض من مكانه وقد حمل زجاجته وتقدم منا وهو يتقدم ويتراجع غير قادر على ضبط خطواته إذ تعتعه السكر وقللت الخمرة من قدرته على المسير، ثم أخذ يشتم ويسب بالسريانية. كنت أحاول رفع وردة من على الأرض، وحين سمع كلمات الشاب المدفوعة بصعوبة، قام وقذف الشاب بسيل من السباب والشتائم التي تعبر من طلاقتها المنفلتة وهو يعلك لسانه المتدلي على شفتيه الحمراوين عن احترافه للعراك في الخمارات. حاول الشاب أن يقذف وردة بالزجاجة، كادت

تسقط من يده الفاترة المهتزة، فأتاح لي هذا الفتور أن أتلقف الزجاجة من يد الشاب بسرعة، ثم عصرت يده الناعمة بقوة وشددتها على ظهره، فحرك رأسه الصغير يميناً وشمالاً بعد أن استشعر الآلام المحيطة برسغه المضغوط بقبضتي، بينما بقي وردة على الأرض وقد تدلى رأسه الكبير المثقل بالكحول ووجهه الأصفر المتورم على صدره، ويداه منسابتان إلى جانبه وهو يغط بغطيط وشخير متعب متواصل.

ألقى الشاب برأسه على كتفي وأجهش ببكاء حار، فأخذته إلى الخارج. كان يسير وهو يترنح ويلقي بثقله علي، وبعد أن أصبحنا على الرصيف انفلت تعبير وجهه فأمال برأسه إلى الوراء ثم تقدم ليتقيأ بقوة، فأمسكت به بكلتا يدي وأحنيته على ركبتي، وبعد أن تقيأ أخذ يفتح فمه ويغلقه من الأوجاع، حتى غزا اللون القرمزي وجهه، فأخرجت منديلي ونظفت ملابسه السود المزررة حتى الرقبة، وما أن ساعدته على الوقوف وركبتاه ترتعشان تحت جسده، حتى سمعنا صوت كابح سيارة يصرخ أمامنا، كانت سيارة «رولزرايس» قد توقفت بسرعة فهبطت منها شميران، وهرعت راكضة نحونا، وضعت يدها على صدري ودفعتني صارخة: «ماذا فعلت بخالي؟». كانت تلهث وشفتاها الشاحبتان ترتجفان ثم وضعت ذراع الشاب على كتفها وحاولت مساعدته على المسير، وفتح السائق باب السيارة وهرع راكضاً نحوها وتلقفه بكلتا يديه وأدخلاه في السيارة وهو يرفس ويزبد.

(٢٧)

في المساء كنت غادرت حجرتي بهدوء، وهبطت السلم المرمري إلى الصالة الدافئة.

مكتبة الفكر الجديد

كانت نار الوجاق تتماوج وهي تلقي بانعكاساتها على خشب الأثاث القديم، وتلقي بشرارات شعلها على السجادة المصنوعة من وبر السخول، وعند المكتبة العظيمة كان القس يجلس على كرسي بمساند خشبية مزخرفة، وقد وضع على ركبتيه كتاباً كبيراً، غلافه مصنوع من الجلد السميك، كما ترك على الطاولة دواة وقلماً مذهباً، ومجموعة من العدسات الزجاجية المهشمة، ومبارد صغيرة. كان يقرأ وهو يحدب على الكتاب الموضوع على ركبتيه، وقد زرر روبه الأسود الفضفاض إلى عنقه، ووضع على رأسه طاقية فارسية مطرزة بحروف ملونة، ومد ذراعيه المجدولتين إلى الأمام مثل حطاب آسيوي قديم.

توقفت عند الوجاق وجلست على الكرسي بهدوء بعد أن قلت له: «رمشوخن طاوة قاشا...» فالتفت نحوي بسرعة، فغر فمه أول الأمر ثم ابتسم وهو يقول «رمشوخن طاوة رابي... ها أنت تعلمت السريانية عفارم عليك رابي».

خلع نظارته، ونهض من كرسيه ووقف قليلاً أمام المكتبة، ثم عاد وجلس على الكرسي ووضع ساقاً على ساق موجهاً نظراته نحوي، ثم انحنى على الأرض ورفع علكة صغيرة، ورماها في المنفضة على الطاولة وابتسم لي ابتسامة ماكرة، وقال: «للمرة الأولى تترك جولي علكتها...» ضحك وأدار رأسه إلى جهة الحجرة التي تسكنها جولي. كنا نسمع هسيساً خفيفاً وهي تضع مشطها على خوانها، فتخلّف صوتاً مكتوماً على خشبة، بينما كان القس يقلب صفحات الكتاب ويؤشر بقلم رصاص صغير عليها، ثم خلع طاقيته السوداء ووضعها على الطاولة، وأخذ يهز بصلعته المائلة إلى اللون الوردي. فجأة خرجت جولي من حجرتها

واتجهت جهة المطبخ، ثم خرجت علينا وهي تحمل صينيتها المزخرفة، وهي تطق بعلكتها وتدور بردفيها المستديرتين، قالت «جهزت لك العشاء رابي...» ووضعت الصينية على الطاولة قرب المكتبة، على بعد خطوتين من القس الذي يقرأ بكتابه ويهز بصلعته الوردية اللون.

كنت ألتهم طعامي وأنا أنظر إلى الكتب الموضوعة في المكتبة، كنت أستعيد في ذهني المساء الذي تحدث فيه القس عن الكتب، كنت أستعيد كلماته وأنا أنظر إليه وهو يقطب حاجبيه على الصفحة المفتوحة أمامه. فجأة التفت نحوي وكشر لي مثل مجنون وقد رفع حاجبيه «ها... هل ألهتك الكتب عن تناول الطعام؟». وقبل أن أجيبه، قال «ها أنت أصبحت تتكلم السريانية وتدخل في خصومات الناس في تل مطران...» فعرفت أنه يقصد الخصومة التي دارت في خمارة الثعلب بين وردة وخال شميران، فقلت له وأنا أمسح يدي وفمي بالفوطة البيضاء الموضوعة في الصينية:

«لم أكن طرفاً فيها، قاشا. كان وردة جالساً على طاولتي، فحاول شخص أن يضربه بالزجاجة على رأسه، فمنعته وأخرجته خارج الخمارة... وهناك جاءت شميران وعرفت منها أن هذا الشاب هو خالها...» وقبل أن أكمل نهض القس من مكانه، ارتدى الطاقية الفارسية وذهب قريباً من الوجاق وجلس على كرسيه ساقاً على ساق، فتبعته وجلست على مقربة من الوجاق، ثم أخرجت من جيب بنطلوني الغليون وعلبة التبغ والقداحة، فتحت العلبة وأخذت أعبئ الغليون بالتبغ وأرصه بإبهامي، وأشعلته سريعاً، ووضعت ساقاً على ساق، وأخذت أطلق في الفضاء نفثات الدخان حلقة حلقة، ففاحت رائحة التبغ الشذية في الصالة الدافئة.

مكتبة الفكر الجديد

«لقد تدبرت أمر سكنك في شارع النبي دانيال. ستذهب هناك. سيناسبك المكان بشكل أفضل». قلت له: «كما تشاء قاشا». وصمت دون أن أعرف ما الذي يبغيه من حركته هذه.

«رابي عليك أن تبتعد عن نتانات العامة. عليك أن تبتعد عنهم». قال ذلك وهو يضحك في نفسه، ثم نهض من كرسيه واتجه صوب المكتبة وأخذ صوته نبرة أخرى، نبرة عميقة الغور وكأنه يتحدث مع نفسه:

«ما الذي يربطك بهم، بهؤلاء السوقة والنشالين والأغبياء؟ عليك أن تتحلى بفائدة الاشمئزاز المريع منهم، فهذا الاشمئزاز وحده الذي يخفف عليك لا أخلاقية الجمهور. إنهم نتانة حقيقية وما عليك إلا أن تكون معهم وقحاً وجافاً وقوياً وساخطاً ولا مبالياً. عليك أن تعاملهم بنفور، رابي، يجب أن نعود إلى زمن الإرهاب الأرستقراطي إلى زمن التغطرس».

لقد أرعبني كلامه وشلّني وأنا أنظر إليه، لا أعرف ماذا أقول ولا ماذا أفعل وهو يتحدث بصوت عميق ومرتجف.

«لم أفهم قاشا. ماذا تعني؟ هل تعني أن شارع النبي دانيال خال من السوقيين والحثالة؟». قلت بصراحة تامة، فالتفت نحوي وخلع نظارته وقال: «لا أبداً، بل هناك كمية منهم كافية لأن تعرف ما معنى أن تترفع وتتسامى عليهم».

«لماذا..؟» قلت دون أن أنظر نحوه.

مكتبة الفكر الجديد

«هل تعرف ما معنى الاستنكاف الأخلاقي؟» قال لي وهو يحدق بالطاولة التي أمامه.

فقلت له وأنا أكتم ضحكة فاترة: «لا، لا. ما معنى الاستنكاف الأخلاقي؟»، قال مباشرة وبصوت حاد: «إنه النفور، نفور المثقف من الغوغاء والحثالة. إنه الاستنكاف من المشاركة في حياتهم»، ثم صرخ بوجهي بقوة: «الحثالة هي التي تهيمن. المجتمعات تحكمها الحثالة الشعبية هذه الأيام، وأخذت تدفع النخبة لتحل محلها الشاغر. لم يعد هناك نخبة إنما غوغاء، والمجتمعات كلها من الحثالة العامة».

«هل هم إلى هذا الحد أشرار؟» سألته بصورة واثقة.

استدار جهة النافذة وأطلق صوتاً راعداً: «أشرار، هه، نحن الذين بحاجة إلى الشر. هولاكو وحده يعرف هذه النشوة». فقلت له: «الشر... لماذا؟».

«أنت تخاف من الشر، ها... ولكن قبل كل شيء عليك أن تفرق بين نوعين من الشر، رابي، نوعين من الشر، شر النخبة لا يشبه شر العامة». ثم ضحك ضحكة شبيهة بضحكة المجانين وهو يهز أكتافه ويفتح عينيه بقوة «شر العامة من أجل الثأر. إنه جيفة مثلهم. بينما شر النخبة قوة. هو أحد الوجوه الممكنة للخير. إنه علاج، استئصال، بتر الأعضاء الفاسدة لا يشبه قطع اليد بالتعذيب أو الثأر. علينا أن نحلم بفنانين طغاة». قلت له: «أنت تتحدث عن القتل. هذا أمر خطير».

استدار حول نفسه واتجه جهتي «لا تظنني قاتلاً أبداً. أنا مثل كل

مكتبة الفكر الجديد

المثقفين لا أستطيع ذبح دجاجة. ثم... ثم المثقف لا يلوث يديه بدم الحثالة. ولكننا سنجعلهم يقتلون بعضهم. إنهم أكثر الكائنات استعداداً لهذا الأمر، وما علينا إلا أن نعطيهم المبرر الكافي لذلك. مهمتنا هي توفير المسوغ وهم يبحثون عنه. إنهم في حرب. ليس فيهم بريء على الإطلاق ما أن يرى أحدهم المال وتتوفر في يده القوة الكافية حتى يتحول إلى جبار».

ثم أخذ صوته يتصاعد شيئاً فشيئاً، أخذ يتحدث بهدوء أول الأمر إلا أنه فيما بعد أخذ ينوع طبقات صوته بذكاء حاد. كان يقول الأشياء المقززة بصورة دافئة والأشياء الجميلة بصوت عال، بينما كنت متجمداً في مكاني، خائفاً، وغير مصدق، كان شيئاً لامعقولاً، وقد سيطر علي صمت كامل أمام هذا القس الذي يعبر بصراحة تامة عن رغبته الشديدة بالتدمير.

كان يسمي هذه الرغبة بالرغبة المنغولية بالتخريب والتدمير من أجل المُثل الخالدة. كان يتحدث عن الأفكار التي تنبض، عن الأفكار التي تكنس كل تأكيد أخلاقي، ثم انعطف إلى جهة ثانية ليضع الثورات والعقائد والأديان في كيس واحد، لقد عدها بكل صراحة وصلافة نوعاً من التكيف مع الأخلاق الصريحة لرواية مكتوبة سلفاً، ثم صرخ في وجهي بقوة وهو يدور على نفسه: «علينا أن نقسم العالم إلى أخيار وأشرار ونجعل الأخيار يتخلصون من الأشرار، وسينحصر دورنا بالنصيحة».

كان يتحدث عن القتل الضروري، عن الإبادة الحقيقية والصريحة لمجتمعات لم تعد صالحة للحياة. وكان يزين الفكرة بأن الموت مسألة ليست مخيفة إلى هذا الحدّ، ببساطة، لو نحن،

مكتبة الفكر الجديد

عدنا إلى مفهوم آخر للموت غير مفهوم العقاب والثواب الذي يخافه الجمهور.

كان يدور ويصرخ «علينا أن نتخلص من نصف البشرية» وحين يضيع صوته وراء تعبيرات وجهه المجنونة ينحني نحوي ويقول بصوت هادئ: «أنت تعلم رابي، أن السوقيين لم يستطيعوا ابتكار ديانة جديدة ولا تغيير شكل قبورهم. الغرب يحاول أن يجد ديانة جديدة هي العلم ولكنهم فشلوا. نحن الذين يمكننا أن نبتكر ديانة جديدة، ونبياً جديداً، ولا يمكن أن يكون هذا النبي إلا من آسيا». ثم رفع يديه الشبيهتين بذراعي حطاب، وطاقيته الفارسية مائلة على رأسه، وصرخ «آسيا وحدها القادرة على تجديد شباب البشرية، آسيا وحدها القادرة على تجديد شباب العالم» ومن ورائه كانت الستائر المطرزة برسوم يابانية وصينية تهتز وترتجف.

«آسيا..» وأخذ صوته يتردد في فضاء الصالة، «آسيا آسيا».

«آسيا وحدها التي كانت تقف في التاريخ بعظمة مجرم. وحدها التي كانت تعرف حق التعدي والانتهاك والتجاوز». ثم اقترب من الطاولة، ورفع ذراعه إلى الأعلى كمن يبتهل «ها أني أسمع صوت البحر بحرنا الخالد وهو يضرب بأمواجه العاتية من قبرص حتى تل مطران...».

هذا المسرحي الجبار كان يدور في الحجرة ويتطوح صارخاً ومغيراً تعبيرات وجهه، بينما كانت جولي متحصنة بباب المطبخ، أخرجت شعفتها الحمراء، تنظر نحونا وهي تطق بعلكتها، وتنقل نظراتها المندهشة بيني وبين هذا المجنون الذي يترنح أمامي.

مكتبة الفكر الجديد

(٢٨)

حين استيقظت صبيحة اليوم التالي وجدت نفسي نائماً على الكرسي الموضوع قبالة الوجاق في الصالة، لقد خدرني كلام القاشا وحديثه المخيف ليلة أمس حتى نمت دون أن أشعر بنفسي، لقد زعزعني بهجومه الكاسح، زعزعني بنبرته الإفسادية دون أن يترك لي فرصة للتفكير، أو فرصة للتأمل باندفاعه المجنون صوبي، وكانت جولي قد غطتني بمرعز أسود مهدب مصنوع من وبر السخول، كانت قد ألقت به عليّ حينما كنت نائماً على الكرسي في الصالة دون أن توقظني للذهاب إلى حجرتي، وكانت نار الوجاق قد هفتت تماماً وخمدت، بينما تسللت نسمات باردة قارسة واكتسحت فضاء الصالة برمته، وكانت الستائر المطرزة برسوم شرقية (يابانية أو صينية) مسدولة بإحكام، والصالة شبه معتمة.

أفقت أول الأمر وفتحت عيني ببطء، فانتبهت، ثم نهضت من مكاني مذعوراً.

كان الوقت قد تأخر كثيراً، وإن كانت الساعة الصغيرة الموضوعة على الكومدينو الأسود المرصع بالعاج قرب المكتبة عاطلة، وكانت عقاربها متوقفة، إلا أني أدركت في نفسي أن الوقت قد تأخر كثيراً، وأن جولي لم توقظني في الساعة المحددة لألتحق بشميران في الكنيسة.

رميت المرعز الأسود على الأرض بسرعة، لبست نعالي، قفزت السلم الرخامي المؤدي إلى حجرتي درجتين درجتين، وحين فتحت بابها وجدتها مرتبة (هذا يعني أن جولي دخلتها في الليل). تناولت معطفي والسكارف الصوفي الأسود الموضوعين على الكومدينو

جوار السرير، وهبطت إلى الصالة مسرعاً لأبحث عن غليوني وتبغي، هناك سمعت جولي وهي تدندن بلحنها السرياني الأثير، وتحدث ضجة وهي تغسل الطناجر والصحون على المغسلة، وفي الصالة كانت الكتب مبعثرة على الطاولة، وثمة كتب أخرى على الأرض، وبعض منها كان مرمياً بلا اعتناء أمام الوجاق، لقد كان مشهد الصالة يعبر عن الفوضى التي أحدثها القاشا ليلة أمس.

تناولت من هناك غليوني وتبغي، فتحت الباب، وهرعت راكضاً إلى الكنيسة لألتحق بشميران.

***

قطعت الشارع الذي يقع فيه منزل القاشا مهرولاً، وانعطفت إلى الطريق المؤدي إلى البازار. كان مرصوفاً بالحجارة المقطعة بأشكال هندسية ومكتظاً بالشجر المعمر والمصطبات الخشبية، فشعرت بالتعب والإرهاق وبالبرد معاً. كان علي اللحاق بشميران وبالدرس في الكنيسة بأسرع وقت ممكن، فمن غير الممكن أن أتأخر بشكل غير مبرر عن المحاضرة الثانية، ومن غير المعقول أن أفوت هذه المحاضرة دون سبب أو تبرير يضمن لي على الأقل قناعة شميران به.

كنت ألهث لهاثاً متواصلاً وأنفاسي تصعد وتهبط بقوة، فأخذت سرعتي تفتر شيئاً فشيئاً، وأنا أسير بهدوء في الشارع المؤدي إلى البازار، لأن قدميّ أصبحتا لا تقويان على السرعة والعجلة، لقد كان الهدير المتوحش الذي يصدر عن المضائق ومساقط الماء يختلط بشكل عذب مع زقزقات العصافير الصباحية، وكان الشارع

مكتبة الفكر الجديد

المؤدي إلى الميدان خالياً ونظيفاً وبارداً بينما كان هدير الناس يأتيني من بعيد مختلطاً مع نباح الكلاب وثغاء الحملان في البازار الذي يقع في الميدان الكبير الذي يتوسط المدينة. كان ميدان المدينة الكبير وبازارها يحتفظان على الدوام بطابع احتفالي صاخب، وكان اتساعهما المكتظ والعذب يمنحها الحيوية والنشاط الدائمين.

أخذت أسير بهدوء ولا مبالاة تامين.

في الواقع كانت خطوط المنازل الحجرية متوازية ومتلاحمة بعض الأحيان، وصفوف الحمام تخفق بأجنحتها البيض محلقة فوق عقود الساحة، وفوق الميدان الكبير وعلى سطوح المنازل البعيدة في شارع النبي دانيال، أو تهدل فوق سطوح المنازل في الشوارع الواقعة على مقربة من الكنيسة ومقبرة السريان الملحقة بها، ويمر من بعيد الخفراء وهم يتلفعون من البرد بلفاعات من الصوف الخشن وقد رفعوا ياقات معاطفهم الكاكية الطويلة، يمرون واحداً بعد آخر ثم يختبئون في الجواسق الخشبية عند كل تقاطع وطريق، بينما كان الوكلاء التجاريون يعبرون الطريق بسرعة يتجهون نحو متاجرهم التي تحيط بالبازار من كل مكان، وكنت أرى هناك بوضوح أطواقاً من الزهور الشتوية المصفوفة وقد نشرت على واجهات الأبنية الفضية. كنت أنظر إلى الناس وهم يسيرون بهدوء كأنهم سفسطائيون أو حكماء أو رياضيون، مخلوقات تعبر عن التشوفات المبهمة والرغبات المجهولة، وتتحدث بتلك اللغة الحسية إلى أبعد حد ممكن، لغة بدائية تعبر عن حاجات الجسد والروح معاً بالأصوات المرنة ذات الجرس المبهم والآسر.

مكتبة الفكر الجديد

كنت ألمح من بعيد الأفق الصحراوي الجميل وهو يحيط بقائمة الجبل، وعلى مقربة منه كنت ألمح قرى المسلمين بلونها الزمردي وقد هيمنت عليها المآذن الزرق ورؤوسها التي تشبه ثمرة التين، كنت أنظر نحو القباب الباهرة وقد سطعت وسط البيوت الحائلة اللون وجدرانها الجبسية المتآكلة.

***

في الواقع لم أشعر بقلق واضطراب حقيقي طوال حياتي كهذين القلق والاضطراب اللذين أحدثهما القاشا ليلة أمس، لم أكن قادراً على نسيان ذلك الشعور على الإطلاق، إنما كان يهيمن علي وعلى ذاكرتي بصورة شنيعة، بصورة فادحة. أكاد أقول إن صوت القاشا المرتعش، صوته السوبرانو المتوحش ما زال حتى الآن يهدر في أذني، كان يتردد صوته بقوة وعنف، وكانت صورته تتراءى أمام عيني بقسوة ونشاط فظيعين حتى في هذا الصباح البارد المثلج.

كنت أحاول إزاحة صورة القاشا عن تفكيري بكل وسيلة ممكنة، كنت أحاول تجاوزها بكل طريقة، غير أني فشلت مرة إثر مرة. كلما كنت أزيح صورته عن تفكيري تعود وتنفجر أمام وجهي مرة أخرى محاطة ببخارها وألوانها، لقد ظل خياله يلاحقني بصورة مستمرة، وكان جسده العملاق يتحرك أمام وجهي بطريقته المسرحية وبثوبه الكهنوتي الفضفاض وطاقيته على رأسه وهو يصرخ:

«هذا العالم بحاجة إلى ديانة جديدة. إلى نبي جديد. عليك أن تتمتع بالنفور الأرستقراطي من العامة. علينا أن نقسم العالم إلى،

أخيار وأشرار ونجعل الأخيار يتخلصون من الأشرار وسينحصر دورنا بالنصيحة. هولاكو وحده يعرف هذه النشوة...».

كنت أفكر في تلك اللحظة بالقوة التي كان القاشا يتحدث عنها، كنت أفكر بالقوة والسلطة الحقيقية الوحيدة، سلطة الأنا العظيمة، الأنا الجبارة التي كان يتحدث عنها وهو يقطب حاجبيه فتغطس الصالة بلون معتم، وفي تلك اللحظة أيضاً كنت أشعر بضعفي أمام النسمات الباردة، كنت أشعر بارتجافي أمام تيارات الهواء الباردة فوضعت يدي في جيوبي، وأخذت أهتز، وكان وجهي يتجمد، فأخذت أحميه تحت ياقة معطفي المرفوعة.

كنت أتساءل: كيف يمكن لي أن أكون ساخطاً وقوياً ووقحاً ولا مبالياً وأنا أرتعش...؟

كيف أكون جباراً وأنا أشعر بأن ركبتي المهتزتين غير قادرتين على حملي؟

كيف أشعر بهذا السخط كله، وكان الهواء البارد يدخل في منخري مثل الثلج...؟

أخذت أسعل والبخار يتطاير من أنفي وفمي.

لقد كانت هجمة القاشا عليّ ليلة أمس يتعذر نسيانها، وقد أدركت أن هذه الاندفاعة التي لا تصلح إلا للأوغاد هي هجمة مفتعلة ومرصودة، كما أنها تعبر عن الحساسية الواهية والزائفة لشخص أحسن إفساد ذوقه. على أني لم أستطع تجاوزها، لم يكن هيناً علي،

مكتبة الفكر الجديد

أن أرى شخصاً رفيع المنزلة وهو يحمل كل هذا البغض، وهذا الحرص على الرغبة المنغولية للتدمير، لقد كان يعبر بشكل صريح عن احتقاره للجنس البشري، لقد كان يعبر بشكل مشبوب عن رغبته بالاستحواذ على كل شيء، ويستثمر لصالحه جميع الأساليب دون أن يكون ملزماً بتسويغ استخدامها.

كنت أتساءل في نفسي عن سر قدرته وجرأته على اختلاس كل التاريخ لإثبات صحة فرضياته، كنت أتساءل عن روح المغامرة التي تنزع لديه بصورة لا تقاوم نحو الكلي والمطلق، ومع ذلك كانت هذه القوة تحاول أن تجد لنفسها منافذ لا تنضب لا في تغذية الروح الشمولية التي تحطم العوائق وتخلق من نفسها روحاً حرة، إنما في الوصول إلى درجة من درجات العبث، وإلى عالم كامل من الفوضى.

إذن ما هي هذه الامتيازات المفترضة التي يحملها القاشا لتنفيذ مشروعه، وما هي هذه الخرافة المطوية التي يتمتع بها حتى تجعله يرتفع إلى مصاف الآلهة؟ في الواقع لم تكن هذه الخرافة التي يدافع عنها القاشا سوى خرافة أخلاقية.

لقد كان هذا القاشا يريد تحرير قوته طبقاً لديكور زمان آخر، طبقاً لديكور مكان آخر بخطاب رعوي مشبوب. كان يريد أن يستمد قوته من حريته المطلقة، وقد كانت هذه الحرية تتصف على نحو جلي بشيء من الفوضى، تتصف بشيء من النظرية، وخطورة النظرية هنا تكمن في أنها مهما تحاول أن تدعي نسبها المزعوم للواقع، إلا أنها لا تستطيع أن تقدم معياراً، إنما هي تنظيم ذهني خالص، خاضعة للمزاج والذوق في عالم مخلوق ومفتعل تماماً،

مكتبة الفكر الجديد

وليس لها أية علاقة مع الواقع الاختباري سوى المواضعة، والمواضعة الخالصة.

إن ما أرعبني حقاً وأخافني في كلام القاشا ليلة أمس، هو هذا الوهم الذي يرعاه بالتواطؤ مع نفسه، إنه شخص كوّنه الخيال الشعري المحلق والغامض عن العالم، وأوصله إلى هذه المفارقة، مفارقة الافتراض بأن إرادة خلق الوهم كافية لضمان الحياة والحقيقة، إن الرغبة في الخداع، ولا سيما خداع النفس تمنح انطباعاً عن حقيقة كل ما يتعذر تصديقه، وقد كانت لديه القدرة على الاستيهام والفنتازيا، ولكنه استيهام مرعب، وفنتازيا مخيفة.

لم تكن لدي القدرة أو العظمة التي كان يطلبها القس مني، عظمة المجرم الذي له القدرة على التجاوز والانتهاك، ذلك لأن الإنسان ببساطة حين يكون في مكان دافئ يمكنه أن يرفع يديه مثل حطاب إلى الأعلى ويصرخ «أناي العظيمة... هي أناي وحدي». حين يكون في مكان دافئ، وهو شبعان، ومرتاح يمكنه أن يتحدث عن تحرره البطولي، يمكنه أن يتحدث عن تحرره من كل غاية، وأن يصرخ بأعلى صوته أن «الحرية هي طاقة تطابق البطولة» أو أن يصرخ «علينا أن نبسط سلطاننا على الأرض» مثلما كان القاشا يصرخ بوجهي ليلة أمس.

ولكن كيف لي أن أصرخ وأسناني تصطك وتقزقز في البرد؟ كيف لي أن أصرخ وأنا أرتجف في الهواء البارد مثل سعفة، هذا وقد كنت متحصناً بشكل جيد من البرد؟:

الكنزة الشتوية السميكة، المعطف المصنوع من الصوف،

مكتبة الفكر الجديد

القفازات المصنوعة من الجلد الطبيعي والمبطنة، الحذاء الذي يغطي القدم حتى العرقوب، والجوارب القطنية الثخينة.

ماذا لو كنت عارياً؟ ماذا لو كنت بلا معطف؟ ماذا لو كنت جائعاً؟ ماذا لو كنت حافياً وأنا أسير على هذه الأرض الحجرية الخشنة، هل يمكنني أن أصرخ: أنا حر وقوي بلا أي هدف ولا أية غاية؟.

أخذت أضحك... أضحك مع نفسي وأنا أسير، يداي في جيبي معطفي، وياقة معطفي مرفوعة أغطي بها رقبتي وذقني، منحنياً إلى الأمام وقدماي ترتعشان وتهتزان من البرد.

(٢٩)

أخذت السماء تمطر رذاذاً خفيفاً على الميدان الكبير بأشجاره الضخمة الساكنة تحت الماء، ثمة جماعة من السكان المحليين يتجمعون قرب الميدان الكبير بملابسهم الملونة، بينما اتجهت مجموعة منهم تحمل صحفاً حريرية ومباخر، كانوا ينشدون بعض المقاطع بالسريانية، مقاطع ذلك الجنس المنسي الذي يبعث نفسه من جديد كل يوم أحد. كان الحشد مزيناً بزينته البدائية، ومن بعيد كنت أسمع شخير الدرابك والصنوج وهي تمتزج مع الهدير المتوحش القادم من الشلالات، وقرب البازار كانت هنالك مجموعة من مجامر النار المشتعلة، أضواء تئن، خيول تصهل وتكد وهي تحمل البضائع والنساء اللواتي يشبهن البغايا، بملابسهن الملونة، ووجوههن المصبوغة تحت السماء المرصعة بالمطر.

كان هذا المشهد البدائي يتراءى أمامي مثل حمام تركي وسط ضبابه وعريه ومائه وعذوبته.

مكتبة الفكر الجديد

لقد كنت أسير باتجاه الميدان لكي أنعطف بعد ذلك نحو الكنيسة، وقبل وصولي هناك واجهني دكان صغير يقع في نهاية الزقاق الذي ينفتح على البازار، وقد جلست في داخله امرأة جميلة في الثلاثين من عمرها تبيع القيمر والمربى، كانت تقاطيع وجهها الوسيمة دقيقة، وكانت عيناها الصغيرتان سوداوين بصورة قاتمة، وكان أنفها دقيقاً ومستقيماً، قد لفّت إيشارباً مورداً على عنقها وتركت شعرها الكستنائي ينسدل على الأكتاف العريضة، بينما كان ثوبها القطني الضيق يحيط بجسدها بنعومة وقد أبرز نهديها الصغيرين بصورة ناتئة. كانت تجلس قبالة النار مباشرة وقد وضعت ساقاً على ساق، بينما ارتفعت أذيال ثوبها القطني البنفسجية الفاتحة الموردة مع رفعة ساقها، لقد كانت عيناها الناعستان ترمشان بصورة بطيئة، وقد وضعت إبهامها تحت ذقنها مثل حكيم.

دخلت المحل، كان السماور الأذربيجاني ينتصب أمام البائعة السريانية الجميلة، بينما كانت صحون القيمر والمربى مرتبة في الواجهة، ويقرقر القوري المصنوع من البورسلين بصورة هادئة، وكان البخار يتصاعد بطيئاً في الفضاء المعطر برائحة المربى والشاي والخبز الساخن.

قلت لها «قيدمتوخن برختا...» فأجابتني بالسريانية «قيدمتوخن برختا...» ففرحت لأنها لم تعرفني.

«أريد قيمر ومربى... واستكان شاي» قلت لها وأنا أقف عند الدكة العالية للدكان.

«من عيني...» وقد قامت من مكانها، وأخذت تفتح الصمونة بالسكين.

كانت البائعة تنظرني بين آونة وأخرى بطرف عينيها، وكانت تبسم لي ابتسامة حنونة وهي تحني رأسها، ثم وضعت القيمر في الصمونة الساخنة ومسحتها بمربى الآس البري بالسكين.

لقد ترك هذا المزيج المختلط من المربى والقيمر في نفسي شعوراً بالتحليق العالي، لقد ترك هذا اللون الشفاف في نفسي نوعاً من الراحة الخالدة، وشعوراً لا يقاوم بالتعلق بالحياة بكل ملذاتها وجمالها، لقد شعرت بأصابعي لحظتها وهي تتنمل، شعرت بصدري وهو ينشرح، ولم أتمالك نفسي، إذ كانت أسارير وجهي تنفرج رغماً عني، وأخذ قلبي يدق ببهجة منعمة.

ثم صبت لي الشاي بالاستكان العراقي المذهب وهو موضوع على صحن من البورسلين، وقدمته لي مع الصمونة الساخنة ودعتني للجلوس قبالة النار على علبة زيت فارغة ومقلوبة، بينما أصبح البازار بمواجهتي، وعادت لتجلس في مكانها ساقاً على ساق.

أخذت ألتهم القيمر والمربى في الصمونة الساخنة - لا أقول بشهية إنما بشهوة كاملة - وكنت أرتشف الشاي من الاستكان بهدوء، وأنظر إلى المشهد الجميل الذي رصعه المطر، كان البخار يتصاعد من استكان الشاي، وكانت السريانية تنظرني بين آونة وأخرى وتقول لي:

- «بالعافية...».

كاد أن يغمى علي من الفرح، أقول كاد أن يغمى علي من الفرح، وكنت أشعر بنوع من الحبور أمام هذه الكلمة البسيطة

الخارجة من القلب، كنت أشعر بنوع من التحليق أمام هذا المشهد العذب بكل بدائيته وطرافته، كنت أشعر تلك اللحظة أن كل فلسفات الأرض ونظرياتها، وكل ما كان يتحدث به القاشا من تنوير، لا يعادل هذه الكلمة ببساطتها وعفويتها، كنت عاجزاً عن الرد، بل كانت لدي الرغبة أن أتدحرج على الأرض أمام هذه السريانية وأموء لها مثل هر، كنت لدي رغبة لا تقاوم بأن أتحول إلى شخص آخر، شخص يتحسس كل شيء بنبضه وروحه، كانت لدي الرغبة أن أوقف هذا التبلد الذي يغلف الإنسان ويجعله مثل البغل يأكل الشعير دون الشعور بجمال الوادي الذي أمامه وقد تصاعد منه البخار.

لقد كانت هذه اللذة الحسية خارج إطار الجوع والشبع، وكانت تتصل بالجمال أكثر من اتصالها بالوظيفة، لقد كانت هذه اللذة الحسية نوعاً من الشعور المضاعف بكثافة الوجود وشفافيته في آن معاً، لقد كانت تشكل لب الحياة وجوهرها، كانت متداخلة بشكل حميمي في كل مفاصل الوجود، دون أن تترك لنا السعادة فرصة لفهم الرغبة التي تطلبها، كنت أحاول في تلك اللحظة أن أزاوج بين عالمين من وجودي: عالمي السحري، وعالمي الحقيقي واللذين ينبثقان من الأشياء العادية بشكل مفاجئ وفوري.

لقد شعرت بالامتلاء الحقيقي لحظتها، وقمت من مكاني ثملاً، لإدراكي بشكل يقيني أن هذه السعادة لا يمكنها أن تدوم، لا يمكنها أن تستمر، إنما ستتحول إلى ذكرى حالما أغادرها، فقمت من مكاني، نظرت إلى البائعة السريانية التي واجهتني بابتسامة حنونة تعصر القلب، ووضعت ثمن الأكل على الطاولة ثم سرت وتركتها تبسم لي.

كنت أنظر إلى الوادي الذي يتصاعد منه البخار، كنت أنظر إلى الغيوم التي تتراكم، وكان مشهد المدينة مرصعاً بالمطر، والبرد يجمد الحركة، بينما كان البازار يصطخب بقوة كلما كنت أتقدم نحوه.

(٣٠)

كانت المدينة تلتمّ مثل راحة مخروطية مفتوحة يخترقها دربان متقاطعان على هيئة صليب في الضحى الأزرق الشاحب، وحين وصلت إلى الطريق المؤدي إلى الكنيسة رأيت مجموعة من الفتيان تحت شجرة جوز عملاقة يطلقون الصراخ والصيحات، ويستسلمون لنوبات من الضحك العابث المستهتر على ديك رومي يجري قرب خميلة، وهو يطلق رنين أصوات ذهبية قصيرة شبيهة بسقوط حقيبة، وقد توقف المزاح والصراخ لحظة قدوم مجموعة من الأولاد الخارجين من الكنيسة، وهم يحملون كتبهم، كانوا يرتدون البذلات السود، والشرائط اللماعة، وقد عقدوا قمصانهم البيض النظيفة بالدانتيلا، وتقدموا نحوي:

«رابي انتظرناك... لماذا لم تأت...» وأشاروا بيدهم إلى الكنيسة: «خنتا شميران هناك تنتظرك».

أخذت بالسير سريعاً نحو الكنيسة، ومررت بالمقبرة المشيدة وسط الحديقة المغطاة بالأزهار والتيل المقصوص أول الأمر، لقد كانت أضرحتها البيض محاطة بأشجار الحامض المثمرة، وقد تدلت فاكهتها على القبور، كانت الشواهد المرمرية تستقر على قواعد داكنة وقد ارتفعت الصلبان فوقها وامتدت بشكل مواز للسور، فبانت من خلف غابة الصلبان أشجار الصنوبر بخضرتها الداكنة، وأشجار المطاط بأغصانها الخرافية وبورقها اللماع، فكانت تنبثق

مكتبة الفكر الجديد

من الأرض الحجرية المطمورة في طين الحديقة الأحمر بلون المرق المتجمد وتظلل صحن المقبرة المدهون بالمر والكافور اللامع، وقد كللت بوابة المقبرة صفصافة كبيرة جلست على دكتها الحجرية فتاة سريانية تدلت شرائطها الوردية من ضفيرتيها المحليتين، وبيدها أكاليل الورد تنظر للزوار مبتسمة ابتسامة حزينة تعصر القلب.

ثم دخلت الكنيسة من بوابتها الحديدية العملاقة، كانت أجراسها إلى الأسفل وصليبها مرفوعاً إلى الأعلى وكانت أرضها وأعشابها مبتلة وأزهارها ساكنة تحت المطر، فسرت في الممر المؤدي إلى قاعة الدرس، وحين وصلت إلى الباحة وجدتها فارغة، إذ كان الباب مقفلاً، فعدت من حيث أتيت، وقبل الدخول من الباب الكبير إلى المذبح واجهتني الراهبة التي كنت رأيتها في اليوم الأول الذي قدمت فيه إلى تل مطران، كانت تمسك بيدها مسبحة، وكانت ملامحها صارمة حادة، وحين رأتني فرت أول الأمر، ثم حدجتني بنظرة صارمة. «قيدمتوخن برخته...» قلت لها، «تبحث عن شميران؟» قالت لي.

«نعم...».

فأشارت لي بيدها التي تمسك المسبحة إلى باب المكتبة التي تقع قبالة المدخل، وتركتني، وحين اجتزت العتبة أصبح الباب أمامي شبه مفتوح فدفعته بهدوء ودخلت.

(٣١)

كانت المكتبة فخمة، وكان بابها العالي مصنوعاً من الصاج السميك والمحزز بشرائح من اللوح، وكانت مطرقته النحاسية

مكتبة الفكر الجديد

ثقيلة وملمعة جيداً بالزيت، وتنبعث منه رائحة الصندل والبخور، وحين دخلت وجدت مكتبة فخمة يندر أن تجد لها مثيلاً، مكتبة تشبه مكتبات القرون الوسطى في روما، وهنالك صور للقديسين، وتماثيل دينية موضوعة في كل مكان، وأيقونات سود ومباخر معلقة بالسلاسل.

كانت المكتبة المصنوعة من خشب المهاغوني عظيمة، تحوي آلافاً من الكتب والمخطوطات، وكانت هنالك طاولة كبيرة تحمل المحابر والريش والأقلام وسكاكين قص الورق، وقد نثرت عليها بضعة كتب ومخطوطات وأوراق للكتابة، ومن الجهة الثانية، أقصد من جهة الباب، كانت هنالك خزانات كبيرة ومغلقة صفّت على الجدار الذي علقت عليه المصابيح الكبيرة المتوهجة، والتي تضيء فينعكس ضوؤها على زجاج المكتبة، وعلى بعض الوحدات المعدنية المنتشرة في كل مكان.

لم أجد شميران في المكتبة بينما كنت أسمع صوت تقليب الكتب في الجهة الأخرى حيث ينفتح باب السرداب على مصراعيه.

أخذت أقلب المخطوطات الموضوعة على الطاولة.

في الواقع كانت جل هذه المخطوطات هي من المخطوطات النادرة والمفقودة، مثلا:

كانت هناك مخطوطة لثيودور أبي قرة مكتوبة في القرن التاسع عشر وكان يبحث عنها المستشرق الألماني لويس مانكا طويلاً دون أن يعثر لها على أثر، وهي مخطوطة مكتوبة بخط المؤلف

مكتبة الفكر الجديد

وعليها ختم التملك ليهودي عراقي غريب الأطوار كان يقطن بغداد اسمه روبين كادي وهو معاصر لثيودور أبي قرة. كما كانت هنالك أيضاً مخطوطة «الصيهور في نقص الدهور» للمتصوف الإسلامي الحسين بن منصور الحلاج، وهو المخطوط الذي لم يجد منه ماسينيون سوى صفحة واحدة في مكتبة قازان، كان مخطوطاً ضخماً مكتوباً بخط الحلاج وقد امتلأ بالشروح والتعليقات.

وكانت هنالك أيضاً مجموعة من الرسائل الإسماعيلية النادرة، وكتب عن الحاكم بأمر الله، ولكن ما لفت انتباهي هي الكتب التي ألفها القاشا بطبعاتها المحلية.

كان هنالك كتاب تأريخي كتبه القاشا عن الإرساليات الأوروبية التي جاءت إلى الموصل، وهو مسرد تأريخي وجغرافي للمدينة ولطوائفها. وهنالك كتاب تأريخي آخر عن الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله واللغز الذي يحيط بمقتله. وكتاب عن المسرح مكتوب بطريقة مبتذلة وعامية وأهم ما فيه هو صورة للقاشا شاباً قبل أن يتحول إلى قس، لقد بهرتني هذه الصورة حقاً، فقدَ كان وسيماً وسامة مسرحية لا تضارع، كان يشبه إلى حد كبير الممثل المصري عمر الشريف في فيلمه «صراع في الوادي» مع فاتن حمامة: النظرات النافذة بعمق، الابتسامة التي لا تقاومها النساء، والملامح الرصينة الثابتة. كان يبدو على الكتاب أنه أول ما نشر، حين كان يقود فرقة تمثيلية في كركوك أوان ذاك.

وهنالك ديوان قصائد نثر اسمه «صوت خاص»، كتبه بكثير من العاطفة ولكنه يعبر عن فقر موهبته الشعرية، باعتماده كلياً على الصور المفارقة واللعب، لقد كانت لغته سهلة ومبتذلة، وقد حرص أن تحمل

مكتبة الفكر الجديد

كل قصيدة فيه إهداء إلى واحد من أصدقائه: جان دامو، سركون بولص، الأب يوسف سعيد، صلاح فائق، وآخرين، وقد طبعه على نفقته الخاصة في كركوك مصدراً بمقدمة لسركون بولص.

ولكن الكتاب المهم حقيقة هو كتاب سميك الغلاف اسمه «الساعات» كان قد أصدره قبل أن يتحول إلى راهب وقد ضمنه مسيرته الأدبية والثقافية وحياته وأفكاره، مطبوع في مطبعة الراهبات في الموصل.

فجلست على الطاولة وأخذت أقرأ فيه.

فجأة سمعت صوتاً عالياً جاء من جهة السرداب: «وجدته... وجدته... وجدته».

فزعت، وكاد كتاب «الساعات» أن يسقط من يدي، فالتفتّ، كانت شميران واقفة وهي ترتدي ثيابها المحلية: العمامة العنابية اللون المزينة بالليرات الذهبية، المشد الأزرق المنمنم بالخرز الناعم والصدف الذي يشد قوامها، الطرحة الموسلين التي مسكتها بيدها تحت ذقنها وأبرزت خديها السمينين البضّين بلون الكريم، كانت تنظر نحوي بعينيها الزرقاوين الجميلتين وهي تتنهد، وكان ثوبها ضيقاً، ونهداها بارزين.

«كنت أبحث عن هذا الكتاب... انظر... كتاب راميشوع الشايب... هل تعرف عنه شيئاً».

صمتّ أول الأمر، ثم قلت لها «قيدمتوخن يرخته...» ضحكت

مكتبة الفكر الجديد

شميران مني. «لقد تأخرت عن الدرس...» قالت: «لا عليك، المهم وجدت كتاب راميشوع الشايب. فيه خارطة تل مطران في القرن التاسع عشر قبل أن يبنيها الإنكليز ومخطط للأديرة... ورموز مهمة كنت أبحث عنها من زمن طويل».

كان الكتاب مازال مخطوطاً غير مطبوع، ومجلداً بجلاد سميك، ومكتوباً بخط أنيق بمداد فاخر وبلونين أسود وأحمر، ويحتوي على تأريخ مفصل للعائلات التي كانت تقطن تل مطران وأماكن قدومها وتواريخها، وكانت شميران سعيدة جداً باكتشافها هذا والذي لم أكن أعرف عنه شيئاً، ولكنها كانت غير قادرة على إخفاء ابتهاجها، وبدت مبتسمة على الدوام.

جلست إلى جانبي، خلعت العمامة من رأسها، وهزت شعرها الذهبي الذي انسدل على الأكتاف، فتلامس كتفانا برقة.

التفتت نحوي وابتسمت ابتسامة في غاية الرقة، ابتسامة لا حد لعذوبتها، في تلك اللحظة شممت ضوع عطر فاغم ينبعث منها، لقد شعرت بسخونة جسدها وصعود أنفاسها وهبوطها، وأدركت بأنها جميلة جمالاً لا يقاوم، لقد كانت بيضاء بياضاً ناصعاً، وحين مدت يديها على الطاولة كانت أظفارها ناعمة ومقلمة، وكان قربها مني جعلني أتملى بشكل جيد جسدها النحيف والمخصر، ولم أكن أشعر بالشبع والامتلاء من النظر إليها. كانت عيناها زرقاوين عليهما التماعة جذابة، وحواجبها مرسومة بدقة، وأنفها المستقيم كان مرفوعاً إلى الأعلى ومدوراً عند نهايته، ووجها صاف وشفاف، وكانت شفتاها القرمزيتان ترتعشان وتكشفان عن أسنان بيض مثل الثلج، كانت تبسم لي بهدوء وقوة، لا أقول إن قربها مني،

مكتبة الفكر الجديد

كان يهيجني إنما أقول كانت تكتسحني بكل عنف، وبكل قوة.

«شميران، كنت أريد أن أقول لك شيئاً... لم أكن أعرف أن ذلك الشاب هو خالك... كما أني لم أدخل بأية خصومة معه...». فقاطعتني بعد أن وضعت إصبعها على فمي «أش... لا تتحدث عن هذا الأمر إنه يضايقني...»، «حسن... شميران» قلت لها، وعدت أقلب كتاب «الساعات».

بعد برهة التفتت نحوي وقالت «لا عليك... ستسوى هذه الخصومة، بعد أيام سيتزوج خالي وننهي الأمر...». لكنني لم أفهم هذا الكلام بطبيعة الأمر. وحين أدركتْ أني لم أفهم شيئاً، قالت «تخاصما بسبب إيلين زوما... زوجة زيا خوري» ولكنها لا تعرف أني لا أعرف من هي إيلين زوما. قلت: «من هي إيلين زوما...؟ شميران».

«آه... ظننت كل من يدخل تل مطران يعرف من هي. إيلين زوما زوجة زيا خوري... حكاية طويلة... دعك منها...» ثم التفتت إلى كتاب «الساعات» الذي أطبقته بيدي، وقالت:

«عليك أن تقرأ هذا الكتاب.. فهو مفيد ومهم» قالت وهي تنظر في عيني مباشرة.

قلت لها: «هل تؤمنين بأفكار القاشا... إنها تروعني... ماذا يريد بالضبط؟». فضحكت شميران ضحكة قصيرة، وقالت بهدوء: «أفكاره كبيرة وأنا أحترمها... لقد أثّر بي تأثيراً كبيراً... وأنا من وجهة نظري أرى أن نتبعه... وفي الوقت ذاته علينا أن نحوله

لصالحنا لا أن يحولنا إلى صالحه... هل فهمت...؟». «لا... – قلت لها – ماذا يريد بالضبط؟. أفكاره مروعة ومخيفة. إنه يريد أن يتخلص من نصف البشرية... ثم ما دخلي أنا بالموضوع... أشياء كثيرة تروعني هنا... لماذا ارتعبت المدينة مني يوم جئت إليها... القاشا لا يريد أن يقول لي أي شيء بهذا الصدد... وأنا لا أخفيك أريد أن أعود إلى بغداد... جئت هنا لأكسب المال... جئت بحثاً عن عمل... لقد تنازلت، لا أريد كسب المال...». فارتعشت شفتاها القرمزيتان وشحب وجهها وقالت: «لن تستطيع العودة.. أنت جئت ولا يمكنك أن تعود... وأنا أحذرك من أن تقول هذا الأمر... كما أنك لو وثقت بي ستكسب ثروة بأكملها».

أغلقت كتاب «الساعات» بيدي: «لماذا ارتاعت المدينة يوم دخلت إليها...؟» سألتها.

حدجتني بنظرة حادة، بينما تخضب وجهها بحمرة طفيفة وقالت «أنا أقول لك... المسألة بسيطة... لو كنت سألتني لشرحت لك الأمر... لقد روعت تل مطران قبل مقدمك بسنوات رؤيا طفلة كردية كانت تقطن قصبة المسلمين... فقد سمعت طرقات متوالية في إحدى الليالي الشتائية الباردة... وبعد أن اكتسحتها عاصفة ثلجية استيقظت المدينة مذعورة إثر صراخ الفتاة التي أحست بيد ترتدي قفازاً أبيض تمسد شعرها من طرف السرير الذي ينبعث منه ضوء ساطع... وسمعت ضحكات مكتومة... ثم أدلت بنبوءتها... قالت حين يأتي الغريب... ويموت القاشا عيسى اليسوعي... سيظهر النبي المخلص... هذا كل ما في الأمر...».

فتجمدت في مكاني وقلت لها «ولكن شميران ما دخلي أنا

مكتبة الفكر الجديد

بالأمر؟». قالت مباشرة: «أنت مهم هنا لتحقيق هذه النبوءة... هذا كل ما في الأمر». صمتّ قليلاً وانشغلت بتقليب كتاب «الساعات» وبعد ذلك التفتّ إليها: «وهل القاشا يؤمن بهذا اليوم؟».

«ببساطة نعم».

«وأنت...؟». قلت لها، فأجابتني بسرعة وقد أحنت رأسها قليلاً ليكون وجهها مقابل وجهي: «لم لا... إذا كان الأمر يمكن استغلاله لصالح الناس وصالحنا».

«أستطيع أن أفهم من الأمر أني أسير لدى القاشا...» فضحكت شميران بوجهي ضحكة مخدرة، كأنها تسخر من خوفي وجبني: «اسمعني جيداً... أنا أبحث هنا في كتاب راميشوع الشايب عن كنز كبير أخفاه الأكراد الهورمانيون في المدينة... في تل مطران... سيفيدنا كثيراً بهذه القضية... نحن مع القاشا إلى النهاية... وعند ذاك سنقرر أنا وأنت مصيرنا... طبعاً لا يمكننا أن نكون جزءاً من خططه... ولكننا سنحوله إلى جزء من خططنا... القاشا يحترمك جداً ويقدرك ونحن بدورنا سنحترمه ونقدره... حاول أن تقرأ كتابه هذا... ستتعرف على شخصيته وأفكاره... إنه رجل شريف وليس بهذا السوء... ولكن له تطلعاته وأفكاره ولسنا ملزمين بها... ولكنه مهم... مهم جداً لخلاص البشر من بعض السوء والشرور».

كانت شميران منشغلة بكتاب راميشوع الشايب، فأخذت تدقق بخرائطه، وقد وضعت على طاولة أخرى بعض لوازم عملها بينما انغمرت أنا كلياً بكتاب «الساعات».

مكتبة الفكر الجديد

(٣٢)

كان كتاب «الساعات» مثيراً للغاية، فهو كتاب صغير الحجم نسبياً لا تتعدى صفحاته المائة وثلاثين صفحة من القطع المتوسط، وقد قسمه القاشا إلى سبعة فصول أو بالأحرى إلى سبع ساعات: (ساعة الحب، ساعة اللذة، ساعة الشر، ساعة الله، ساعة الشعر، ساعة الحكاية، ساعة الموت).

وقد أورد فيه كل ما يخص نشأته وغرامياته ومفاهيمه عن الحب والدين والفلسفة والشعر والرواية، ومواقفه من كل شيء: من نيتشه إلى دانونزيو، من سركون بولص إلى بافيز، من شتيرنو إلى دستيوفسكي، من أدونيس إلى ريلكه، من الدين إلى الجنس، لقد كان كتاباً ممتعاً حقاً، وفيه أفكار ليست بالضرورة صحيحة ولكنها مكتوبة بلغة جميلة وأنيقة، ومن الغريب أنه يتحدث عن المسيح ويضرب مثلاً من حياة إيفا غاردنر، أو يتحدث عن القدر والمصير ويضرب مثلاً بالمطربة أديث بياف أو مارلين مونرو، وهكذا يصبح كل شيء في خانة واحدة: المسيح وجيرار فيليب، بولص الرسول وغاري كوبر، تريز الطفل يسوع وورومي شنايدر... وهكذا.

كان يؤمن بشيء اسمه السريالية الدينية، كان يظن أن السريالية هي قدر البشرية الأخير ومصيرها، طالما أن الأشياء مقدرة تقديراً في كل شيء، إذن فإن الخيار الأخير للبشرية هو السريالية. فالسريالية لا تتعارض هنا مع الدين كما أرادها بريتون، على الإطلاق. إنما كان يظن أن فشل السريالية كحركة كان يكمن في معارضتها لفكرة النبوة، لذا فإن ضمان انتشار السريالية وتعميمها يكمن في ربطها مع الدين، طالما أن الدين قد تبنى في نشأته المفاهيم الشعرية

كالرؤيا والكشف وحقق المظاهر الفوطبيعية والفنتازيا واللامعقول وغيرها، فإذا كان بناء الدين بالأساس بناء شعرياً فسيكون الخيار الأخير بسبب شعريته بناء سريالياً، ومن هنا سيعتمد فكرة ظهور المخلص كتحقيق سريالي للفكرة الشعرية عنه.

وكان ينتقد أدونيس انتقاداً حاداً لأنه جبان وكان بإمكانه أن يدفع هذا المفهوم خطوة، إلا أنه لم يستطع ذلك وبقي في منتصف الطريق الديني والشعري، وهذا يوجه انتقاداته إلى الأب يوسف سعيد لأنه ارتضى لنفسه أن يكون كلاسيكياً أو دينياً، كما يسميه عمودياً دينياً وسريالياً شعرياً، أو إلى صلاح فايق الذي عارض بين مفهومي الدين والسريالية الشعرية، والتي كان يطلق عليها «السريالية العرجاء» لأنها تركت ساقها الدينية وسارت على عكازة العلمانية، ومع ذلك فإنه يعذرهم جميعهم، لأنه يرى أن الأشياء مقدرة سلفاً ومكتوبة، وأنهم أدوا أدوارهم ومضوا، وهكذا وقع الاختيار الإلهي عليه بتأدية دوره النبوئي بجدراة.

(٣٣)

لقد كان كتاب القاشا يأخذني معه لأنه مكتوب بلغة ساحرة، ولكن الأفكار التي كان يتضمنها كانت مضحكة نوعاً ما ومثيرة للسخرية في أحيان كثيرة، وإن كان بعضها يحمل شيئاً من المعقولية، فقد كانت غريبة غرابة فادحة، وجريئة وسريالية إلى أبعد حد.

ومن المثير أنه كان يلبس كل شيء لبوساً مسرحياً، فكانت الاصطلاحات المسرحية حاضرة في كل لحظة، ذلك أن الناس تلعب أدواراً في مسرحية يخرجها الله، وبالتالي فأنت مقدر عليك أن تلعب دورك حتى النهاية، والمهم أن تلعبه بشكل جيد وبكل

قدراتك وأن لا تتهرب منه، وهذا الأمر ينطبق عليه هو حيث إنه كان يظن بأنه قدّر له أن يلعب هذا الدور النهائي في الدين، ولم يستطع الانفلات من قدره، فهو مثل راكب القطار غير قادر على تغيير وجهته أبداً، وخياره الوحيد هو أن يهبط في هذه المحطة أو تلك أو يبقى لإكمال المسير حتى النهاية.

كان يرى أن البشرية تحيا في عالم من دمى مربوطة بخيوط غير مرئية في السماء، تحركها أيد خفية، ثم تنفخ في أرواحها ما تعبر به عن مأساوية المصير، فتراها تندفع نحو اللُّعب الصغيرة التي تشكل وحدات بسيطة تحيط بها، إلا أنها تنظم عالماً كبيراً، لا ليلعب فيها الإنسان دوراً حقيقياً كاللعب الطفولي الذي يفتح إمكانيات الوجود، لأنه حر وخال من أي هدف، بل دمية منزوعة الحرية تتجمد في هذا المظهر الحي الوحيد الحركة، تؤدي دورها المفروض بقوة علوية، وتغوص في الظلام، فتراها تصرخ لتتعزى بلغة عصية، تتعثر وتتهاوى، ومن ثم تغوص في الهاوية بحركة كسيحة محطمة.

كان يرى أننا كلنا نستسلم خاضعين لهذه القوانين التي تلعب بمصائرنا وبقوة غير مرئية، غير مفهومة ولا معللة، فنستسلم لها، لذلك ترانا نعبر بالتوتر الدائم عن احتجاجنا لسلبنا إرادتنا وحريتنا. إننا نلعب دوراً قاسياً محتوماً، وحين نعرف ماهية هذا الدور علينا أن نؤديه ببراعة، سنجد أنفسنا عاجزين عن كبح جماحنا ونحن ننغمر في هذه اللعبة، كما لو كنا نسير بإرادتنا، وسنرى هذا الفراغ بغريزتنا ثم نندفع نحوه: وهكذا يرى القاشا أننا بحاجة للمثل الأعلى في البطولة بعد أن ننظر إلى الموت على أنه ذروة اكتمال الحياة ونهاية التجارب كافة، لأنها مقياس لقيمتنا، إننا سنحقق

خلوداً رمزياً في أذهان الأجيال المقبلة وسنحظى بالتشريف والتمجيد، لأننا من دون الآخرين نستثنى لنشغل هذا الفراغ ونملأه بروحنا وعقلنا.

كان يرى أن البشرية قد خلقت وهي تشعر هذا الشعور الكاسح بالموت، والطابع الزائل للأشياء فشحذوا خيالاتهم باختراع عوالم لا يتمتع فيها الموت بالسيادة: عوالم الشعر.

كان يرى أن الجماعة تكون الفكرة والفرد يضطلع بها، وأنه لا وجود له إلا بهذه الفكرة التي يطورها. لو لم يكن المسيح قد وجد لكان غيره قد وجد واضطلع بالمهمة، والدليل على ذلك أن هنالك اثنين مرشحان لفكرة المسيح، كما كان هناك أكثر من مرشح للنبوة في عصر محمد، كل الذي فعله الأنبياء أنهم واصلوا الطريق، وما فعله المسيح هو تنفيذ حاجة اليهود لصلبه، فالشيء المهم هو المسيحية التي انتشرت فيما بعد، وليس الذي اضطلع به، فلو عاش المسيح ألف عام سنرى الناس منشغلة جداً بفكره، وليس بشخصه.

ويختتم كتابه برؤيته النهائية للدين، فهو يرى أن الدين سيتحول إلى السريالية بفعل داخلي لا خارجي، وأن تطور الشعر إلى السريالية هي مسألة سبق تأريخي، ذلك لأن رجال الدين الكلاسيكيين لديهم سلطة أكبر من الشعراء الكلاسيكيين تقوم على العنف، ولذا استطاع الشعراء أن ينفلتوا من هذه السلطة وحرروا الشعر منها فتطور بفعل تلقائي إلى السريالية، فالسريالية هي التطوير النهائي لفكرة الدين لأن الدين كله سيذهب وينتهي وتبقى منه الفكرة الشعرية، والفكرة الشعرية ستتطور بشكل حتمي إلى السريالية.

مكتبة الفكر الجديد

(٣٤)

كنت قرأت كتاب «الساعات» حتى نهايته، حتى الصفحة الأخيرة منه بشغف كامل، لا لأني أريد معرفة القاشا وهو الشخص الذي أتعامل معه وحسب، إنما لأن الكتاب كان مشوقاً وممتعاً للغاية، كانت أفكاره جذابة طريفة عميقة وغريبة وليست بالضرورة صحيحة، كنت أحياناً بحاجة إلى أن أقهقه، ذلك لأن حذلقاته الثقافية كافية لقلب أي شيء، كافية أن تجعل الدميم مكان الجميل وبالعكس، ولكنك حين تقرأه تجد شخصاً مسلياً لا يتعب من تسلياته. كان هنالك شعور فادح بالفشل وإرادة الرد بقوة على هذا المصير الذي انتهى إليه رجل ضل طريقه، فما كان يكتبه يصلح أن يكون كتاباً في الأدب الفنتازي أكثر مما يصلح كتاباً نظرياً في الحياة أو في الفلسفة أو في الدين. وحين أنهيته نظرت إلى شميران وابتسمت، فردت لي الابتسامة هي أيضاً، وقالت لي «ها.. هل انهيت الكتاب... ما رأيك؟» قلت لها:

«يصعب علي أن أجيب بشيء. علي أن أرحل لأن القاشا بانتظاري... فهو سيرحلني هذا اليوم» ثم ضحكت بوجهها.

«يرحلك... أين؟».

قلت لها: «إلى شارع النبي دانيال...». حينذاك تغير وجهها نوعاً ما، قلت لها: «ما بك... أراك تضايقت من شيء، ما هو؟».

قالت: «لا شيء... أبداً... ولكنه مكان لا أظنه يناسبك...».

«ولكن القاشا قال لي إن هذا المكان يناسبك أكثر من غيره».

قالت لي: «هو أعرف مني ومنك بهذا الأمر... ولكن لا يضير شيئاً».

قامت من مكانها وودعتني حتى الحديقة الخارجية.

كان الوقت غروباً، طقس بارد وسماء غائمة، فسرت في الطريق ذاته الذي جئت منه، وحين وصلت إلى الدكان الذي أفطرت فيه في الضحى، وغيرت طريقي كي لا أمر عليه، كي لا أصله ولا أراه، كان لدي شعور ثابت بأني لو عرجت عليه هذه المرة لأفسدت مشاعري البكر، مشاعري الأولى، لأن كل شيء تغير، وأخذ تعبيراً آخر، وشكلاً آخر، وصورة أخرى، كما أني لن أستطيع استعادة الشعور ذاته الذي شعرت به في الصباح، فالمشاعر لا يمكن تكرارها، الملذات لا يمكن تكرارها، لقد تغير كل شيء وإلى الأبد، المكان تغير، الطعم تغير، والمرأة السريانية تغيرت. كنت أنظر إلى المحل من بعيد، كيلا أفسد النشوة التي عشتها في الضحى وفي هذا المكان.

كنت غيرت طريقي كي أتجاوز المرور أمام الدكان.

فسرت على عجل في طريق ضيق كنت أحسبه يؤدي إلى منزل القاشا، كانت العربات المحملة بالبضائع تسد الشارع، وكانت المضائق الحمر تصدر هديرها المتوحش بقوة، وكانت أعمدة الكهرباء في كل زقاق مربوطة إليها البغال الرصاصية، وعند اليمين كانت المنازل المهدمة وقد تقشر طلاؤها، واعتلاها الدخان الأسود، وهنالك منزل نصف حجراته مهدمة، والآخر ينتصب ببوابته الكبيرة الهائلة ونوافذه العريضة المسودة المسواة بخشب الصاج والزجاج نصف الملون، بينما اجتاحت المكان برمته وحشة مرعبة.

مكتبة الفكر الجديد

لا أدري لماذا شعرت بالخوف لحظتها، وشعرت بقشعريرة حادة أجبرتني على التراجع، فأدرت رأسي وانطلقت بسرعة، وبعد أمتار اصطدمت بحمار صغير هارب، يركض وراءه صبي يحمل بيده عصا غليظة وسقطت على الأرض، وحين وقفت وأخذت أنفض التراب عن ملابسي، التفتّ إلى المنازل، رأيت رجلاً طويل القامة، ثيابه مهوشة قذرة، سقطت عيناي فجأة بعينيه الخضراوين البراقتين وقد اكتسيتا بطبقة لامعة. كانت حدقاته جامدة، تحدق بقوة هائلة، وهو يركز ببصره نحوي، كان طويلاً وقامته مائلة إلى الأمام قليلاً لتصبح قادرة على حمل رأسه الكبير وقد توسطته عيونه الساطعة، كان يقف بروبه الأسود المفتوح من عند صدره، غير مهتم بالتيارات الشتائية الباردة التي تضرب وجهه الأبيض القطني المشرب بلون وردي فاتح شبيه باللحم المسلوخ، بينما سكن بقدرة غريزية على التخشب والتماسك والتصلب، وعند قدميه وقفت ثلاث قطط سود بعيون خضر شبيهة بعيونه الحادة الساطعة، يرمقنني بنفس الشدة والكثافة، استقرّين على الأقدام الخلفية، وقد تحركت أذنابهن يميناً وشمالاً بصورة هادئة، فشعرت بشيء غامض اخترقني لحظتها، وتمكن مني بصورة كاملة، وكأنه يعيد صياغة كياني، فظهر لي مرئياً بهيئة بخارية شفافة ارتسمت بذهني بوضوح شديد، وكأنه خيال منظور وراء زجاج، وكانت يداه منسابتين إلى جانبه وشعره يتموج في الهواء البارد.

انفلت، فهرولت خائفاً مرتاعاً، وأنا لا أعرف شيئاً عن هذه التأثيرات القوية التي سيطرت علي لتجذبني إليها، لقد شعرت بدمي الفائر، وضايقني اللهاث وانحباس النفس.. وهربت.

مكتبة الفكر الجديد

(٣٥)

وصلت منزل القاشا، طرقت الباب طرقات ثلاثة، وبعد قليل فتحت جولي الباب وهي تطق بعلكتها.

«رموشوخن طاوة رابي... القاشا ينتظرك في الصالة...».

كان جو الصالة غائماً قليلاً، ونار الوجاق تنثر في المكان الدافئ الشعل اللاهبة المتلامعة، وكان القاشا جالساً كالمعتاد أمام تسلياته: مجموعة من الساعات، وبعض العدسات، وفي يده زجاجة طويلة وهو يبردها بمبرد دقيق ناعم.

وحين رآني نهض من جلسته القلقة بشكل متوثب، وحياني: «رمشوخن طاوة رابي، أظن كان بيننا موعد للذهاب إلى شارع النبي دانيال فقد جاء الحوذي محمد ثلاث مرات ليأخذك إلى هناك لكنك لم تأت... يبدو أن محاضرة أطفال البيعة ممتعة...».

«لا والله قاشا ولكن كنت أقرأ بكتابك «الساعات» فأخرني إلى هذا الوقت».

صمتَ قليلاً وأخذ يقلب خاتمه الألماسي الكبير الذي يزين بنصره، ورفع رأسه نحوي قائلاً:

«ها ما رأيك فيه... قرأته كله؟» مسح على صلعته البيضوية التي استقرت عليها قطرات عرق صغيرة بسبب اقترابه من اللهب، واندفع نحو الوجاق ليصب لنفسه كأسا من النبيذ.

مكتبة الفكر الجديد

«والله قاشا ممتع... ولكن فيه الكثير من التناقضات... وأنت لا تفرق بين الفضيلة والرذيلة».

قطب حاجبيه، ثم أشاح بوجهه عني وأفرغ كأس النبيذ في جوفه، ثم اتكأ على الوجاق وأخذ ينظر نحوي: «لا رابي... لا... شنو فضيلة... شنو رذيلة، هذه ليست نقائض... أنا لا أؤمن بالنقيض أبداً... أي بالضبط أنه ليس هو ذاته إنما سواه... والسواه ليس نفيه ولا نقيضه... إنما ببساطةٍ سواه... إلا أننا درجنا على تسمية الاختلافات بالنقائض... ونتخذ هذا وذاك ولا نعرف أنها كلها لعبة، تسلية، وهناك تواطؤ بين الناس. كل واحد يؤدي دوره. أنت تؤدي دور الضحية وأنا أؤدي دور الجلاد. أنت صحيح تتعذب ولكنك قبلت أن تكون ضحية». صمت قليلاً وهو ينظر نحوي وقال بصوت عال: «قل لي، الحرامي ما يعرف راح ينقتل؟ واللي يصير جلاد ما يعرف راح يقتل؟ لا هذا زعلان ولا ذاك زعلان. أنت تشوفه متعذب ويبكي لأنه راح ينعدم. بس هذا الدور يتطلب هذا الشيء.

«أنا قلت في الكتاب المرأة قائدة الفوضى في هذا العالم، والرجال يحاولون ترسيخ النظام، ولكن النظام والفوضى ليست نقائض. وكما أن الحب ليس نقيض الكره، إنما غيره، فقط سواه، مثل النوطات في الموسيقى... هناك اختلاف في الذبذبة، وليست هي نقيضها، إنما سواها... والاختلاف قائم في الذبذبة. هذا كل ما في الأمر».

اندفع كعادته صوب المكتبة بقوة ليحمل لي بين يديه الدليل، وقبل أن يصلها سألته عن الشخص الذي رأيته عند عودتي إلى المنزل، الشخص الذي خرج من الخرابة مع قططه الثلاث، وأخبرته بأنه كان

مكتبة الفكر الجديد

يقصد إخافتي، فابتسم وعاد دون أن يجلب معه الكتاب الذي أراد أن يستشهد به، وعاد للجلوس على الكرسي الذي يقابل الوجاق.

«آه هذا يوسف خوري... كانت ملابسه مهوشة وقذرة أليس كذلك؟».

«نعم...» أجبت.

«إيه رابي... هذا أخطر شخص في تل مطران. احذر منه. سحار، مبتذل، قذر. هاك قصته: كان يحب إيلين زوما أيام زمان... وفي اليوم الذي أهدت له خرزة الجشتلت تزوجت من أخيه. يقولون كانت متفقة مع الثاني... فهرب إلى الشيخان وتعلم على يد ساحر كردي... وجاءنا هنا في المدينة يعصب رأسه بعصابة سوداء، ويضع خرزة الجشتلت على عنقه تذكاراً للخيانة... ويكتب سحراً لتهييج وإغواء النساء... رأيته عند خربة بيته هو وقططه السود... مو هالشكل... هذا شخص مستهتر وقذر لا تقترب منو».

«إيلين زوما اللي يحبها خال شميران؟» قلت.

قال «نعم...». قلت له: «ويحبها أيضاً وردة...».

«نعم كل المدينة تحبها. هذا النوع الداعر محبوب أكثر من الطاهر، بسبب اشتياق الناس هنا للقذارة والوساخة. لم تعد هنا أخلاق. كل الناس تريد تروح للمكان اللي يجدون نفسهم بيه. هذا مكانهم الحقيقي. وهذا النوع من النساء مهم جداً. قد لا تكون هناك علاقة حقيقية مع الموضوع ولكنها مهمة. أقصد هذا النوع

مكتبة الفكر الجديد

من النساء الذي يظهر في المناطق المحصورة، المتعصبة قومياً ودينياً وطائفياً. فتشتعل الحروب بسببها... أو تصير فتنة مذابح حرائق، وبعد ذلك تجدها ممجدة في التاريخ مثل الأبطال الأسطوريين. رابي الناس هنا مهزومون أخلاقياً ولذلك هم بحاجة إلى نبي، بحاجة إلى من يتولى هذا الأمر».

وما كاد ينهي كلامه حتى اقتحم الحوذي الصالة الدافئة المكيفة بعد أن دفع الباب المطل على الحديقة مباشرة، وقال بصوته المتهدج: «وين القاشا؟». وتوقف لدى الباب ناحلاً كعود الخيزران، بملابسه الكردية الداكنة التي تهتز إثر اندفاع الهواء البارد خلفه، فارجاً ساقيه، وممسكاً بالسوط الأسود يحك بنهايته حافة الجزمة المرتفعة إلى ركبتيه، وهو ينظر نحو القاشا بعينيه الغائمتين البنيتين.

نهض القاشا من مكانه، كانت النار تتلاعب ألسنتها الحمر بحواف زرق حادة، تنثر ضوء شعلها على وجهه ويديه، ومن الجهة المقابلة للوجاق ابتسم لي برقة وقال:

«سيأخذك الحوذي محمد إلى شارع النبي دانيال. لقد رتبت إقامتك هناك. سيكون مرافقك وقتما تحتاج له. في الحقيقة الكنيسة فقيرة وما عندها فلوس حتى تخصص لك سيارة، فخصصت لك ربل موقوفاً على خدمتك... وإنشاء الله تطيب إقامتك هناك».

كنت محرجاً وأنا أنظر إليه، ثم قلت له:

«قاشا، في الحقيقة أنا أشكرك، ولكنني جائع. تعرف، لم أتناول

مكتبة الفكر الجديد

إفطاري هنا لأني تأخرت في الصباح. ولم أتناول غدائي. فهل يـمكنني أن أتناول العشاء بينما محمد وجولي يعدان حقائبي والترتيبات اللازمة؟».

«طبعاً طبعاً. جولي... جولي، وين عشاء الرابي؟ بسرعة».

وأمر محمد أن يصعد إلى حجرتي لترتيب حاجياتي... وجلست على الطاولة أمام المكتبة، وعاد هو إلى تسلياته: ساعات، وعدسات، وزنبركات، ومبارد، وفي الحال جاءتني جولي بصينية الطعام:

الرز المتبل، خبز الرقاق، السلطة مع الزيتون الموصلي، ومرقة البطاطا باللحم. ولكني كنت أأكل دون شهية، كنت أحس بأني سأذهب إلى شارع النبي دانيال... إلى مصير أجهل كنهه.

(٣٦)

اندفعت متلفلفاً بمعطفي وصعدت الربل، أشعل الحوذي المصباح الجانبي فألقى شعاعه الأصفر الباهت على جزء من الحديقة المسورة بشجر الزعرور، ثم سحب لجام الحصانين الأحمرين وضربهما بالسوط الذي في يده، فاندفعت العربة منحدرة في الطِريق الذي يفصل بين تل مطران وشارع النبي دانيال.

كانت الأشجار كثيفة في الليل المعتم، وكنا نسمع تحتها أصوات الجنادب، وهروب حيوانات سريعاً ومفاجئاً (ثعالب أو أرانب) كلما اقتربت العربة – بحصانيها اللذين يخبان على الطريق المعبد – من الأشجار المتشابكة. كان الطريق طويلاً نسبياً، لم أكن قادراً على تقدير المسافة حينما كنت في تل مطران، إذ كنت أراها قريبة

مكتبة الفكر الجديد

جداً، وهو أمر معقول لو كنا نسير نحوها مباشرة من ميدان تل مطران، ولكن علينا أن نجتاز طريقاً حجرياً غير معبد، ومنطقة كثيفة من الأشجار، وبعد ذلك انحدرنا في طريق ضيق يقود إلى شارع النبي دانيال. حاولت أن أجر الحوذي إلى الحديث طالما أنه سيلازمني طويلاً حسب أمر القاشا، فبادرت بسؤاله بصوت خفيض أول الأمر:

«كاكه محمد، منذ متى وأنت تعمل مع القاشا؟». إلا أنه لم يسمع كلامي بسبب انشغاله بالطريق المظلم وهو يدير المصباح على جهتي الطريق، فكررت عليه سؤالي بصوت عال:

«كاكه محمد منذ متى وأنت تعمل مع القاشا؟» فانتبه لي، وأدار رأسه جهة الصوت ليكون قادراً على السماع جيداً، وقال بلكنة كردية واضحة «والله كاكه من عشرين سنة... من عشرين سنة... قبل لا يجيء القاشا إلى هذه الكنيسة».

وحين تشجع استمر في الحديث عن نفسه: «من عشرين سنة، مع المعلم اللي قبلك...». ثم استدار ثانية ليضرب الحصانين الأحمرين اللذين يخبان على الطريق المعبد.

«المعلم قبلي كان من عشرين سنة...» قلت له.

«إيه... بس تعرف... ذاك عمل عملة شنيعة مع بنت المختار وهرب...». قالها بصورة متواصلة وكأنه يقصد إسماعي هذه الجملة، وأخذ يضرب بالحصانين بقوة وهو يصيح «ديه... ديه».

مكتبة الفكر الجديد

«ما هذا العمل الشنيع؟ كاكه محمد» قلت له.

«أنت تعرف... ليش تسأل؟». ثم قام من مكانه بعد أن أدار المصباح بيده ووجّهه جهة الطريق وهو يحاول أن يتحاشى حفرة مملوة بالماء، ثم أخذ يتحدث مع نفسه ويسب ويشتم بالكردية.

في الواقع لم أكن أعرف هذه العمل الشنيع الذي يتحدث عنه كاكه محمد، وكل ما قالته لي شميران أنه كان في تل مطران تقليد قديم وهو استقدام معلمين عرب مسلمين لتعليم أطفال السريان اللغة العربية، وكان آخر معلم جاء هنا قبل عشرين عاماً وكانت والدتها بمرافقته، ولكن الأمر واضح من كلام كاكه محمد، أن هناك أمر شنيعاً حدث بين الاثنين.

ولكي أواصل الحديث معه قلت له:

«كاكه محمد... سكني في شارع النبي دانيال نفسه؟».

قال لي «لا، قريب منه، في فندق ريزان. يا سبحان الله! في نفس الفندق اللي كان يسكنه ذاك المعلم البغدادي قبل عشرين سنة». وواصل سبابه وشتائمه بالكردية، وبين آونة وأخرى كان يلتفت يميناً ويبصق في الهواء.

(٣٧)

دخلنا شارع النبي دانيال، كان شارعاً معبداً بصورة جيدة، فسيحاً وواسعاً يخترقه صف من الأشجار العملاقة من وسط، وتضيئه مصابيح الأعمدة الكهربائية على طوله، وكانت البنايات

مكتبة الفكر الجديد

والأوتيلات والمتاجر ومحلات الحلاقة والمجبراتية ومصلحو الساعات وباعة الخضروات على الجانبين.

كان رصيف الشارع معبداً بالحجر، تنتشر فيه أحواض الأزهار والآس، ويبزغ منه شجر السرو بشكل مميز، وكانت سطوح المنازل عالية تظهر بشكل واضح من خلال الأزقة التي تتفرع من الشارع الرئيس الذي أنارته المصابيح الكهربائية المعلقة على واجهات المتاجر والمحلات والأوتيلات والمقاصف وواجهات المباني الرسمية مثل: مبنى الجمارك، مستشفى القلب الأقدس، ودائرة البريد والتلغراف.

كلما كنا نتوغل في هذا الشارع كانت تتضح معالم المدينة الصغيرة التي تحيط بشارع النبي دانيال، وتتضح معالم بناياتها وفنادقها ومنازلها المضاءة بالمصابيح، حتى وصلنا إلى ميدان الراهبات المكتظ بالربلات وعربات السَّحب، وقد انتشرت هناك البارات والمتاجر والملاهي الصاخبة، وكانت مصابيحها الملونة تلقي ظلال ألوانها المتداخلة على الأشجار الكثيفة التي تملأ الشارع، وتحت كل شجرة مصطبة خشبية، وبقايا أطعمة، وزجاجات فارغة مرمية قرب براميل الزبالة المكتوب عليها بالصبغ الأصفر «بلدية شارع أحمد أفندي».

كان ميدان الراهبات مكتظاً بالربلات التي تحمل الراكبين إلى تل مطران، وسيارات «الشوفرليه» التي تقل الراكبين إلى الموصل، وكانت هناك عربات الحمل التي تسحبها البغال والحمير والمضاءة بالمصابيح الغازية والزيتية والقناديل والفوانيس واللوكسات، وتجمّع هناك الفاكهانية الذين

مكتبة الفكر الجديد

يحملون السلال – سلال الفاكهة الشهية الباردة التي تسطع بلون برتقالي مضيء وسط الظلام.

وبعد أن سرنا مسافة قصيرة بعد ميدان الراهبات خفف الخوذي سرعة الحصانين، ثم استدار يميناً، وقبل أن يدخل مباشرة إلى شارع أحمد أفندي، توقف في تقاطع ثلاثي لشوارع واسعة تتوسط حديقة دائرية صغيرة، وكنا رأينا شارعاً مختلفاً تماماً، فقد كان مختلفاً عن تل مطران التي يميزها الطابع الديني، ودخلنا في منطقة لا تمتاز بحداثتها وحسب إنما بصخبها وعربدتها أيضاً، فقد انتصبت في كل مكان الأوتيلات والملاهي والمطاعم ومحلات البن ومتاجر العطور، وانتشرت الروائح العبقة في المساء البارد الذي تتخلله نسمات هوائية تفتر وتشتد فتدفع الجرائد والأوراق المتساقطة والأغلفة على طول الطريق.

كنا نسمع النساء يغنين بأصوات ناعمة وضحكات متقطعة، وهنالك سكارى يترنحون في مشيتهم ويقهقهون، وكنا نسمع بين آن وآخر صرخات من أفنية مظلمة يصاحبها سباب وشتائم شنيعة من الشوارع الفرعية الممتلئة بأصوات العربات والخيول وهي تضرب الأرض المرصوفة بالحجر بحوافرها وتهز الأجراس البرونزية الصغيرة. وكان هنالك العديد من صالونات الحلاقة النسائية في منتصف الجادة، والعديد من الأوتيلات التي أطلت بواجهاتها المعدنية الملمعة كالفضة، وقد تصاعد خلفها الدخان ذوائب بيضاً خفيفة من المداخن الخلفية، وانعكست الأنوار على زجاج الشرفات المطلة على الشوارع، وقد كانت بيضاء كالمحار المصقول.

***

توقفت العربة أمام الأوتيل الذي كان لزاماً علي أن أقطنه كما أمر القاشا وأعد الترتيبات لذلك، كان أوتيلاً عالياً مضاء بألوان متعددة، مكتوب على واجهته بالعربية والإنكليزية «أوتيل السعادة الحديث بإدارة ريزان»، في الواقع لم يكن أوتيل السعادة حديثاً إنما بطراز قديم وذلك لسقوفه ومظلته المعدنية الحمراء والمضاءة بشكل خافت، إلا أنه جميل ونظيف كما تدل على ذلك واجهته الفضية وزجاجه الملمع جيداً ودكاته الحجرية المغسولة. يقع هذا الأوتيل قبالة ملهى صغير، كتب على واجهته «ملهى الطاحونة» وقد رسمت لوحة صغيرة على بابه تقليداً للوحة تولوز لوترك (الطاحونة الحمراء) ولكن بشكل بدائي ومبتذل. بينما حفرت على حجر الواجهة كلمات بالإنكليزية وبخط واضح (Night Club نايت كلوب) مؤرخة في العام ١٩١٩، وهذا دليل على أن المستعمرين الإنكليز هم الذين شيدوه عند دخولهم لهذه المدينة.

كانت هناك دكات ثلاث تؤدي إلى الباب الرئيس الذي يفضي إلى الأوتيل، وهناك حوض من الأزهار محصن بالآس، وثمة نبتة ذات ورق أصفر مطاطي سميك تضيء كالجمر الملتهب.

هبط الحوذي بعد أن ألقى بالسوط إلى داخل العربة، وتناول الحقيبة الجلدية من يدي، كنت آنئذ قد خلعت قفازتي الجلدية المبطنة وبدأت أنفخ بيدي المحمرتين الجامدتين من البرد. لملمت معطفي على نفسي وتبعت الحوذي الذي هرع وصعد الدكات الثلاث بخفة وهو يدفن عنقه بين ترقوتيه ويرتجف من البرد، بينما كان المصباح الذهب الذي يشبه القنديل ما زال ينشر شعاعه الأصفر الشاحب على مدى قريب من الشارع.

مكتبة الفكر الجديد

بعد أن اجتزنا المدخل المؤثث بالخشب المشرح أفضى بنا إلى صالة صغيرة تتوسطها امرأة ترتدي سترة من مخمل، وتنورة صوفية وردية داكنة، بينما ألقت على كتفيها معطفاً أحمر ناعم القماش، كان وجهها المغضن العجوز ملطخاً بالمساحيق.

أخذت تحك بظفرها الطويل المطلي باللون الأحمر القاني بخدها المجعد أول ما دخلت، كانت ترتدي عدة خواتم بفصوص زائفة، ابتسمت لي فغارت عيناها برموش طويلة غاطسة بالكحلة.

«أهلاً وسهلاً... أنت المعلم اللي حكى لي عنو القاشا؟».

«نعم...» قلت لها وأنا أبتسم ابتسامة مجاملة. «شقتك فوق، في الطابق الثاني. تطل على الشارع. أهلاً وسهلاً بيك... سه ر جاوم».

نهضت وسارت يساراً لترتقي درجات السلم، فالتقط الحوذي حقيبتي وتبعها وصعد كلاهما إلى الطابق الثاني بينما تبعتهما أنا بخطوات بطيئة.

كان الطابق الثاني يتكون من شقتين في ممر طويل يقود إلى ممر خلفي يؤدي إلى شقة تطل على المنازل في الجهة الثانية من الشارع. استدارت نحو باب الشقة الثانية، أخرجت المفتاح وأدخلته في الثقب بينما كان الحوذي وراءها يحمل الحقيبة، هزت الباب قليلاً ودفعته، فدخلنا إلى الشقة المطلية باللون الفستقي الفاتح، كانت ثمة فسحة صغيرة تفصل بين غرفتين، واحدة للنوم، وأخرى للجلوس، مطلتين على شارع «أحمد أفندي» مباشرة.

مكتبة الفكر الجديد

كنت فتحت النافذة العريضة المحاطة بالجبس المزخرف والمقطعة بالزجاج والألمنيوم واتكأت عليها، فأحسست بموقع الشقة الجميل والعالي، كانت تطل مباشرة على التقاطع الواسع للشوارع الثلاثة، وتظهر من خلالها الحديقة الصغيرة المرتفعة قليلاً عن الرصيف، وأمامها ملهى «الطاحونة» الصغير ببنائه الحجري ومظلاته الملونة، ومن اليسار كنت أرى جانباً من «ميدان الراهبات» المزدحم بالربلات ذوات السجف السود، والسيارات الصالونات، وعربات الحمل، مع قليل من الرجال والنساء يروحون ويجيئون أمام المتاجر الكبيرة والصغيرة الممتدة من الميدان وحتى مبنى السلخانة.

كان صوت ريزان مديرة الأوتيل أجش مائعاً وبنبرة داعرة متسلطة، كانت تتحدث وتسوي السرير وترتب الشراشف وتتفقد خزانات الثياب، ثم انشغلت مع الحوذي في تشغيل المدفأة التي تتوسط حجرة الجلوس المفروشة بالسجاد، وحين انتهت تمنت لي ليلة سعيدة وخرجت مع الحوذي بعد أن أغلقا الباب خلفهما وهبطا السلم الحجري وهما يتحدثان بالكردية.

(٣٨)

سحرني الدفء المنبعث من الفراش، كان مشهد البطانيات والأغطية والبياضات وهذه الحرارة المنبعثة بشكل خافت من المدفأة قد جذبني بقوة، وقبل أن أخلع ملابسي، رأيت من النافذة شابة ثملة قبالة الملهى الإنكليزي، تتكئ على عمود الضوء المشتعل بمصباح كبير وقد أحاطه الضباب بدوائر شفافة خفيفة، تنثر في الفضاء أغاني جميلة بصوت عذب، مبحوح، ثم جلست على المصطبة القريبة من الملهى ووضعت وجهها السكران الثمل بين يديها، ثم ألقت بشالها على كتفها، وأخرجت سيجارة من

حقيبتها وأخذت تدخن، فتحركت من النافذة إلى الخزانة لأخلع ملابسي، وبعد قليل عادت لتغني أغنية قديمة لمحمد عبد الوهاب (يا ورد من يشتريك).

كان صوتها يأتيني خفيفاً عبر النافذة، فشعرت براحة غمرتني بقوة، وخفة في الروح والجسد معاً، وأنا أدندن معها بأغنيتها بصوت خفيض، وأعجب لأدائها الساحر وأهز برأسي وأقول «الله... الله». كنت لا أستطيع مقاومة سحر الصوت في هذا المكان الجميل، وأنا أشعر بأني تحررت من الضغط الذي كان يمارسه القاشا علي في منزله.

ألقيت المعطف والسكارف والقفازات وملابسي الأخرى في الخزانة، وانسللت في الفراش الوثير وتنفست ملء رئتي لأكثر من مرة، ثم وضعت رأسي على الوسادة وصوت الشابة الثملة يأتيني وسط الصمت المحيط بالحجرة يرتفع آناً وآناً ينخفض، وبصورة متكررة، حتى سمعت صوت فرامل سيارة سريعة، ومنبه أخذ يجأر في الفضاء، ثم انفتح الباب بعد برهة قصيرة، وأغلق بقوة، ثم سمعت صوت انطلاق السيارة السريع حتى تلاشى شيئاً فشيئاً.

بقيت لدقائق أنتظر صوتها الثمل المبحوح ولكن عبثاً، لم تأتني سوى أصوات الربلات، وانطلاق السيارات السريعة التي تمرق في الشارع.

(٣٩)

حين خرجت من شقتي، وقبل أن أقفل بابها بالمفتاح، انفتح باب الشقة الثانية.

مكتبة الفكر الجديد

«صباح الخير...» كان شاباً وسيماً يرتدي بذلة كحلية وقد فرق شعره من وسط، تقدم نحوي وصافحني ثم قال لي «اسمي تيمور. أسكن هنا جنب شقتك، وأعمل في بازار العطور. إذا احتجت أي شيء فأنا بخدمتك». شكرته وهبطت السلم، كانت المقصورة خالية، لم تكن هناك لا ريزان ولا الحوذي محمد، وكان باب الأوتيل مفتوحاً على مصراعيه والضجة تدخل بحرية من الشارع إلى العمق، وفي صالة الاستراحة ثمة ضوء صغير يلقي بشعاعه على الأثاث القديم البالي، وهنالك زهريات كبيرة من السيراميك المزخرف والملون، متناثرة في الزوايا المعتمة.

خرجت إلى الشارع، هبطت الدكات الثلاث المحاطة بالآس والأزهار واتجهت نحو شارع أحمد أفندي، تجولت هناك مستغلاً تأخر الحوذي محمد الذي كان من المفترض أن يقلني إلى تل مطران لألتحق بشميران في البيعة، أخذت أسير ببطء على رصيف حجري مغسول برذاذ صباحي خفيف، في ذلك الصباح كانت أبواب المتاجر والمحلات والمقاصف والأوتيلات مفتوحة، وكانت الأشجار المغسولة والنظيفة تقطر ماء على العشب المبلل أسفلها بينما كان الجو نقياً نقاءً رائقاً. في الواقع كان لهذا الشارع نكهة أخرى، هي غير النكهة التي ذقتها في تل مطران، هي نكهة الغرباء، حيث يمكنك أن ترى عدداً كبيراً من الناس من مدن أخرى، من بيئات مختلفة متنوعة غريبة عن الطابع الاجتماعي والثقافي لمدينة تل مطران برمتها، يمكنك أن تميز هؤلاء الناس من ملابسهم وأزيائهم، أو من سحنات وجوههم، أو من لغاتهم. يمكنني القول إن هنالك دزينة من اللكنات والرطانات التي تثير فيك حساً رائعاً بالتنوع الإثني والطائفي والعرقي، بانوراما مرسومة على مشهد جميل، على مشهد جذاب، ومن بعيد كانت تل مطران

مثل لوحة مرسومة بالحبر الصيني يحاذيها الوادي الذي يتصاعد منه البخار، وتبرز كنيستها من بعيد، بصليبها المرفوع إلى الأعلى، وقد تدلت نواقيسها وأجراسها إلى الأسفل.

كانت المدينة وبسبب قربها من الحدود التركية مختنقة بالبضائع الأجنبية والمهربة: السجائر، الملابس، الأحذية، أواني المنزل، المشروبات الروحية، العطور، الأدوات الكهربائية، ومن هناك اشتريت سجائر مارلبورو التي كانت مفقودة في بغداد، وكانت فرصة ثمينة لأتخلى لفترة عن التبغ والغليون. كان البائع السرياني كبيراً في العمر، ويتحدث العربية بلكنة بغدادية إلى حد ما فسألته: «هل أنت من بغداد؟». قال لي: «لا لكني سكنت بغداد فترة طويلة. كنت موظفاً في شركة التأمين».

استفسرت منه عن أسماء الشوارع، أسماء البنايات، وعرفت أن هذا الشارع سمي باسم «أحمد أفندي» الترجمان البغدادي الذي كان يقطن شارع حافظ القاضي في بغداد في بداية هذا القرن، وقد رافق الإنكليز في حملتهم مترجماً. وبعيد الاحتلال الإنكليزي للموصل سكن أحمد أفندي في هذا الحي، قبل انتقاله إلى بغداد ليفارق الحياة هناك.

من ميدان الراهبات يمكنك أن تشاهد الحي العسكري الملحق بالمعسكر الذي يقع أسفل الوادي، ويمتاز برقيه وبنائه الباذخ، وعلى مقربة من موقف الربلات ذوات السجف السود والمقابض المذهبّة والتي تقل موظفات الجمارك والبريد والمستشفى من تل مطران إلى هنا، كانت عربات السحب تحت الأشجار الرطبة الكثيفة العالية وسيقانها الضخمة المشققة. وهنالك أيضاً

السيارات الصالونات وأكثرها من نوع «شيفروليه» بموديلات قديمة كانت تقل المسافرين إلى الموصل، وهنالك أيضاً سيارات الشحن التي تقل البضائع من تل مطران إلى الموصل، أو من الموصل إلى تركيا.

***

كنت شعرت بالجوع، ففكرت بتناول إفطاري قبل أن يأتي محمد ليقلني إلى البيعة، فعبرت الطريق المحصن بالسرو والصفصاف والآس إلى الحوانيت والمقاصف الواقعة في زاوية ميدان الراهبات، قبالة بازار العطور المسقف بطريقة أقواس جميلة وعالية.

جلست على مائدة رخامية مدورة في مقصف اسمه «مطعم أبو جوني»، كان المحل عبارة عن واجهة زجاجية عالية وحديقة صغيرة في الباب من أشجار العفص وأحواض الزهور، وقد ظلّلتها المظلات، وفي الداخل طاولتان وكراسي من البلاستيك الملون، فجلست في الداخل قبالة الواجهة الزجاجية وطلبت قليلاً من الزبد والخبز المحمص ومربى المشمش واستكان شاي معطر بالهيل، ومن خلف زجاج المقصف كنت أنظر إلى الشارع، كان المشهد جميلاً ومزدحماً بالناس من جميع الأعراق، عرب، أكراد وسريان، كانت السماء الملبدة بالغيوم أخذت تنث نثاً خفيفاً، والمظلات منتشرة في كل مكان، وقد تقاطرت العاملات في الملاهي القريبة من التقاطع إلى ميدان الراهبات بساحته العريضة المعبدة بالإسفلت، والمبللة برذاذ المطر، كانت السيارات الصالونات الحديثة المضاءة بانتظارهن، ثمة ثلاث منهن يسرن على مهل ويتضاحكن بصوت عال، وخلفهن أربع أو خمس يتراكضن

مكتبة الفكر الجديد

وضجيجهن يملأ الشارع، بينما بقيت مجموعة منهن تمشي بدلال وبطريقة متخلعة. وبعد أن ركبن انطلقت السيارات من أمام المحال والمقاصف بسرعة مجنونة، وخلفهن صياح وصفير الشباب والعمال الواقفين في الميدان.

***

خرجت من مقصف «أبو جوني» بعد أن دفعت الحساب، ارتديت قفازاتي، أخرجت سيجارة من العلبة التي كانت في يدي، فأشعلها لي صاحب المحل، شكرته، وضعتها في فمي وسرت في الشارع ببطء، كان الرذاذ الخفيف الهابط من السماء بهدوء قد سال على وجهي وبلل شعري، فقطعت الميدان من منتصفه قاصداً متجر البن المواجه لبازار العطور.

كان متجر البن كبيراً واسعاً ونظيفاً، يعبّر عن رقي الأرمن الحاذق وتحضّرهم، كان عبارة عن واجهة زجاجية نظيفة وشفافة مقطعة بمعدن أصفر ثمين، ومظلة حمراء تمتد مسافة نصف متر نحو الرصيف مكتوب عليها «بن الأرمني»، وفي الداخل كانت رائحة البن تعبق بصورة نفاذة، بينما رتبت المطحنة والعلب التي تحوي البن بصورة منسقة وجميلة.

نهضت البائعة الأرمنية أول ما رأتني، توقفت عند الحاجز، كانت بعمر مراهقة تنظر نحوي باستغراب مضطرب مشوش، باد على عينيها الأرمنيتين السوداوين الحالكتين، والوجه الأبيض المدور المنتفخ كالفراء والمسور بخصلات سود ناعمة، وسألتني:

مكتبة الفكر الجديد

«هل تسكن هنا في شارع النبي دانيال؟». قلت لها «نعم في شارع أحمد أفندي».

«هذه هي المرة الأولى التي أراك فيها».

«صحيح، جئت هنا بالأمس. أنا معلم للغة العربية في بيعة تل مطران».

«هذا بن برازيلي، نوعية جيدة» قالت.

بينما كانت البائعة الأرمنية تضع البن في الكيس، دخلت امرأة جميلة تجاوزت الثلاثين من عمرها، ترتدي ملابس أنيقة، مغرية ومثيرة، كان صدرها عريضاً، ونهداها نافرين إلى الأمام، وتنورتها الضيقة تفضح جمال الوركين الناعمين، ألقت على كتفها معطفاً واقياً من المطر بلون كحلي داكن انساب على ياقته العالية شعرها الأسود المجعد بحرية، وقد تدلت على الجنبين بعض الخصلات القصيرة.

أخذت ترمقني بعينين سوداوين واسعتين، كنت تتحدث مع البائعة بصورة متميعة، بينما كانت شفتاها الحمراوان مقلوبتين تكشفان عن أسنان عريضة يلعب تحتها اللسان الذي يرتجف، وكأنها مستسلمة لرغبة مستديمة، وحين التقت عيناي بعينيها لبرهة أدركت أنها الشابة الثملة التي كانت تغني على الرصيف قبالة الملهى الإنكليزي أغاني عبد الوهاب بصوت مبحوح الليلة الفائتة. نظرت نحوي بعينيها الجريئتين بلطافة، وأخذت حاجياتها الموضوعة بحقيبة جلدية صغيرة ومضت تمشي بتميع

مكتبة الفكر الجديد

فاضح، وحين مدت المراهقة الأرمنية يدها بكيس البن، قالت لي بصوت رخيم:

«مر علينا ثانية، لا تنس». فشكرتها وواصلت المسير.

(٤٠)

ما أن خرجت من متجر البن حتى رأيت شميران تهبط من سيارتها الرولزرايس قرب بازار العطور، كانت قد خلعت زيها المحلي، وارتدت بنطلوناً وسترة جلدية وربطت على شعرها شريطاً وردياً.

«دخويت شميران...» قلت لها.

ضحكت وردت: «بشينا... بشينا رابي، أنت هنا».

«لقد انتقلت إلى أوتيل «السعادة» في شارع أحمد أفندي بناء على طلب القاشا. وكنت أنتظر محمد الحوذي ليقلني إلى البيعة، ولكنه تأخر علي».

«اليوم عطلة، رابي» قالت وهي تضحك وترفع خصلات شعرها بيدها «اليوم عرس خالي أمين. أما عزمك القاشا؟».

«لم أره حتى الآن. ربما سيبعث لي مع محمد الحوذي بالدعوة».

«حسناً، تعال معي. أريد أشتري عطراً من البازار».

فسرنا شميران وأنا نحو السوق، بينما هبط السائق وأشعل سيجارة واتكأ على السيارة.

وعند الباب التقى بنا تيمور ببذلته الكحلية الأنيقة وشعره المفروق من وسط، كان يضوع برائحة عطر فاغمة كأنه دلق على نفسه قنينة كاملة، وكان شعره يلمع ووجه الحليق مشبعاً بماء الكولونيا.

«أهلاً ختنا شميران، أهلاً وسهلاً. ما هذه المناسبة السعيدة». صافحها وأحنى رأسه، وصافحني ببرود وأخذ يتبعنا. كانت المتاجر واسعة وممتلئة بحقاق العطور، تعرض على كلا جانبي الرصيف مختلف القوارير الكريستالية والقناني الخزفية الملونة، والدوارق الصغيرة، وعلب البخور، والخلوف، والزعفران، مزينة ببتلات الورود الطرية، كانت تويجاتها الصفر منقطة بنقاط بنفسجية، وأوراقها البيض ساطعة، ناصعة ورقيقة.

أخذنا نتجول هناك، كان الفضاء دافئاً منعشاً وكانت الروائح تمتزج مع بعضها، فتغمر السوق المسقف من الداخل، وكان البائعون يقفون هناك وكأنهم اغتسلوا بماء الورد، وكأن البائعات قد ضمخن أجسادهن بروائح مختلفة، ففاحت في المكان سحابة من العطر ناعمة جذابة مغرية، بينما أضاءت الأنوار التي تسطع في المتاجر بشدة، فقد علقت المصابيح في السقوف، وفي الزوايا، وانعكس الشعاع على القوارير الكريستالية والبلّورية المقعرة والمضلّعة التي تلصف بصورة ساطعة.

كان تيمور يدل شميران على أنواع العطور، وأماكن صنعها، فيلمع خاتم الألماس بيد شميران وهي تطلب من البائعات أن تضع قطرة

مكتبة الفكر الجديد

أو قطرتين على رسغها ثم تتشممها، وينعكس الشعاع الشديد السطوع على دزينة من القوارير والحقاق البلّورية المنحوتة بدقة، والمحاطة أعناقها الملساء بشرائط ذهبية، وقد أغلقتها سدادات بلون الزبد.

لقد سيطر علي هذا السحر الكاسح، هزني بعنف وأنا أتنشق مكونات العطور المستخلصة من روح الليمون والبرتقال المنعشة والعطور الزهرية المهيجة، كنت أذوب في عوالم بعيدة لا قرار لها كلما أمسك قنينة عطر وأقرأ كلمات مثل: صنوبر، أرز، قرنفل، فانيلا... كل شيء كان جاهزاً مثل الموسيقى، يرسم بالقلم أول الأمر على الورق الأبيض ثم يتحول إلى شذا لا يشبه القرنفل والفانيلا والزنجبيل ولا العطور الشذية المتكونة من زهور الياسمين والنرجس والغاردينيا والليلك، ولا العطور المستخلصة من خشب الصندل والأعشاب الأخرى، إنما مركب من كل هذه الأشياء، ويفوقها بقدرته على ترحيلك إلى مكان آخر، وإلى عالم آخر.

كنا نتوقف نحن الثلاثة، أمام المتاجر المغطاة واجهاتها بالإعلانات العربية والفرنسية والإنكليزية والتركية، ونضحك حين نقرأها وهي تتحدث بلغة ناعمة عن عطور المرأة الحساسة والمرأة الناضجة والمحبة، والحالمة، وهنالك إعلانات تتحدث عن رحلات خيالية في دنيا العطور.

كنت سألت بائعة سريانية وهي تضحك بسنها الذهبية وعطرها اللاذع المهيج والمغري:

«كيف تعرفين هذا العطر أفضل من ذاك؟».

مكتبة الفكر الجديد

فأخذت تتحدث برقّة عن العطور التي تفيض إحساساً وتحافظ على الأنوثة، ثم تحدثت عن كولونيا الرجال التي ابتدعت لتعطي غلالة رقيقة من الأريج المنعش، والعطور المنعشة والناعمة لاسترداد الحيوية، ثم أخذنا شميران وأنا نشم عطراً بعد آخر، من أجل أن نهيج ذكرياتنا الشمية، وأخذ كل واحد منا يتحدث عن هذا العطر أو ذاك، عن روح العطر المتحول في الذهن إلى مجرد ذكرى، فما أن ندعو البائعة لتضع لنا قطرة أو قطرتين على رسغ كل منا، حتى نتذكر على الفور الشخص الذي كان يعبق بهذا العطر، من سنوات.

كنا نتجول وسط غابة عطورها من السنط والميموزا، وعبق ورود الجوري، وزهر الخوخ والشمام، تنفتح عن أطايب معصورة بقلب الياسمين والقرنفل والداليا والنرجس، وموضوعة بحقاق بلّورية مكباتها تفوح بأريج الصندل وطحالب السنديان والعنبر والمسك.

قلت لشميران:

«أظن هذا العطر يناسبك – من شانيل – ؟».

«عندي منه» قالت. ثم وضعت البائعة الوسيمة قطرات قليلة منه على رسغي.

وتحدث تيمور لنا عن امرأة تأتي تبحث عن عطر يذكرها برجل تحبه من أيام مراهقتها. لا تعرف اسم العطر، إلا أنها تبحث طوال سنوات وتشم كل الروائح في السوق علها تعثر على سر الرائحة العذب والتي حركت مخيلتها ذات يوم.

مكتبة الفكر الجديد

«من سنوات تأتي هذه المرأة. أراها تقريباً كل يوم وهي تبحث حزينة في دهاليز السوق». قال تيمور وهو يضحك، ولم يدرك تيمور أن هذه المرأة كانت تبحث في المخيلة أكثر مما تبحث في السوق.

سرت متوغلاً في السوق المسقف الدافئ الذي يعج بالأنوار والكريستال والبلّور، وهنالك مختلف الرجال والنساء والإعلانات والأحاديث والمغازلات، حتى توقفنا عند متجر كبير في آخر السوق، فطلبت شميران من بائعة عجوز كان جلدها العسلي مشبعاً برائحة التفاح، وقد جلست ودودة ساقاً على ساق وسط الأضواء، أن تبيعها عطراً نسائياً معروضاً في الفاترينة، جاءت شميران تبحث عنه، فنهضت البائعة مبتسمة وناولت شميران زجاجة زرقاء فاتحة، وقالت لها:

«هذا العطر للمرأة التي تريد أن تحلم. فتأخذ القارورة وتضع قطرة أو قطرتين على نحرها، وقبل أن تسدها تكون جنية العطر قد خرجت. ثم تتجول المرأة الحساسة في دنيا خيالية لا نهاية لها».

ضحكنا منها وأخذت أنا أتشمم العطر، ثم ناولته لشميران، بعد ذلك أخذته البائعة، ورزمته بورق ملون وأشرطة لماعة، ووضعته في كيس كبير، فتناوله تيمور وراءها سعيداً بصحبتنا، وزررت معطفي ثم ارتديت قفازاتي الجلدية، ودلفنا من الجهة الخارجية لبازار العطور المسقف بالألمنيوم، كان الفضاء دافئاً ومشبعاً بالأنوار والعطور الفاغمة إلى الشارع المغسول بالرذاذ والبرودة المحملة برائحة الشجر المبلل.

وحين وصلنا إلى السيارة استأذن تيمور وذهب إلى الفندق، وبقينا أنا وشميران قرب السيارة.

مكتبة الفكر الجديد

«أنا أعمل جيداً على كتاب راميشوع الشايب. لقد عثرت على أشياء مهمة» وصمتت قليلاً، ثم نظرت صوب ميدان الراهبات وقالت:

«حتى الآن لم أفهم حركة القاشا باستبعادك هنا. ربما يريد أن يجربك في بعض الأشياء. عليك أن تكون حذراً ولا تتصرف أي شيء إلا بتفكير، ثم لا تثق بأحد فهؤلاء كلهم يشتريهم القاشا ببساطة.. الحوذي محمد، صاحبة الأوتيل، وتيمور... يشتريهم بالمال».

في تلك اللحظة شعرت بخوف حقيقي، شعرت بأني مهما ابتعدت عن عيني القاشا فأنا مراقب، وثانياً أنه عازم على أمر خطير لا يقبل التنازل عنه، فسألتها:

«هنالك أمور غريبة حقاً. الأب عيسى اليسوعي راعي البيعة... أينه؟».

«إنه يحتضر. لن يعيش طويلاً. وسيكون توقيت الأمر في وفاته. أنا واثقة أنه إن تأخر طويلاً على القاشا خوشابا فسيقتله».

«ماذا؟».

«سيقتله. القاشا مستعجل على ظهور النبي».

«وهل سيظهر النبي؟». ضحكت شميران مني وضربتني بيدها على ساعدي. وقالت:

مكتبة الفكر الجديد

«سيكون ظهوره مفيداً لنا. سنراقب القاشا وسنساعده على عمله، وهناك سنفترق عنه. سنحاول إجباره على الخضوع لأهدافنا فهو لن يستطيع التخلي عنا. أنت تعرف جدي المختار، لن يسمح له باللعب على هواه. وأنا أستمد القوة من هذا الأمر، وهو لن يستطيع التخلي عنك لأنك العلامة التي يحتاجها في تحقيق الظهور، فهو يحتاجنا، ولا يستطيع التخلي عنا. ونحن أيضاً نحتاجه، فهو سيبدأ بالأمر ونحن سننتهي به».

في تلك اللحظة رأيت الثعلب يقفز من عيني شميران، يضحك ويغمز لي، لم أكن أعرف حتى تلك اللحظة هذه الروح الماكرة والخداعة التي تخفيها شميران، وقد أخذت تتضح شيئاً فشيئاً مما زاد خوفي ورعبي، فالقاشا واضح وخططه واضحة، وهو لا يطلب سوى سيادة الأخلاق، بينما شميران غامضة وباطنية وتخفي أشياء في نفسها يتعذر علي الوصول إليها.

قلت لها «وما جدوى هذا كله شميران؟ أنا أرى أن المكسب الوحيد الذي يمكننا أن نحققه هو الهرب». فضحكت بعصبية: «تعتقد ذلك. يمكنك الهرب؟ أنت جئت وانتهى الأمر. كان عليك أن لا تأتي. هذا خيارك وليس من البساطة تغيير هذا الأمر. لقد فات الأوان. أنت الآن خائف. كل الرجال هم جبناء أول الأمر ولكنهم بعد أن يشعروا باليأس سينغمرون دون وعي منهم في القضية».

ذكرتني شميران بموعد العرس في المساء وصاحت من نافذة السيارة.

«بشو بشلامة، رابي» ثم انطلقت السيارة في شارع النبي دانيال.

مكتبة الفكر الجديد

(٤١)

كان تيمور قد سبقني بالذهاب إلى الأوتيل، بينما أخذت أتجول في المدينة وحدي، تناولت غدائي في مطعم «أبو جوني» أيضاً، وقبل العصر أخذت أسير عائداً إلى الأوتيل، وقد منح المطر الذي توقف رذاذه طابعاً عجيباً من الغرابة والسحر إلى المدينة، سرت بمحاذاة أعمدة الآس والسرو على امتداد الشارع قاطعاً ميدان الراهبات باتجاه شارع أحمد أفندي، حتى بلغت الأوتيل المقابل لـ «ملهى الطاحونة» حيث أقطن.

كان الربل الأسود بحصانيه الأحمرين قبالة الدكات الثلاث المسيجة بأحواض الزهور، حيث يجلس الحوذي محمد الذي أوقفه القاشا لخدمتي ممسكاً بالسوط الجلدي الأسود، ويرمي بأوراق الآس التي يقطفها على رأس الحصانين ويغط بالضحك، وحين أصبحت على مقربة منه، رآني، فقفز من مكانه، وتقدم باتجاهي، وقال بعد أن حياني:

«ماموستا، بعثني القاشا لآخذك إلى عرس أمين الله ويردي ابن المختار».

وقبل أن أنطق مدّ عنقه الطويل الأسمر المحزز والمسفوع بتيارات الهواء الباردة نحوي، كأنه يهمس بأذني بصوت خفيض متهدج، يعلن من نبرته عن سر لا يجوز البوح به أو إعلانه:

«بس ماموستا، تريدك السيدة ريزان قبل أن تجيء معي».

ارتقيت الدرجات الثلاث العالية ثم دفعت باب الأوتيل واجتزت المدخل.

مكتبة الفكر الجديد

كانت ريزان في صالة الاستراحة المعطرة جيداً، وقد أنارتها بمختلف المصابيح التي تبعث لوناً ليمونياً شاحباً غمر الصالة مع الحرارة المنبعثة من المدفأة، وقد جلست قبالتها بهدوء تتسلى بمسبحة من الفضة المزخرفة، كانت تنظر نحوي بعينين غائمتين وتعابير جامدة، فتخطيت بضع خطوات باتجاهها، وحين أصبحت أمامها مباشرة أشارت إلى الكرسي ذي المساند العالية والمنجّد بالمخمل الأحمر وبخيوط من الحرير الناعم الذهبي وأمرتني أن أجلس.

«اجلس من فضلك» قالت.

فخلعت قفازاتي ومعطفي وألقيت بهما على الطاولة التي أمامنا وجلست، كانت الحرارة اللاذعة قد تسللت إلى جسدي، لاسعة أطراف أصابعي المحمرة من البرد، وكنت أتنشق رائحتها وهي تلفح أنفي المتجمد ووجهي، وبعد برهة قالت بصوت هادئ متردد:

«نحن هنا نقدم خدمات إضافية في الفندق».

قلت لها: «لم أفهم».

«أنت تحتاج شابة تخدمك». قالت مبتسمة.

فقلت لها: «والله لم أفهم».

«لا يمكنك أن تنظف الغرفة، ونحن لا ننظفها، فنخصص لك فتاة جميلة تخدمك، تنظف لك الغرفة وتغسل ملابسك، وبعد ذلك إذا أردت أن تنام معك فيمكنك ذلك، وتعطيها أجرها... وأجرنا».

مكتبة الفكر الجديد

«لا ريزان، أنا لست بحاجة إلى هذا الأمر».

«ولكن من ينظف الحجرة؟ من يغسل ملابسك؟».

«إذا كان على غسل الملابس لا بأس. ولكن أنت تريدين نوعاً آخر وأنا لست بحاجة له».

«هذا شيء بكيفك».

لحظتها انفرجت أسارير وجهها مصحوبة بابتسامة كشفت عن أسنانها من شفتيها الملطختين بالحمرة القانية، ثم مدت يدها اليمنى المملوءة بالخواتم الزائفة، وبدأت تحك بظفرها الطويل المطلي بالحمرة في وجهها المجعد الملطخ بالمساحيق.

فصعدت إلى الطابق العلوي، وقبل الدخول إلى شقتي، كنت سمعت ضجة في شقة تيمور، كان صوته عالياً وهو يضرب على الطاولة، وكان يجيبه صوت نسائي بنحيب ونشيج متقطع، لم أكن أميز حديثهما، ولكنه كان حديثاً متوتراً وصاخباً، وكان صوت المرأة حزيناً باكياً.

وحين دخلت إلى شقتي انقطع الصوت تقريباً، أو أصبح بعيداً حتى تعذر علي سماع صوت المرأة، بينما كان صوت تيمور يأتيني عبر الجدار حاداً غاضباً بهيئة همهمات متقطعة. وبعد ساعة أو أكثر سمعت صوت دربكة في الممر، كان تيمور يطارد فتاة ويعيدها بالقوة إلى حجرته وهي تصرخ وتضرب وتهدد، فنهضت وفتحت الباب، كانت الفتاة قد دخلت إلى الحجرة بينما تيمور وهو

مكتبة الفكر الجديد

بالبيجاما والفانيلا في الممر يقفل الباب بالمفتاح. ودون أن ينظر لي هبط السلم، وأخذ صوته يزداد حدة مع ريزان في صالة استقبال الأوتيل، فدخلت إلى حجرتي وعدت إلي سريري وتمددت، بينما كان صوت الفتاة يأتيني حاداً ومرتجفاً من حجرة تيمور وهي تصرخ وتسب وتشتم.

كان علي البقاء في سريري حتى المساء، وصوت العراك بين تيمور والفتاة يمنعني من النوم والاستراحة، فارتديت ملابسي، وجلست قبالة النافذة أنظر إلى شارع أحمد أفندي وأدخن، بينما كان الربل واقفاً قبالة الدكات الثلاث وقد جلس محمد الحوذي على حوض الزهور وسوطه الأسود في يده.

(٤٢)

في المساء تمسكت بقائمة الربل المتوقف أمام الأوتيل، كان الحوذي يجلس تحت قبته الجلدية السوداء، وكان مصباحه الزيتي المذهّب مشتعلاً، ومقابض سجفه باردة.

وقبل أن أصعد خرج تيمور من الأوتيل وبصحبته الشابة التي رأيتها قبالة الملهى أول يوم جئت فيه إلى شارع النبي دانيال، كانت تحمل حقيبة جلدية على كتفها وبيدها كيس وضعت به ملابسها، حياني تيمور بوجه عابس بينما تحاشت الشابة النظر إلي، وحين صعدت إلى الربل، أطلق الحوذي الكردي صيحته الجهورية، ثم رفع سوطه الأسود إلى الأعلى فانقذفت نهايته الطويلة المدببة خلف الربل، وأخذنا نجري في الظلام بصورة هادئة، ولكي يزيد السرعة نخز الحوذي عجيزتي الحصانين بمنخاس حديدي رفيع في يده، فرنّت الأجراس البرونزية الصغيرة المربوطة على سيور من الجلد على

مكتبة الفكر الجديد

خدي الحصانين الأحمرين النشيطين اللذين انطلقا يخبّان بصورة عذبة، وأخذت الحوافر الحديدية تقدح على الإسفلت المتجمد في شارع أحمد أفندي.

سألت محمد الحوذي عن هذه الفتاة التي كانت بصحبة تيمور، فقال لي: «هذي قحبة كردية اسمها فريدة تعمل بالملهى. صديقة تيمور. كل يوم يتعاركون وبعد ذلك يتصاحبون». صمت قليلاً ثم بصق على الأرض وقال: «قحبة...». قلت له: «تيمور... مو كردي؟...» قال: «لا... شبك...».

«ماذا؟» فالتفت لي وقال بصوت غاضب: «شبك... علي اللهّية... أنت ما تفهم؟». فسكتّ ولم أعرف سبب غضب محمد الحوذي، مني؟ من تيمور؟ من فريدة أم من علي اللهية؟

كنا اتجهنا نحو ميدان الراهبات الذي أنارته المصابيح واللوكسات، كان مزدحماً ازدحاماً ثقيلاً: باعة المفرق وقد نشروا على الأرض بضائعهم، الفاكهانية وهم يسحبون العربات ذوات العجلات المطاطية، باعة اليانصيب وهم يزعقون بأعلى صوتهم، باعة الشطائر والشاي وقد نصبوا مواقدهم على الأرض تحت الأعمدة الكهربائية، خفراء الملاهي والأوتيلات وهم يشربون الشاي على صفائح مقلوبة. كنت أفكر بهذا الجمع المتنوع والمختلف وهو يسد الطريق بينما كان الحوذي يطلق صوته عالياً، فتنزاح الجموع يميناً ويساراً، كأنه موسى وهو يشق البحر الأحمر.

كنا قطعنا الميدان بصعوبة تحت صيحات وتنبيهات الحوذي وأجراسه، ثم انعطفنا نحو طريق ضيق يطلق عليه «الشارع

مكتبة الفكر الجديد

المشجر» قبالة الحي العربي الذي يقطنه موظفو الدوائر الحكومية، ودخلنا في ظلام دامس ما خلا مصباح العربة الذي يحركه الحوذي يميناً وشمالاً قبالة الحصانين. كانت العربة تجري في الشارع المبلل برذاذ المطر، وكانت أشجار السرو وأشجار الصفصاف الداكنة تخفي المنازل القديمة الطراز، تظهر خلفها السطوح المسواة بالأفاريز المعدنية المحززة.

انعطفت العربة بنا قاصدة نهاية شارع النبي دانيال والذي يسير إلى الشمال حتى يصل تل مطران من جانب البيعة، فسحب الحوذي لجام الحصانين وخفف السرعة لوجود حفر على الطريق مملوءة بالماء، ثم انطلقت العربة على صوت الحوذي وعلى صوت الأجراس والحدوات الحديدية على الطريق، كان ضوء المصباح ينير الطريق فتلتمع قطرات صافية على الأعشاب التي تغطي البراري البعيدة، حتى وصلنا إلى القصر.

كانت أشجار البساتين الداكنة المغسولة برشقات المطر مساء البارحة تحيط به، وكان القصر مشيداً بصورة شاهقة، وقد امتدت حدائقه الشاذة خارج بواباته الحديدية الضخمة. أخذت العربة تسير بصورة بطيئة، وقد امتد الشارع الذي يربطه بالشارع المؤدي إلى تل مطران بتشكيل يشبه الحرف (تي) بالإنكليزية، وقد أطل القصر بطوابقه المشرفة على الباحة الشاسعة التي تتخللها البحيرات الصناعية، نوافذه وشرفاته عالية وكبيرة، وحدائقه بشجرها المتشابك تشبه الغابة.

(٤٣)

توقفت العربة أمام البوابة الحديدية الضخمة التي تشبه بوابات السجون في القلاع العسكرية القديمة المستخدمة في زمن

مكتبة الفكر الجديد

الاحتلال الإنكليزي للعراق. كانت السيارات الحديثة متنوعة تقف عند الفسحة المبلطة قبالة البوابة، تجأر منبهاتها فيهبط المدعوون منها جماعات جماعات، وسط هدير الضحك والمزاح، وكانت الموسيقى تصدح من داخل القصر.

هبطت من العربة وسرت مع المدعوين والمدعوات ودخلنا القصر، كنت أسمع صوت الأحذية الجلدية ذات الكعوب العاجية على المرمر، وعطور الفتيات الأنيقات تضوع في الفضاء الساكن الرطب، حشد من العمائم الجميلة على الرؤوس، التنورات الضيقة ذات الكسرات، البلوفرات البيض، الجاكتات ذوات الياقات المروسة والجيوب المقمعة والأكمام القصيرة، القفازات الحريرية التي تصل حتى المرافق، البناطيل الضيقة، التنورات العالية إلى الخصر، القمصان الحريرية الملونة بياقاتها المرفوعة ودانتيلاتها البيض، وهنالك فتيات يضعن إيشاربات ناعمة على الرؤوس.

كان الشارع الذي يقود إلى القصر مبلطاً ببلاطات ملونة، وقد أخذت النساء ترش علينا ماء الورد، وهنالك مجموعة من الشابات يحملن مباخر فضية معلقة بسلاسل ذهبية ويوزعن الحلوى والشوكولاتة مع الهلاهل، كانت الضجة التي أحدثتها الآلات الموسيقية عالية، تتخللها الرقصات والدبكات السريانية وأحاديث المدعوين في الحديقة الشاسعة المنسقة، تتداخل معها الضحكات الصاخبة والمداعبات وضرب الكؤوس تحت المصابيح، والنشرات الضوئية الملونة المعلقة بصورة متداخلة على أفنان الشجر.

وكانت الأسيجة المرمرية تعكس ظلال الأنوار الباهتة، والحديقة منسقة بالثيل المقصوص المرتب بعناية فائقة، تتقاطع عليها أعمدة

مكتبة الفكر الجديد

وصفوف الآس المزهر، بهيئة مضلعات مستطيلة ودوائر وأشكال هندسية، تحيط بها أنواع الصبيريات، وكانت هنالك أحواض زهور متشابكة، وبحيرات منتشرة بمائها الساجي العذب. بصفاء وشفافية يمكنك أن ترى الحجر الملون والحصى في القاع، ويتناثر الرذاذ البارد من النافورات على الأسيجة المرمرية وعلى وجوه المدعوين.

هنالك بعض الفتيان يراقبون أسراب الوز الأبيض وهي تغادر أظلتها الخشبية المشيدة كسقوف في أطراف البحيرات منطلقة منها، زوجين زوجين، نحو الأطعمة الموضوعة في جرادل قرب الأسيجة، وهنالك شخصان في الحديقة تحت سقف مضلع يوزعان الشراب والكوكتيل وأنواع عصير الفواكه على المدعوين.

(٤٤)

وحين رأتني شميران جاءت من الدكات المرمرية المؤدية إلى بهو القصر مسرعة عبر الطريق الرخامي المصقول لاستقبالي، وحين أصبحت على مسافة قريبة مني توقفت، ثم مدت يدها الرخوة بعد أن خلعت قفازها الأرجواني وصافحتني، فشعرت بدفء يدها، كانت تبسم لي:

«بسيما رابه... لحضورك رابي».

كانت شفتاها مطليتين بحمرة فاتحة، ولفت شعرها بعمامة من الحرير الطبيعي، وقد كشفت التنورة القصيرة عن جمال ركبتيها البيضاوين، والساقين المخروطيين بنعومة، وقد كشف قميصها من الأعلى عن صفحة الصدر العريض الأبيض حيث استقر صليب

مكتبة الفكر الجديد

صغير يحوط رقبتها بسلسلة دقيقة الصنع، واضعةً على كتفيها معطفاً راقياً وإيشارباً حريرياً ملوناً.

سرنا بجوار البحيرات وكأنني في حفلة من حفلات غاتسبي العظيم، الوز ينساب على السطح الراكد الشفاف، ومرجوحة تجلس عليها شابة جميلة يهزها فتى أسمر، وكلما تروح في الهواء تطلق الفتاة صرخة رعب مع ضحكة متقطعة، وتنورتها الطائرة في الهواء تكشف عن كلسونها الأبيض.

انسحبنا نحو الدكات المرمرية التي تقود إلى بهو القصر، وحين رأت دهشتي أخذت تتحدث لي عن القصر، وتاريخ تشييده:

«كان والد جدي هو الذي شيده في القرن التاسع عشر، وجدي جدده. كان من المتعاونين مع الإنكليز، وقد قبض مالاً كبيراً من تجارته. إلا أن الناس هنا يقولون بأنهم كانوا يقبضون رشاوى من المحتلين».

ما يميز كلام شميران هو حياديتها وبساطتها، لم تكن تدافع عن شيء، ولم تكن تؤمن بشيء، وكل الأشياء كانت معقولة وجائزة بالنسبة لها وممكنة، وهذا ما جعلني أطمئن لها، لقد كانت تتحدث ببساطة ولم تكن تلتزم حكاية واحدة، وكان كلامها على الدوام يخلو من المبالغات.

أخذت تتحدث عن عائلتها وحروبها مع العثمانيين، وعن الكنز الذي دفنه الأمراء الأكراد الهورمانيون في تل مطران، ومخطوطة راميشوع الشايب التي تكشف بوساطة الرموز عن مكانه في قصر جدها، عن أمها التي توفيت قبل أن تراها..

مكتبة الفكر الجديد

فسألتها: «يقولون إن معلماً جاء قبل عشرين عاماً لتدريس أطفال السريان العربية قد خانها وهرب... وكيف رافقت والدتها هذا المعلم الشاب قبل عشرين عاماً فأحبته، وبعد أن عرف أنها حملت منه، تركها وهرب، فأرادت أن تهرب وتلحق به في بغداد إلا أن جدها حبسها في القصر حتى ولدت، وبعد أشهر من الولادة اختفت؟» قالت:

«جدي يقول إنها هربت ولحقت بعشيقها. ولكن القساوسة هنا يقولون إنه قتلها ودفنها دون علم أحد».

ثم أخذت تتحدث لي عن الأب عيسى اليسوعي، والخير الذي كانت تراه فيه العامة، والذين يرون في احتضاره احتضاراً للخير، وقد أصر على إعادة تقليد استقدام معلمين عرب للبيعة وقد اتفق مع صافيناز أوغلو لتدبير هذا الأمر، ولكن جدها بقي معارضاً لهذا الأمر:

«جدي الذي وقف ضد هذا التقليد ومنعه. ولكن القساوسة يقولون هذا تدخل من المختار في أمر البيعة. وحين جئت أنت رافقتك أنا، ومنذ ذلك اليوم جدي لا يكلمني».

قطعت شميران هذا الحديث حين بدأت الدبكة، فأخذت دوائر الراقصين تدور بانسجام تام، النساء بعمائم مزينة بليرات تلمع، انسدلت تحتها الضفائر بشرائط ملونة، وكانت فساتين المخمل تضيق على الصدور المكورة الصغيرة، وقد ألقيت على الأكتاف العريضة إيشاربات رمانية، وعقدت عند الخصور الأحزمة الحريرية لتبرز الصدور الرخوة اللدنة،

مكتبة الفكر الجديد

وهن يضربن الأرض بأقدامهن الصغيرة المربوطة بسيور من الجلد، يضربن الأرض المغطاة بالعشب الطري، ويرتفعن في الهواء الطلق، فتهتز الصدور هزات سريعة موحدة على النغم، وكان الرجال بطاقياتهم البنية المصنوعة من الصوف، وقد ثنيت نهاياتها، كما شدوا على الخصور النحيلة طيات من الأقمشة الخفيفة المزينة بخيوط بارزة، وهم يمسكون أيدي بعضهم بقوة ويضربون الأرض بنشاط وخفة، ويلوحون بالمناديل الحريرية الملونة، بينما وقف المتفرجون على شكل حلقة تحيط بالراقصين في جو من الصخب والغناء والموسيقى والمرح وتبادل الأنخاب.

انسلت شميران بخفة من يدي التي كانت تضغط عليها إلى حلقات الرقص، فتعالى الصياح والصفير وهي تلوح بطرف منديلها الأبيض، واندفعت وسط حلبة الرقص، وبعد أن خلعت شالها الرماني ورمته، انطلقت مرحة بين دورات الراقصين الملتفين بهيئة دائرتين واسعتين، تتحركان بصورة متعاكسة، متلاحمة بدبكة موحدة لعشرات الأقدام التي تضرب الأرض وتنطلق صاعدة إلى الأعلى ليهبطوا إلى الأسفل، الأكتاف مع الأكتاف، يدورون بحركات متناغمة منسجمة، وقد هبطت الأضواء الشديدة السطوع عليهم فكشفت عن زركشة الثياب والعمائم الموشاة والضفائر المعقودة بالأشرطة والتخريمات المختلفة، والفساتين المذيلة بالكشاكش، الأذرع على الأذرع ملتصقة، وصدور النساء البيض الممتلئة مكشوفة فترتعش الصلبان الذهبية الصغيرة على صفحة بين تكوراتها المضغوطة، يقفزون قفزات موحدة على النغم الذي يمتد إلى كل مكان، فيرتفع الصياح والصخب صادحين بأغنية سريانية:

مكتبة الفكر الجديد

«كو جرمانة رابة بناته شطرانه

بالقاطينة ألوي جومي خلولانه

همسو ريشو دولا تيوا بشتايه

مابشتيتو صلومنيله كاشقياتو آخاوه».

كانت صدور الفتيات العالية المرتفعة المضغوطة تحت الأقمشة الناعمة تهتز مرتجفة، والأكتاف تصعد وتهبط مع الإيقاع الذي يتردد صداه المنتظم في الفضاء، وبعد دقائق انفصلت شميران بخلسة عن الراقصين، ثم تناولت الإيشارب الذي كنت ممسكا به، بينما كانت رفيقاتها يمازحنها ويربتن على كتفها وهي أمامي أنفاسها تتصاعد بسرعة وتلهث مبتسمة، فضغطت كفي بقوة وأخذتني بين الجموع المتناثرة في الحديثة الواسعة إلى الطرف القصي من الحديقة لنتطلع إلى الجبل بقممه الدائرية وقممه الصخرية المسننة الحادة حيث يتصاعد من الوادي العميق بخار أبيض مثل رداء شفيف من الموسلين، وهنالك أحراج من شجر صغير وأرومات شجر مجتث.

قالت شميران:

«أنا بردانة أما ندخل؟».

وأخذتني من يدي نتخطى بهدوء فوق البلاطات المرمرية التي تعكس الأضواء، حتى اجتزنا الدكات المرمرية إلى بهو القصر.

(٤٥)

كانت الصالة ممتلئة بدخان السجائر، ومتوهجة بمختلف الأنوار التي تلقي بها ثريات الكرستال الهابطة من السقف إلى الأسفل، كانت النساء يتحركن بهدوء وقد خلعن الجاكتات لحرارة المكان حيث أوقدت الوجاقات في كل الصالات والحجر، فسرن بصديريات مذهبة جيوبها منتفخة، وبأربطة جذابة منسجمة مع التنورات الكبردين، وبخصور نحيلة شدتها لاستيكات من الخلف فوق قمصان مقلمة بخطوط رفيعة، أو مع بلوفرات بياقات من الجلد اللماع، رفيرات، فولارات حرير معقودة، أقمشة صوفية مع أحذية عالية وأحزمة بطيات مختلفة يتحركن بهدوء.

كان القاشا بوجهه الأحمر المنفعل هناك وقد خلع الطاقية الفارسية عن رأسه، كانت عيناه الزرقاوان تتلاقطان خلف نظارته الدائرية الرقيقة الإطارات، كان يتحدث بهدوء، وحين رآني حياني:

«بسيما رابه لمقدمك... رابي بسيما رابه» فقلت له:

«لي دقره، قاشا».

فضحكت المرأة التي كانت تتحدث معه حين سمعتني أتكلم بالسريانية وقالت:

«ها... الرابي تعلم السريانية بسرعة».

فهز يدي وهو يصافحني بكفه الناعمة الملساء كيَد عذراء، ثم دخلنا أنا وشميران الصالة الأخرى. كان العريس والعروس،

يجلسان في مقدمتها على كرسيين كبيرين، فنظرت مباشرة إلى أمين الله ويردي الجالس يمين عروسه بوجهه الشاحب، وقد ارتدى بذلته السوداء، وكانت العروس تنظر وتحيي المدعوين بيدها مبتهجة ببرقعها الأبيض المزين بورود، جولي تنظر نحوي وهي تطق بعلكتها، وتستدير بصورة مائعة خلف العمود لكي لا أراها، وقد ارتدت ملابس مراهقة: بنطالاً ضيقاً من الكبردين كشف عن وركيها الضخمين وعجزها السمين الراجع إلى الوراء، وصديريتها الضيقة وقد اندفع ثديها إلى أمام نافراً وهو مضغوط بقوة من خلال القماشة التي تكاد تتمزق، فمنحها ذلك صورة مثيرة للسخرية، وأخذت تتبعنا حتى دخلنا أنا وشميران الصالة المزينة بمختلف الأثاث.

كانت الراقصة ترتدي ثياب الرقص الفاضحة، قماشتها الشفافة المقطعة حولها كاشفة عن فخذيها البيضاوين السمينتين الممسوحتين، عن ذراعيها العاريين، وخصرها الصغير، وسرتها التي تومض بها، وتهز بنهديها المنتفخين بقوة والمضغوطين مثل بالون محصور تحت القماشة اللماعة الصغيرة التي سترت حلمتيها.

ثم سحبتني شميران إلى الصالة الأخرى.

كانت هنالك فتاة في العشرين تجلس قبالة الوجاق تبعثر الجمر الأحمر فيتصاعد اللهب عاكساً شعاعه على وجهها ويديها، وهنالك قبالة العمود المرمري فتاة أخرى تجلس متقاطعة الساقين بهدوء قدري واللهب يتراقص فوق المجمرة في زاوية نصف معتمة، كنت أنظر إلى إغراء جوارب الحرير الناعمة الموشاة

مكتبة الفكر الجديد

وسحرها الذي لا يقاوم، كنت أنظر إلى فتنة التفاصيل اللذيذة وروعة الإيحاء في الدانتيلا، وسحره الأخاذ عندما يكون نصف مخبأ في أعماق الملابس الحميمة.

(٤٦)

كان الشخص الذي رأيته عند المباني الخربة موجوداً، يوسف خوري يقف وهو يحدق بالمدعوين بنظراته القوية طويلاً، وهو بالهيئة ذاتها: ملابسه المخصرة على جسمه النحيف، العمامة السوداء، وخرزة الجشتلت معلقة في عنقه تتلاعب على صدره الأحمر الأملس المفتوح، كان يشم عطوساً من علبة فضية في يده، وبعد أن عطس دمعت عيناه الخضراوان واحتقنتا بالدمع وهو يقذف بكلماته المخمورة البذيئة وسط جمع من الرجال الذين يداعبون أذرع الفتيات بالوخز وإطلاق صرخات عنيفة، مرددين عبارات غزل ومقاطع غنائية سريانية وكردية وعربية غارقين في ضحك مجنون، وقد كان مظهر النسوة أمامه داعراً، وقد اعترتهن موجات من الضحك. كان هنالك بيانو ومقاعد مموهة بالذهب، عليها طنافس طويلة الزغب، وبدت الرسوم تزين الممرات المفروشة بالسجاد المتنوع الألوان، وثمة خزائن مملوءة بالهدايا والأنتيكات والأباريق الأثرية والأرابسك وخوان الفضة، وساعات تتدلى بسلاسل ذهبية، وهنالك بنادق إنكليزية قديمة، أحزمة جلدية للكلاب وسروج وسياط سود متعددة.

كانت الحجرات والصالات الكبيرة المؤثثة نصف معتمة، ونحن نسمع مختلف الأصوات والهمسات القادمة من الزوايا، وهنالك أصوات قبل ممطوطة، وضربات ربلة على اللحم اللدن العاري، وضحكات متموجة، وهمس لاهث، وجمل غريبة مثل:

«تعالي... خبيثة»، «...كيبنخ...».

وهنالك عاشق يعرض اختراعاته للفتيات في الزوايا، وهن يتبخترن رافعات رؤوسهن وصدورهن عالية مثل طواويس، قال أحدهم لفتاته «كيبنخ» فالتفتنا أنا وشميران لبعضنا، وابتسمنا، فسألتني إن كن أعرف معناها، فقلت لها وأنا أنظر في عينيها مباشرة:
«نعم... أحبك». فابتسمت بعدما احمرّ خداها.

***

دخلنا إلى حجرة الطعام الطويلة الممتدة إلى نهاية القصر بطاولاتها وفرشها ومقاعدها، بأقواس مداخلها، وخطوط ممراتها المستقيمة الشاهقة، وقد بدت على جانبيها الخزائن المتعددة الأصونة، الخزائن الممتلئة بالصحاف والملاعق والأقداح النفيسة، وخزانة الصحون المصنوعة من خشب البلوط التي كانت تحتوي على الآنية المنزلية من الأباريق إلى الصحون، وجفان الفضة، والصحاف المزخرفة، والطناجر المختلفة، وأواني الماء، والكؤوس، وشراشف المائدة المنقوشة، وملاعق الذهب الخالص، والشوكات.

وقفنا أنا وشميران لنتناول طعامنا، فجاء القاشا ينظر إلى المدعوين وهم يأكلون، كانوا قد توافدوا نحو الطاولات الطويلة التي وضعت عليها صحون الأرزّ الكبيرة، وقد فرشت المقاعد بطنافس طويلة الزغب حمراء بلون شراشف المائدة، والخدم الذين يقفون صفّاً على خدمة المدعوين يرتدون بذلات خضراء مثل عشب الحديقة.

كان المدعوون يتناقلون صحون الروبيان المتبل بينهم، واحدة تصيح

مكتبة الفكر الجديد

«هاك صدر الدجاج المشوي» وشخص يتحدث للمدعوين «أنا أحب الديك الرومي المحمر» بينما وقف شخص ببطنه العظيم وهو يكرز الطيور المحشوة بقلوب الحمام، عشرات الأيدي تمتد لتمزق لحم الغزال بالزيتون والفلفل، اللحم المقلي بالزبدة، العصافير المشوية بالأسياخ، السمك المشوي بالخردل، وهناك جماعة يتحدثون بصوت عال وهم يأكلون الكروش والمقانق والحملان الصغيرة المحمولة بالأسياخ. وحين ينتهون يتجمعون على كعكات الشوكولاتة، الفواكه الطازجة، كريم الجوز والكوكا، ومن هناك تسمع الضجيج «أعطني السيخ أعطني السيخ» وشخص آخر يمد يديه وينتزع قلب الحمل ويقطعه ويقدم لزوجته «كلي... هذا طيب».

كان القاشا يبتسم للمدعوين ويقول:

«كلوا، كلوا بالعافية واشبعوا». ثم يهمهم مع نفسه ويقول: «ستجوعون بعد ساعة... كأنكم ما أكلتوا».

التفتّ إليه وأنا أمسح فمي بالمنديل «قاشا... أنت لا تأكل».

فربت على كتفي «أنا لا أأكل... وهذا الأكل لا أحتاجه... غاندي أراد أن يضرب مثلاً للبشرية بأن الإنسان يمكنه أن يعيش دون أن يأكل. صدقته الناس لكنها ما زالت شرهة. كل أهل الكروش صدقوا غاندي، وليس هناك منهم من يريد أن يتوقف أو أن يخفف من شراهته. انظر إلى هذه الكواسر...» – وهو يشير بيده الناعمة التي تشبه النبيذ – فنظرنا إلى شخص بالزي الكردي يضع صدر الحمامة في فمه ويعلس، بينما مسكت يده الأخرى بلحمة كبيرة من خاصرة الضأن، كان يريد أن يزدرد صدر الحمامة لكي يعب

مكتبة الفكر الجديد

الثانية في فمه، وكان هنالك شخص آخر يحمل صحن المرق بكلتا يديه ويشرب، ثم يضع الصحن ويمسح شواربه.

«بماذا يذكرك هذا المشهد؟» قال لي، بيد أني صمتّ، إن هذا المشهد هو مشهدنا جميعاً ونحن نأكل، ولكنك إذا راقبت نفسك فإنك ستتقزز حتماً.

«راقبهم وهم يأكلون. راقبهم وهم في التواليت».

«كيف أراقبهم في التواليت قاشا؟».

«أقصد... راقب نفسك».

فانفجرت ضاحكاً بوجهه. كانت شميران تنظرنا من بعيد وهي تتحدث مع الخدم حول بعض التفصيلات، بينما أخذ القاشا يحدثني وجسمه يتحرك حركاته المسرحية، أخذ يتحدث عن النقص الذي تأسست عليه البشرية «ليس هناك شبع حقيقي، هذا وهم، هم يتوهمون بأنهم سيشبعون، ولكنهم بعد قليل سيجوعون، ستفرغ بطونهم ويعودون من النقطة الصفر. هم يتصورون بأنهم إذا أكلوا كثيراً سيخزنونه. هذا وهم، مثل الجنس، مارس الجنس يميناً وشمالاً، وتحول إلى زير نساء. وإذا أبقيتك ثلاثة أيام سترجع للنقطة الصفر كأنك ما مارست الجنس. ليس هنالك من شيء يمكنك أن تخزنه. افرح وكن سعيداً عشر سنوات... يوم حزن واحد يدمر عشرين سنة من عمرك كأنك ما فرحت. عليك أن تسامى. عليك أن تنظر للحياة بعين الصقر. عليك أن تفكر بفكرة السعادة لا بالسعادة. بفكر المرأة لا بالمرأة. تحرق أعصابك حتى

مكتبة الفكر الجديد

تنام مع واحدة، تنام معها، تشعر بالخواء. تنام وتقعد كأنك ما مارست الجنس معها. عليك بالفكر، رابي لا بالتجسيد».

كان يطلق على هذا الأمر «الحس المصيبي» لدى الإنسانية برمتها، وأخذ يتحدث لي عن فكرة الإنسانية المؤسسة على النقص الخالد، عن أسطورة الشبع والامتلاء الكاذبة، لأن هنالك نقصاً خالداً وأبدياً، كان يتحدث عن فساد المدينة، وعن السوقة الذين يمارسون الجنس بلا انتهاء، كيف يركض الواحد منهم ويتعذب في سبيل أن يلهث على صدر امرأة، وبعد قليل يشعر بالغثيان، ثم يشعر بالرغبة ذاتها قد اجتاحته، وكأنه لم يمارس الجنس طوال حياته.

كان يشير لي بيده الرخوة الطرية إلى المدعوين فشعرت بالتقزز الحقيقي من منظر الأكل:

«كل فساد الأخلاق بسبب هذه النهم...» أخذ يتحدث لي عن البشرية العارية في الغابة، وكيف كان الإنسان يأكل الثمر، واخترع لي قصة الإنسان الذي أصابه القحط وفكر أن يخزن الثمر، وكيف اكتشف أن الثمر سيفسد، ففكر بشيء يمكنه خزنه، وهو النقد الذي يشتري به كي يحافظ على وجوده ويبقى على قيد الحياة، لكنه نسي الثمر والحاجة، وأخذ يجمع المال:

«قام يجمع بالمال، وكأنه دين، كأنه إله. طبعاً الأغنياء ما يحتاجون كل هذا المال حتى يعيشوا. انظر إلى المختار، يملك ما يكفيه أن يعيش قرناً بعد... وهو راح يموت بعد أيام قليلة. قل له ما شبعت؟ يقلك لا... لأنه اليصير عنده مليون يقول ليش مو مليونين؟ اليصير عنده ثلاثة يقول ليش مو أربعة؟ هم يركضون والوهم يركض

قدامهم بلا انقطاع. يريدون يقبضون عليه بالأرقام وهو يزيد. قلّه وزع ثروتك يقلك شلون أنا جمعتها هذا حقي... وهو مستعد لآخر لحظة يجمع المال».

جاءت شميران فتوقف القاشا عن الكلام ولاطفها «عوافي، بعد شوية راح تجوعين».

فضحكنا أنا وشميران، وسرنا في المماشي الداخلية للقصر، فحدثت شميران عما كان يتحدث القاشا لي به، فضحكت وقالت:

«لا، هو واهم. السعادة لا تستمر، ولكنها تتكرر. الناس تأكل حتى تكرر هذه السعادة». وتحدثت شميران عن بعض الأفكار التي كان يؤمن بها القاشا، كانت تسخر من فكرته حول الأغنياء والفقراء، وتظن أن القاشا يريد تحويل المدينة إلى فقراء، في الوقت الذي يمكن أن تكون هنالك فئة قليلة من الأغنياء أو غنيٍ واحد، يمكنه أن يجعل المدينة تعمل وتكسب وهو يكسب أيضاً:

«صحيح أن كسبه أكبر من كسبهم ولكن الكل يعيش. في حين أن القاشا يريد أن يحول الجميع إلى شحاذين».

في تلك اللحظة انتبهنا إلى الضجة، حيث المختار جد شميران قد هبط السلم ببرنصه الصوف، وبعصاه الخيزران المرصعة بالكشتبان ببطء، ناظراً أول الأمر إليها، ثم توقف في منتصف المسافة على السلم ونظر نحوي بعينيه المتعبتين، فأدركت شميران تأثير ذلك علي، فسحبتني من يدي وهي تخزره بنظرة لجوجة، واجتزنا الصالة. قالت: «أشعر بالضيقة، ما نخرج إلى الحديقة؟».

مكتبة الفكر الجديد

خرجنا إلى الدكات المرمرية الثلاث، كان الراقصون يتوافدون إليها بحلقات، ثم هبطنا لنتجول على البلاطات المحاذية للحديقة، سرنا حتى وصلنا الحظائر الكائنة خلف القصر، ومن بعيد سمعنا تغير ألحان الموسيقى.. وتعالت الضجة في القصر وخارجه وأخذت الكلاب تنبح، فقالت شميران: «أما نعود. لقد بدأت الزفة» وسرنا يداً بيد، وحين اقتربنا من الحديقة المواجهة للقصر سحبت يدها، وسارت أمامي وأنا أتبعها حتى دخلنا الصالة.

كان أمين يقود زوجته المبتسمة ليرتقي السلم إلى الأعلى، بينما سار خلفه الإشبين والإشبينة يحملون الشموع، يتوسطهم المختار وخلفهم الخدم يرتدون الطاقيات السريانية، وينثرون بتلات الورود، وبدأ الناس يصافحون المختار الذي توقف منتصف السلم حيث صعد أمين وزوجه للأعلى حتى اختفى، وتدافع المدعوون يشقون الطريق بصعوبة لمصافحته، وينسلون.

سألت شميران فيما إذا كان من الواجب مصافحة الميوقرا جدها، إلا أنها قالت: ربما لن يمد يده لك، سنخرج وكفى، فخرجنا من الباب.

تقاطرت النساء على السيارات التي تزعق في الفضاء، فيما المصابيح الموجودة على سياج الحديقة تلقي شعاعها على المدعوين:

ثياب ملونة، التماعات حلي متوهجة، أطواق مذيلة، نساء ورجال يتبادلون التحيات والمزاح، ثم يرتقون العربات والسيارات المتوقفة، فتنطفئ أضواؤها الداخلية مع اصطفاق الباب، وتنطلق سريعة في الظلام الحالك، حتى تتلاشى أضواؤها الحمر الخلفية.

مكتبة الفكر الجديد

(٤٧)

جاءني محمد بربله الأسود وحصانيه الأحمرين اللذين يطلقان البخار من منخريهما، وهما يهزان برأسيهما المتمايلين يميناً وشمالاً، فودعت شميران بعد أن خلعت القفاز عن يدي، وانحنيت لها، تسلقت بعد أن تمسكت بقائمة الربل وجلست، وبعد أن انتهى الحوذي من إشعال المصباح المذهب يمين الربل، وقد ألقى شعاعه الأصفر الشاحب الممتلئ على وجه شميران المستدير، صاح بالحصانين (ديه.. ديه) ورفع السوط إلى الأعلى، فانقذفت نهايته المدببة خلف السجف، وأخذ الربل يسير بسرعة، فرفع الحوذي محمد رأسه إلى السماء، ورفعت رأسي ونظرت معه، كانت الغيوم ثقيلة كأنها تهبط إلى الأرض وهنالك ضياء شاحب محمر ينبعث من طرفها، وقد انعدمت الريح تماماً، فقال الحوذي بصوت أجش وهو يسعل:

«الليلة تثلج».

لقد صدق حدس الحوذي كاكه محمد، ما أن أصبحنا على مقربة من شارع أحمد أفندي، في شارع النبي دانيال قبل الوصول إلى ميدان الراهبات قرب أحد الأوتيلات حتى أخذ الثلج يهبط من السماء، كانت العربة تسير والثلج يهبط بهيئة نثار خفيف متقطع، غطى سجف العربات السود وتجمع فوق أوراق الشجر المعمر، وغطى حافات الشرفات ونوافذ المنازل، وانتشر بشكل خفيف على عتبات الأوتيلات وفوق الأفاريز، وعلى مظلات المتاجر، وتراكم قليلاً فوق الأرصفة والشوارع المعبدة بالإسفلت.

لقد كان المشهد ساحراً، فكان الثلج يرتطم بحافة السجف ويتناثر

منتشراً على وجهي وملابسي، ويتحول النثار الهابط أول الأمر إلى ماء بعد أن تسحقه الأقدام، حيث تهبط الكتل المدورة بصورة لولبية بطيئة لكثافتها، فتكشف عنها أنوار مصابيح السيارات، ومصابيح العربات التي تسير ببطء في الشوارع المزدحمة التي خففت ظلامها الثلوج المنهمرة المتراكمة.

لقد اكتسح الثلج المدينة برمتها، وغطى الحفر والمستنقعات واكتسى لونه بلون بالمزابل والدخان والسخام، ثم بات يتزايد واكتسب لونه الأبيض، وقد خرج عمال ومستخدمو الملاهي التي تفتح أبوابها حتى ساعات الفجر الأولى بمعاطفهم الثقيلة، وجزمهم السود التي تصل إلى حد الركب، وبأيديهم الرفوش وأخذوا يزيحون الثلج عن الساحات والحلبات الصغيرة والمعبدة، وهيأوا الطريق لسيارات الزبائن القادمة من بعيد.

لقد عبقت في الشارع المشجر الرطب أبخرة الشواء الكثيفة التي تدفع بها مفرغات الهواء من المطاعم، والمقاهي والملاهي المضاءة المزدحمة في هذه الساعة من الليل، تخرج مندفعة، ثم تتلاشى شيئاً فشيئاً في الظلام، كنا نسير على إيقاع الربل، وقد انهمر الثلج على الحصانين وتجمع على سرجيهما الأسودين ورأس الحوذي وأعلى السجف، كنت أرى نديفه ينهمر بغزارة حتى اكتست الأرصفة برمتها متناسقة مع البياض المتهدل من أفنان الشجر، وفوق أفاريز الفنادق، ومظلات المتاجر، ومصطبات الأرصفة، وقمم السيارات المتوقفة قبالة الملاهي.

كانت الملاهي مضاءة بألوان متعددة، فينعكس الشعاع على

مكتبة الفكر الجديد

البياض المتلامع أمام أبوابها التي تصدح منها ألحان صاخبة، وأغان، وضحكات متقطعة، وأصوات ثملة، وهنالك بضعة أفراد يركضون بالملابس الثقيلة والقبعات ويحملون الفوانيس باتجاه الأوتيلات، أو باتجاه المنازل المتاخمة لميدان الراهبات، وحين توقفنا أمام أوتيل السعادة الذي أقطنه كان الشارع قد تغطى بالنديف المنسحق تحت العجلات، واكتست حافات نوافذ الأوتيل وعتباته بالثلج، وما زالت بقايا النديف الأبيض فوق أحواض الزهور التي انتثر عليها الثلج أبيض متلامعاً تحت الأضواء المنعكسة عليه من النوافذ.

وبعد أن هبطت من العربة قلت للحوذي بصوت خافت: «مر علي غداً... ها».

«لكن ماموستا... قال القاشا في الأيام التي تثلج وتمطر ماكو درس للأطفال».

«عندي شغل هناك. مر علي الظهر».

ما كان علي الوقوف تحت انهمار الثلج الذي بدأ يتزايد شيئاً فشيئاً، فتركته متوجهاً إلى باب الأوتيل بعد أن لسعت وجهي هبات جليدية باردة، فنكشت شعري بما علق عليه من نديف الثلج الذي وصلت برودته إلى فروة رأسي، ونظفت ملابسي، وقبل أن ينطلق الحوذي قال لي بصوت ممتعض:

«لن أتمكن من المجيء إلا بعد ان تقوم الجرافات بتنظيف الطرق. هذا إن توقف الثلج عن الهطول».

مكتبة الفكر الجديد

وانطلقت العربة السوداء المبقعة باللطخات البيض بحصانيها الأحمرين في الشارع تحت الندف، وهو يهبط تحت الأضواء المنبعثة من نوافذ وشرفات الأوتيل.

دخلت، كانت ريزان تحوك بسنارتها، وقد تدحرجت عند قدميها كرات الصوف الملون، ثم غمزت بعينيها وقالت «هنالك فريدة تنظف لك الحجرة».

«فريدة – قلت لها – أليست هي صديقة تيمور؟».

فقالت بصوت ساخر «صديقة الكل. تركته... بعد ما تريده... شنو هو مشتريها؟».

تسلقت السلالم الضيقة والمضاءة بهدوء، وفي الممر سمعت قدميها الصغيرتين تتحركان في شقتي مع صوت أغان قديمة منبعثة بهدوء من الباب، وبعد أن فتحت الباب وجدت فريدة بالملابس المنزلية اللازقة على جسدها، وقد حلت شعرها منسدلاً على كتفيها العريضين، كاشفة عن صدرها الأبيض منتفخاً، تحليه قلادة مستقرة بين ثدييها، وهي تعد القهوة بسخان صغير محمول، وقد اختلطت رائحتها بعطر فريدة النفاذ.

كانت الملاءات والشراشف نظيفة ومرتبة، وقد وضعت في نهاية السرير غراموفونها، فتعجبت، وقلت لها: «لكنك صديقة تيمور، أليس كذلك؟» فضحكت مني وقالت:

«لا لست صديقة أحد. عملي هذا...».

وبعد قليل من الصمت جاءتني بفناجين القهوة، وأنا أرمق جسدها البض وهو يتحرك بحرية تحت ملابسها اللازقة، وسط حرارة ودفء الحجرة، ثم غرقنا بصمت ونحن نتناول القهوة، فرفعت رأسي نحوها والتقت عيناي بعينيها مباشرة، وبقينا نحدق ببعضنا، فارتجفت شفتاها الحمراوان المقلوبتان، وتنهدت تنهدات حارة، بينما راحت يدها الناعمة الممتلئة تمسك بساعدي بقوة، فاستشعرت حرارة جسدها الناعم من حنايا ثوبها الملتصق بجسدها الأبيض.

في تلك اللحظة كان خيال القاشا يداهمني بالتعالي على المرأة من خلال فكرة المرأة، ولكن لم أكن قادراً فعلاً أن أكون الشخص الذي يتحدث عنه القاشا، كان نهداها البيضاوان، وعذوبة شفتيها المرتجفتين تعصف بي، كنت في داخلي أحاول الخلاص، ولكن لا شيء في جسدي يستجيب لتركها، كنت أنجذب بقوة نحوها، فتمتمت بصوت شهواني خفيض في فمها المنفرج، وشفتيها اللتين بللتهما بلسانها المرتجف الذي يتلاعب تحت أسنانها البيض الناصعة، بينما طرحت رأسها إلى الوراء، فأخذت أتذوق خدها بلساني، وأهمس في أذنيها بصوت خفيض ومرتجف، وأخذ كلانا يلهث، وانطرحت عليها بخفة وكانت قد اجتذبتني بشراسة، وشدتني بملء يديها، فمددت يدي على صدرها، وحين لامست أصابعي حلمتيها شعرت بصعقة من أخمص قدميها حتى قمة رأسها، فضغطت على شفتي بشفتيها حتى ضاق نفسي، وعضتني فآلمتني، وقبل أن أخلع قميصي سمعت طرقات قوية على الباب، في البداية تجاهلتها، وأخذت أفتح الأزرار، إلا أن فريدة تجمدت تماماً، فنهضت، سمعت صوت تيمور قوياً على الباب متلكئاً ومخموراً:

مكتبة الفكر الجديد

«أيها البغدادي ماذا تفعل صديقتي عندك؟ أيها البغدادي افتح وإلا كسرت الباب».

وأخذت الضربات تزداد عنفاً، فعدت وزررت قميصي وأخذت أرتب شعري، وقفزت فريدة من السرير بسرعة، وأخذت ترتب شعرها وتسوي حمرتها، وأخذت تمسح الحمرة عن وجهي وعنقي، وما أن فتحت الباب اندفع تيمور بأقدامه المضطربة نحو الحجرة، وسحب فريدة من يدها:

«قحبة... ماذا تفعلين هنا.. قحبة...»، فدفعته فريدة، وحين ضربها مسكته أنا من يده وضربته، فصرخ بوجهي «اتركها صديقتي... لا تتدخل».

إلا أنها صرخت بوجهه: «ما أريدك.. ما أريدك... أنا قحبة عليك وعلى غيرك». فلطمها بقوة على خدها، فصرخت، وأخذ يسحبها إلى حجرته. في تلك اللحظة لا أدري ما الذي حدث في داخلي، لقد شعرت ببركان يغلي في أحشائي، لقد فقدت وعيي، شعرت بقوة جبارة تفور فيّ لاكتساحه وتدميره، كيف أتركه يأخذها مني.

أخذته من صدره بكلتا يدي، أراد أن يضربني، فلطمته على وجهه، سقط على الأرض، إلا أنه قام بسرعة وركض نحو زهرية موضوعة قرب باب حجرته وتناولها بيديه كلتيهما وأراد أن يهوي بها على رأسي، إلا أني انحرفت شمالاً وتبعته، وحين واجهته ضربني على صدري فسقطت على الأرض، وقمت بخفة نحوه مثل مجنون، دفعته على الباب وخنقته أول الأمر، ثم ضربته بركبتي على بطنه فسقط على الأرض، وتكومت فوقه، غرزت أظافري في خده،

مكتبة الفكر الجديد

بينما وضع يده على وجهي وعنقي، فأزحت يده ولطمته على أنفه برأسي وجعلت الدم يسيل، كنا مثل حيوانين بدائيين الواحد يريد أن يقتل الآخر، وحين صعدت ريزان وأخذت تصرخ وتقول له:

«غادر الأوتيل... بعد ما أريدك هنا».

تشجعت ودخلت إلى حجرتي، أخذت قضيباً حديدياً من السرير، وقبل أن أهجم عليه صرخت فريدة بوجهي، وأخذت تتوسلني أن أتركه، بينما هو أخذ يبكي ويضرب يده على الأرض:

«فريـدة تـخـونـيـني مع هـذا البـغـدادي... آني تيمور... بيش هو أحسن مني».

(٤٨)

هبطت ريزان السلم، ودخلت فريدة مع تيمور في حجرته وهما يبكيـان، كـان الـدم على البـلاط أحمر قاتماً، فدخلت حجرتي وأنـا ألهـث.

استرحت على السرير استراحة طويلة، إلا أني لم أستطع النوم، وكـان صـوت تـيـمور وفريدة يأتيني عبر الجدار ضعيفين، وفي اللحظات التي يصمتان فيها، أتخيل فريدة وقد استسلمت لتيمور كما استسلمت لي قبل ساعة، كنت أفكر بالقاشا، لم أستطع أن أزيح خيال القاشا بثوبه الفضفاض وطاقيته على رأسه وهو يسخر مني حين أصبحت مثل حيوان أريد سحق تيمور من أجل لحظة ساخنة مع فريدة، كان خياله يرتسم على السقف وهو يضحك ضحكة ساخرة ويقول:

مكتبة الفكر الجديد

«حيوانات... مو قلتلك... حيوانات... تتحولون حيوانات... غيرة وحسد وشهوات وقتل إن اقتضى الأمر... حيوانات... الغابة مكانكم مو المدينة...».

في الواقع حين كلمتني ريزان عن امرأة تخدمني وتكون عشيقتي لم تكن لدي أي رغبة بالشطر الثاني من الطلب، بل رفضت رفضاً قاطعاً، ولكنها حين تكلمت بشكل معقول عن تنظيف الحجرة وغسل ملابسي وافقت، وكنت واثقاً من أني سأتعالى على القذارة والدعارة والابتذال، لأنها كانت فكرة لا تجسيداً، ولكن حين تجسدت هذه الفكرة، وتحولت إلى امرأة مثل فريدة، امرأة تمتلك كل هذه الحساسية والإغراء، وتجلس على سريرك وتقول لك أنا لك بكل هذا الترف والرخاء فإنك ستكون في امتحان حقيقي، في صدام معذب، لقد شعرت لحظتها بأن الأمر قد تطور بي معها دون أن يكون لي تدخل فيه.

وكل ما في الأمر كنت أتساءل في نفسي كيف يمكنني أن أتعالى على هذا النزاع بين الرغبة والفكرة، إن الفكرة مهما كانت بلاغتها ومهما كانت تحمل من تنوير لن تستطيع إعاقة رغبة، كيف يمكنني أن أتخيل هذا الصدر الأبيض النابض، وهذه الشفاه القرمزية التي ترتجف، والعيون الشهوانية وهي تومض على سرير دافئ بين يدي، وأنا أقول لها:

«لا، لا فريدة انهضي. أنا أحبك فكرة، وأتعالى عليك وعلى رغبتي».

سخرت من نفسي، ومن القاشا، ومن فريدة، ومن الرغبات، واليوتوبيات، ونهضت من الفراش.

مكتبة الفكر الجديد

كان جسدي يؤلمني، وصوت فريدة يأتيني عبر الجدار ضعيفاً مغمغماً.

سحبت سيجارة من العلبة الموضوعة على الكومدينو وأشعلتها، ووقفت على النافذة، وكنت في داخلي أشعر شعوراً كامناً، بأن فريدة لن يطول بها الأمر مع تيمور:

«يوم... يومين... عشرة وستأتي على سريري».

***

كان الشارع أبيض تضيئه عقود من المصابيح الكهربائية عند البارات التي ينبعث منها ضوء أحمر، ينعكس على الجليد الذي يغطي الأرض برمتها، كانت الثعالب ساهرة بالقرب من الميدان الكبير، بينما كانت عيناي تحلقان في الامتداد الأبيض الشاسع في هذه الليلة الجليدية التي اكتسحت كل المعالم تقريباً، وهنالك بضعة أشخاص يرتدون ملابس ثقيلة وقبعات من جلد الغنم يحملون الفوانيس الألمنيوم التي يرتعش لهيبها في الريح الباردة وهي تنير الوجوه بضوء ساطع، بينما تظل الأجساد أسفل الخصور غائصة في ظلام داكن، وتئز الريح فتنتشر فوق دكة أوتيل السعادة نثاراً من الثلج.

تناولت سيجارة أخرى من العلبة الموضوعة على الطاولة، وبدأت أدخن مستمعاً لنباح الكلاب الذي يأتيني من بعيد، وأصوات الرصاص التي تصفر في الريح عبر الوديان العميقة المحيطة بالمدينة، فأتخيل المهربين عبر المضائق يشعلون المغارات في

مكتبة الفكر الجديد

لحف الجبل، محملين بالسجائر والبضائع والأسلحة المدهونة بالزيت، ويتحمون على النيران في الأودية والهضبات، وهنالك قطعان من الحيوانات التي يفزعها الضجيج تتراكض بصوتها المدوي في أعماق الليل البهيم.

عدت إلى السرير ثانية، ونمت.

(٤٩)

هبطت من شقتي، بينما كانت شقة تيمور هادئة ساكنة. كانت صالة الاستراحة في الأوتيل مطفأة الأنوار، خالية وباردة، ولم تكن هناك سوى أدوات الحياكة، وكرات الصوف مرميّة على الكرسي الذي كانت تجلس عليه ريزان.

هبطت الدكات الثلاث الكبيرة ونزلت رصيف الشارع، كان الثلج ركاماً هائلاً، بينما كانت الأنوف تبعث بالبخار الساخن فيتلاشى في الهواء البارد الرطب الذي يلسع الوجوه حتى غدت حمراء داكنة، كانت الجرافات بضجيجها تنظف الطرقات وتحمل كتلاً ضخمة من الثلج إلى أمكنة خلف الشوارع الرئيسية، والعمال يمسكون المجارف الصغيرة والرفوش ويزيلون الثلج من أمام المتاجر والملاهي والمحلات والمقاهي والمطاعم، وقد امتلأت الساحات والميادين والحلبات قبالة الدوائر بالباعة المتجولين وأصحاب الخضار والفاكهانية، وضجت المدينة بالقاطنين الذين يحملون العصي كي يتمكنوا من السير في الثلج، بينما كانت السيارات والعربات تنطلق سريعاً في الطرقات التي تم شقها وتنظيفها، وقد امتلأت بالموظفات والسسترات والقرويين، وهنالك أطفال

مكتبة الفكر الجديد

يزعقون ويتصايحون ويرمون بعضهم البعض بقبضات الثلج، بينما كانت الفتيات يصنعن أمام المنازل التماثيل المجمدة ويهدمنها بأقدامهن الصغيرة.

كانت الديكة تصيح أعلى السطوح وقد خدعتها الضجة، ويتزايد الصخب في المنزلقات المتجمدة والبرك الجليدية التي تحيط بها الأشجار وهي تحمل كتلاً من الثلج على أغصانها، ثمة غربان سود تنعق وأطفال يتزحلقون على البرك والمستنقعات المتجمدة، وبعضهم اصطحب معه كلابه التي تركض في صحراء الثلج الممتدة، حيث تذهب بعيداً ثم تعود بعد أن تصل الأرصفة المزدحمة بضجيج الجرارات والمجارف والعمال والمستخدمين والفضوليين والجنود الذين غطست شاحناتهم الكاكية المكشوفة وهم يهمون بإخراجها بوضع الألواح الخشبية والنشارة ويحفرون الأرض أمام العجلات، وهي تنغر في الثلج وتتمايل على الجوانب كأنها تكاد أن تنقلب.

***

سمعت أحد المارة وهو يتحدث إلى سيدة بقربه، يتحدث وهو منشغل بفرك يديه والنفخ على أصابعه المتجمدة:

«طريق تل مطران نظفوه. هاك شوفي السيارات و العربات جاءت من هناك».

فآثرت أن أتناول طعام الغداء قبل أن يأتي الحوذي محمد ليقلني إلى المدينة.

مكتبة الفكر الجديد

عبرت الشارع الذي تم شقه بالجرافات نحو الحوانيت المضاءة في الناحية الثانية من الجادة، ودخلت مطعم «أبو جوني». كان المطعم مزدحماً قليلاً بالضباط وبعض موظفي الحكومة، وطلبت من النادل أن يأتي لي بقليل من الجبن والخبز والزيتون، كان صاحب المطعم قد عرفني فرحب بي كثيراً، وكان بين آونة وأخرى يلتفت نحوي يقول:

«إشلامة إلوخن... دخويت... ابشينا...».

جلست على طاولة مقابلة للواجهة الزجاجية كي آكل، إلا أني كنت فاقداً للشهية، فبعد نزاع الأمس وفقداني لفريدة، واحتقاري لنفسي معاً، دهمتني كآبة من نوع ما، فصحت على النادل وطلبت منه رفع الصحون بعد أن أكلت قليلاً من الجبن وتذوقت الزيتون.. وطلبت منه شاياً ساخناً.

جاء لي بكوب من الشاي، فأخذت أدخن وأنا أنظر من الواجهة الزجاجية للمطعم. فجأة رأيت سيارة شميران (الرولزرايس) وهي تتقدم في الطريق العام المؤدي إلى ميدان الراهبات، ثم اختفت في الشارع المقابل لبازار العطور.

في تلك اللحظة خشيت أن تكون شميران قد سمعت بالخصومة بيني وبين تيمور حول فريدة، نهضت من مكاني وخرجت لأرى مكان اختفاء السيارة، كانت قد انعطفت في شارع يتفرع من ميدان الراهبات ويؤدي إلى شارع النبي دانيال.

دفعت الحساب وخرجت، مررت بميدان الراهبات المزدحم

مكتبة الفكر الجديد

بالباعة وعربات الخضار والفواكه التي تحمل البرتقال المحفوظ بصناديق خشبية مملوءة بالقش، ثم سرت بهدوء متخذاً الطريق الذي يمر بمتجر الأرمني الذي كانت تديره المراهقة، قبالة بازار العطور، وتوقفت قبالة المتجر، وحييت المراهقة الأرمنية:

«كيف حالك؟».

فخرجت مسرعة من مكانها بعد أن استأذنت من الزبون الذي كان يجادلها في الأسعار، فاضطربت وقالت لي «والدي هنا. لا أستطيع الوقوف معك كثيراً، سيشك بنا».

لقد اندهشت بالفعل، شعرت بها وكأنها تريد أن تدخلني في خصومة جديدة، كانت تريد أن توهمني أو توهم نفسها بأننا عاشقان وعلينا التخفي من والدها الذي لا أدري هل سيسحقني لأني أغويت ابنته القاصر، لقد شعرت بالرعب والتقزز معاً، فأنا حتى هذه اللحظة لا أدري ما الذي ستجره علي خصومتي مع تيمور حول فريدة، فبادرتها بسؤال سريع وأنا أتطلع إلى الطريق:

«ما هي البنايات في هذا الشارع؟».

فتحت عينيها الجميلتين، وقالت بسرعة:

«عمن تبحث؟ أنا أدلك عليه» قالتها وهي تتلفت. فقلت لها بصوت خفيض: «لا شيء إطلاقا... أحاول التعرف على المدينة فقط».

«خذني يوم في عربتك... وأنا أدلك على كل شيء هنا... لا تطل،

مكتبة الفكر الجديد

حديثك معي... فوالدي ينظر إلينا». قالت ذلك وهي تنظر خلفها إلى والدها الذي أخذ محلها بعد أن استاء الزبون من تأخرها.

قلت لها: «اليوم لا. لا أظن الحوذي سيأتي».

ثم لوحت لها بيدي وذهبت. فقالت وهي تهمس «ستأتي قريباً... ها... سأنتظرك».

كان الشارع واسعاً وجميلاً وخالياً تماماً من المارة، وقد أزيح الثلج عن أرصفته العريضة، ولم يبق سوى بقايا مسحوقة بالأقدام.

***

سرت نحو المدبغة، كان ذوب الثلوج يقطر من الأشجار الكثيفة المطلة على أسيجة المباني الشاهقة على كلا جانبي الشارع، واجهتني السلخانة ثم مبنى البريد والتلغراف وهناك الأفنان الخضر والفواكه البرتقالية المتوهجة تبعث في الهواء ضوع البرتقال المنعش، وخليطاً من رائحة الجلود المحضرة في المدبغة المجاورة.

وحين سرت قليلاً تبينت سيارة شميران خارجة من «مستشفى القلب الأقدس».

رأتني شميران فأطبقت باب السيارة وجاءت باتجاهي وقد وضعت إيشارباً على رأسها، وغطت رقبتها، وارتدت معطفاً طويلاً وتقدمت مني:

مكتبة الفكر الجديد

«إشلامة... إلوخن... رابي». فقلت لها وكأني تعجبت من وجودها في هذا المكان: «أهلاً شميران. دخويت. ما الذي جاء بك هنا؟ هذه مفاجأة».

في الواقع لم أكن قادراً على إخفاء اضطرابي وتلكئي أمام شميران بالرغم من محاولاتي ذلك بالابتسام والدهشة، فقالت لي: «أنت ماذا تفعل هنا؟ ما الذي جاء بك هنا؟ أكيد تتفرج على المدينة بعد هطول الثلج؟». بطبيعة الأمر كانت شميران تحاول تخفيف الأمر علي وتهوينه، قالت ذلك لتخفف عني اضطرابي وتلجلجي، وما كان لدي تبرير آخر أتعلل به فأخذت جملتها وأخذت أحور بها قليلاً، فنحن في بغداد محرومون من هذه المتعة، متعة سقوط الثلج على المدينة والتنزه في هذا الطقس البارد على الامتداد الأبيض الذي يجتاح كل مكان.

قلت لها: «وأنت... ماذا تفعلين هنا؟».

قالت: «خالي أمين هرب بالأمس من زوجته». قلت لها: «ماذا؟».

في الواقع لم أكن مندهشاً ولا متألماً من هذا الموضوع البائس الذي تحدثت به، إنما كنت في داخلي مسروراً وفرحاً، لأن هذا سيعوقها عن تقصي أمر ليلة البارحة، فقد كنت أشعر بالرعب لئلا تقول لي مثلاً: «لنمر على بازار العطور كي أشتري حنة أو عطراً أو بخوراً» أو لا أدري ما هي نزوات النساء هذه المرة، وبالتالي سنلتقي بتيمور وآثار أظافري على عنقه، وسيشتمني أمامها ويقول لي «اترك فريدة...» فماذا عساي أفعل.

مكتبة الفكر الجديد

لقد أخذت شميران تتحدث إلي وهي متأثرة جداً، عن الليلة المرعبة التي قضتها أمس في القصر، فخالها لا يستطيع التقرب من زوجته، ثم قالت: «تصور جدي لا يريد أن ينام... إنما وقف مع بعض الخدم في الممر يريد أن يتأكد من النتيجة». ابتسمت وعيناها مغرورقتان بالدموع ووضعت منديلها على فمها. فابتسمت لها وقلت: «ها... يريد أن يعرف الزوجة باكر أم لا». قالت لي مباشرة وهي تضربني برفق على يدي:

«لا، يريد أن يعرف فيما إذا كان ابنه قادراً على أن يتمها أم لا». فضحكت أنا، ولكني حين رأيت جدية الموضوع صمتّ.

وأخذنا نسير وهي تتحدث بألم عن هروب العريس ليلة أمس وسقوطه في الأوحال، فتابعه الخفراء والحراس ووجدوه في حالة زرية، وهو «يبكي لا يريد أن يبقى في القصر».

«كيف حاله الآن؟» قلت لها، وأنا أتصنع اهتمامي بالأمر.

«يعاني من ارتعاش في الأطراف وهذيان في الصباح. ولكنه الآن ابشينا مرتاح».

«ربما لأنه يحب إيلين زوما وفرضت عليه امرأة أخرى؟».

«أبداً، قصته قديمة. كان يريد يصير قساً. بس جدي رفض... وصار عنده نوع من الشعور بالانغماس بكل شيء موحل وقذر. كان يقول أنا أريد أتزوج وحدة مو زينة... أوه قصة قديمة عراكه مع جدي وسكره وعربدته... أشياء كثيرة».

مكتبة الفكر الجديد

ثم سرنا باتجاه سيارتها، صعد السائق وتقدم نحونا، فقلت لها: «متى أراك؟ غداً في البيعة... حتماً سنلتقي على الدرس».

«لا... اليوم...» ثم نظرت في عيني وقالت: «غداً ما كو درس لأن الثلج من يهبط يصعب على الأطفال متابعة دروسهم في البيعة... اسمع هل لديك شيء في الليل؟» قلت لها «لا... أبداً ما عندي أي شيء». قالت بشكل واثق: «يمكنك أن تأتيني للقصر». فاندهشت، لم أكن قادراً على تصديق ما قالته، فقلت لها «عفواً، لم أسمع أين؟». قالت بشكل واثق: «قلت لك يمكنني أن أراك في القصر. أنت متكلف كثيراً. تحدثني كأنك اليوم عرفتني». قلت لها:

«وجدّك... وجدك هل يوافق على وجودي معك في القصر؟».

«يمكنك أن تأتي دون علم جدي». قالت هذا الأمر وهي تهز كتفيها ناظرة في عيني مباشرة وحين لاحظت دهشتي واستغرابي استرسلت في الكلام:

«تأتي من السياج المحيط بمؤخرة القصر من جهة البحيرات التي كنا عندها بالأمس... وتدخل من فرجة في سياج الزعرورة ثم تتوقف بعد أن تتبعك الكلاب التي يطلقها جدي في الليل لتحمي القصر من الجهة الخلفية. لا تخش شيئاً. فلن تعضك ما لم تجتز الحديقة... وحين أسمع النباح سأكون عندك خلال دقائق... فجمّد قلبك وتمسّك».

قلت لها: «شميران لا أحب المخاطرة بهذه الطريقة. ستكون

فرصة لجدك لأن يمزقني وبيده العذر. أنا الذي جئت إلى القصر دون علمه، مثل اللصوص».

«أبداً، سأرتب كل شيء. أولاً أوصيك بالمرور بتل مطران من خربة يوسف خوري. ها لا تنس حين تمر بتل مطران: لا تسير في الشارع العام، إنما من خربة يوسف خوري. فهذا المكان لا يمر عليه أحد، ولن يراك أحد». ثم دخلت في سيارتها وانطلقت.

(٥٠)

عدت إلى الأوتيل، كانت ريزان تجلس في صالة الاستراحة، سلمت عليها فاضطربت.

صعدت إلى حجرتي، كان باب حجرة تيمور موارباً، فدخلت إلى شقتي، خلعت ملابسي وتمددت في الفراش، بعد لحظات سمعت صوت فريدة وهي تصرخ في الممر، ثم هبطت السلم، وكان صوت تيمور وراءها وهو يهددها، ثم أخذ يدق باب حجرتي بقوة وهو يصرخ:

(أيها البغدادي، هربت فريدة بسببك. أيها البغدادي افتح الباب. جبان افتح الباب...». كان مخموراً، وأخذ يطرق على الباب بقوة «افتح سأكسر رأسك بهذا الحذاء. افتح...» ثم ركل الباب ركلة قوية وذهب، بينما كان صوته يدوي في الممر، يسب ويشتم.

بعد دقائق فتح باب حجرته وأخذ يدق على باب حجرتي «افتح... افتح...».

مكتبة الفكر الجديد

كنت أعلم أني في ورطة، تيمور لا يمكن التفاهم معه لأنه سكران، وأنا لست مسؤولاً عن شيء وبالتالي فعليّ تجنبه، كان يدق على الباب بقوة، بينما أنا تجاهلته وبعد أن يئس ذهب، وهو مستمر على شتائمه وسبابه «... فريدة... القحبة تخوني مع هذا البغدادي...». رحت في غفوة قصيرة.

* * *

بعد ساعات استيقظت، كان الهدوء يهيمن على الممر، ارتديت ملابسي على عجل وخرجت، كان باب حجرته مقفلاً، فهبطت السلالم إلى صالة الاستراحة، كانت ريزان تفرك بيديها وحين رأتني قالت:

«هذا المخبول فضحنا».

خرجت من الأوتيل مندفعاً بقوة، كان البرد قد اشتد، وهناك هبات هوائية تنثر الثلج على الوجوه، أخذت الطريق المؤدي إلى ميدان الراهبات، ومن بعيد رأيت ضجة أمام ملهى الطاحونة، وكان تيمور يتخاصم مع أحد عمال الملهى ويصرخ بأعلى صوته:

«أريد فريدة، هذا مو شغلك، أقول لك أريد فريدة». كان مثل ثور هائج، يرعد ويزبد ويشتم، بينما كان عامل الملهى يهدده، ويحاول أن يرده إلى الأوتيل دون أن يفلح.

انعطفت بسرعة نحو ميدان الراهبات كي لا يراني ويتبعني، فلو رآني هذا المخمور لما تركني أمر بسلام، وسيجد من وجودي

مكتبة الفكر الجديد

فرصة ليتمسك بي أو فرصة لإعادة الخصومة والعراك، حول شيء لم أكن أدرك كنهه على الإطلاق، فكان الخطأ ربما ليس خطأه ولا خطئي إنما خطأ ريزان، فهي تعرف مقدار حبه لفريدة ومع هذا وجدت فيّ وسيلة للكسب بدلاً من تيمور وهي لا تدري بأني لا أملك شيئاً.

كنت أسير إلى ميدان الراهبات للذهاب إلى تل مطران لملاقاة شميران، دون أن تكون في ذهني أية فكرة عن طبيعة اللقاء الذي سيكون معها، ولا سيما أني مرتعب جداً من هذا اللقاء، كنت خائفاً من جدها، وكنت أعد هذا الأمر مخاطرة، ولكن الأمر كان يسير حثيثاً دون أن تكون لي قدرة على رد الأشياء أو اختيارها.

***

صعدت سيارة شوفرليه متوجهة إلى تل مطران، من خلال الطريق الذي يمر على البيعة، وصعد معي ثلاثة أشخاص آخرين، انطلقت السيارة بنا سريعة، كانت الشوارع مفتوحة للسير، وفي الليل كانت منازل القرويين الواطئة السقوف معتمة على طول الطريق الممتد إلى المدينة، وقد غطتها الثلوج تماماً، وسدت أبوابها الخشبية الكتل المتراكمة على العتبات المرتفعة، وبين مكان وآخر كنا نرى بعض القاطنين وهم يقومون بفتحها بالمجارف والمعاول وكانوا يحاولون إزاحة الثلوج التي تراكمت فوق الاصطبلات والزرائب، وفي بعض الأحيان كنا نرى بعض الخفراء وهم يشعلون النيران قرب نقاط الحراسة فتتصاعد ألسنة اللهب في صحراء الثلج على طريق البرية الذي تحول إلى مساحات شاسعة بيض ممتدة ما عدا المرتفعات المختفية قليلاً.

كان الركاب يتحدثون مع السائق بالسريانية ويغطُون بالضحك والمزاح، بينما أدرت وجهي نحو النافذة وأخذت أنظر إلى الخفافيش وهي تطير شائهة ومتقاطعة بطيرانها الدائر الملتوي، أنظر إلى الغربان التي تنعق فوق السرو والعفص والصنوبر، وحين تطير يتناثر من أوراقها الوفر، وهناك بضعة كلاب قادمة من بعيد تستقبل السيارة وتنبح عليها ثم تعود تاركة آثار أقدامها داكنة وسط البياض الهش، وفي الطريق هبط اثنان من الركاب الذين صعدوا معي سيارة الشوفرليه، فالتفت السائق نحوي وبدأ يسألني:

«من أين حضرتك... من بغداد؟»

«وماذا تعمل هنا؟» وعلى طبيعة القرويين يريد معرفة كل شيء، إلا أني طلبت منه الصمت، وتعللت بإصابتي بالأنفلونزا.

«أوديك للمستشفى أستاذ؟». شكرته على فضوله، وقبل الوصول إلى البيعة طلبت منه أن ينزلني، فأعطيته الأجرة وهبطت، بينما استمرت السيارة في المسيرة إلى تل مطران.

* * *

ما أن هبطت وسرت في الطريق المؤدي إلى منزل يوسف خوري، انحرفت قليلاً لكي أتحاشى رؤيته.

دلفت من الزاوية القصية لكي أتحاشى بيته الخرب، وسرت في الظلام بعد أن أخفيت جزءاً من وجهي في ياقة معطفي. أحنيت ظهري قليلاً وسرت بسرعة.

مكتبة الفكر الجديد

كان قلبي يدق بقوة، ويداي ترتجفان، وكنت أتصور أني تجاوزت الخطر، تجاوزت الخربة التي من الممكن أن يراني منها يوسف خوري، ودلفت في عطفة الشارع المؤدي مباشرة إلى البيعة، ولكنني وفي الزاوية تماماً التي دلفت منها صار يوسف خوري أمامي وجهاً لوجه، وقال:

«ها رابي، أنت هنا ولا تمر علينا؟».

فارتعبت، وأخذت أتمتم دون أن أعرف ما أقوله، كان الجو بارداً، والظلام حالكاً، وعيناه البراقتان تشبهان عيون الشياطين، وهي تومض بصورة بطيئة.

«أوصتني بك خنتا شميران، أنا انتظرك... كانت عندي هذا اليوم... قالت أنت ستأتي هنا وأمرتني أن أستقبلك في بيتي ساعة ثم أدلك على الطريق الذي ستتخذه إلى القصر. تعال معي رابي، لا تخف، تعال معي». فسرت وراءه.

في الواقع حين ذكر لي بأنه عرفني من خلال شميران جعلني أطمئن له بعض الشيء، وجعلني هذا الأمر أسير وراءه إلى منزله، ومع ذلك كنت مرتعباً من طريقته في استقبالي.

وصلنا إلى منزله، كانت هناك قططه السود بعيونهن الخضر البراقة الحادة وأذنابهن المهتزة يميناً وشمالاً في المقدمة، دخلت الباحة الأمامية بسرعة، وقبل أن أصل الباب المواجه للباحة نظرت إلى كسر الحجر والقرميد، كانت ركاماً عجيباً، يشبه مقبرة للآثار.

مكتبة الفكر الجديد

أدخلني إلى المنزل، وهو يبتسم، فأراعني مشهد الحجرة المكتظة بأشيائه وأدواته العجيبة: المبارد والمطارق والسكاكين، وعلب الزعفران وتفاح الجان، وبعض الأشياء المعروفة باستخدامها في السحر، كما أراعتني قذارة المكان الذي ينام عليه يوسف خوري، كان هنالك سرير من المعدن البسيط عليه غطاء من شعر الماعز، نسلت خيوطه بشكل متعمد، وهنالك منضدة للزينة وقد تبعثرت عليها أدوات وآلات حياكة مهشمة، وهنالك خوان توت فيه أقلام قذرة، وساعة نصف صدئة تحمل ختماً غريباً، ومنضدة مصنوعة من خشب الصاج فارغة وقد تقشر طلاؤها، وإلى جانبها مقعدان من الخيزران، بينما خلت الجدران من الرسوم والتماثيل الدينية كما في قصر المختار، أو في منزل القاشا، إنما كان هنالك مخطط للأبراج، ورقاع من الجلد مكتوب بالسريانية وتظهر من بين تشكلاته وجوه غريبة.

أجلسني يوسف خوري على مقعد من الخيزران قبالة المنضدة المصنوعة من الصاج، فكنت لا أنظر إليه مباشرة إنما أنظر إليه وأتحدث معه من خلال مرآة الخوان، وقد جلس خلفي مباشرة بعينيه البراقتين، وتقاطيعه الدقيقة المرسومة على وجهه الوسيم، وصدره الأحمر الذي يظهر بين فتحة في قميصه الأسود اللماع الطويل الأكمام.

أخذ يتحدث لي بهدوء وبصوت غريب قادم من مكان بعيد، كأنه قادم من مقبرة، عن السحر الكلداني أول الأمر، وكيف كان هذا السحر يقوم مقام العلم بالنسبة للمجتمعات الحديثة، ثم تحدث لي عن نفسه، عن حبه لإيلين زوما، لخيانتها له، ولهربه إلى منطقة الشيخان، كان يتحدث عن العلاقة بين خيانة النساء وبين السحر

الذي يقوم على ترويضهن، وعن استخدامهن للسحر لترويض الآخرين، كان يريد أن يقول لي عن نفسه بأنه لا يستخدم هذا السحر بصورة مجانية، إنما يستخدمه بمهارة وعقل وهو يدرك أهدافه وغاياته.

«المرأة هي هدفي.. واستخدام السحر للمرأة إذا كان الرجل هو المستهدف». الغريب أنه كان يظن أن المرأة في إغوائها للرجل هي المغوية.

ثم تحدث لي عن المرأة الموهوبة، المرأة الحساسة، والتي يرقد الشر في أعماقها، وحرك خرزة الجشتلت على صدره:

«المرأة تلعب... وليس هنالك من لعب شريف خال من أي هدف أو طموح» ومن هنا يستنتج أن الهدف يبرر اللعبة برمتها، ويمنحها شرعيتها، فالهدف لا معنى له، الهدف هو إلحاق الهزيمة بالآخرين، وهذا ما يبرر سلوكنا وأحلامنا، فكل جريمة مؤسسة على رغبة، والرغبات لا يمكن كبحها، والحب هو مرتكز الشر، وليست هنالك من جريمة تخلو من امرأة:

«أنت ترتعب الآن لأنك تسمع جريمة وشراً، وهي ألفاظ ترتبط بذهنك بالرذائل... ولكن لو استبدلناها لك لأصبحت حلوة رابي».

«كيف تستبدلها، يوسف؟» قلت له وأنا أنظر نحوه باشمئزاز.

«ماذا تقول لو جعلتك تضاجع شميران... لا ترتعب لهذه الفكرة أليس كذلك؟. ولكن المضاجعة جريمة، ألا تقول الأديان ذلك؟».

في الواقع لم يكن ليوسف خوري المنطق الذي كان للقاشا، أو المحاججة التي تملكها شميران، ولا البساطة التي يملكها تيمور، ولا السذاجة التي تملكها ريزان أو فريدة، إنما كان من بين الذين عرفتهم في تل مطران، الأكثر بدائية وغباء ورعونة، كان يريد أن يقول أشياء فيقول غيرها، وفي الوقت الذي يلمح به لشيء كان ينحدر على صوب آخر، وفي لحظات يقول فكرة ممتازة إلا أنه يفسدها بحشر نفسه وقصته مع إيلين زوما وخيانتها له مع أخيه بصورة مبررة أم لا، كان يريد أن يقنعك على الدوام بأنه لا يؤمن على الإطلاق بشيء سوى أنه يريد الانتقام من إيلين زوما، وسواس يسيطر عليه ويرافقه بصورة مفجعة، لذلك كانت أفكاره تضيع وسط هذه الرطانات التي تعلمها من السحر في الشيخان، ومع ذلك تمكنت من إدراك ما يريد قوله بصورة أكثر وضوحاً.

كان يخيل إلي إنه يريد أن يقول إن الفضيلة هي شكل نفرضه على العالم، وإننا نستجيب إلى الأشياء بمقدار ما تجد لها مكاناً في هذا الشكل أو ذاك، لماذا لا نستجيب إذن لطبيعتنا الكلية لنعانق كل شيء، شراً كان أم خيراً، أم سائر التسميات الأخرى، دون أن ندع حواسنا تتبلد؟ لقد كانت مهمته هي أن يجعل العالم كله يستمتع بما منحه الله من هبات في الشهوة والحس، وكل شيء. كان يريد أن يقول إن للرجل شهوات وقوى حرة فوق الخير والشر، ما وراء الخير والشر، وإرادة بلا معوقات، فعليه أن يحول نفسه إلى دبوس تتجمع حوله كل المبهجات. كان يريد أن يجعل من الحياة إحساساً متحققاً بكل تدفقاتها وتضاعيفها، وكل امرأة تهب نفسها لرجل فهي مخلوق صغير في تكوينها البدني والروحي ولكنها تحوي من الشر ما لا يحمله حشد من الرجال، وعلى الرجل أن ينغمس في جسدها فقط كي يسيطر على روحها لأن في داخلها رغبات ولا بد

مكتبة الفكر الجديد

أن تبرر هذه الرغبات بمختلف الشرور، فالجسد بالنسبة لها معبود ولا يكون للحظة واحدة مصدراً للملل أو النفور.

انتبه لي لحظة وقال:

«عليك أن تكون محترفاً مع المرأة. عليك أن تجرها من شعرها. تصفعها. تعضها، وتقبلها بعد أن تمسح الأرض بها وتركلها لتسقط ومن ثم تتهالك وتقبل أقدامك...».

ثم ضحك بقوة في أذني وأنا أنظر نحوه في المرآة وقال: «تيمور تعرفه. جاءني يحب فريدة، تعرفها. فقلت له اضربها. اضربها، ستخر طائعة... وبعد أن ضربها خرت طائعة. كل امرأة قحبة. ما الفرق بين الشريفة والقحبة؟ كل امرأة قحبة. الشريفة والقحبة من تنكحها تقبل أقدامك. كل شريفة قحبة». وأخذ يضحك ولعابه يسيل على حنكه حتى نزل على صدره.

وأخذ يتحدث بفخر عن مكانته في المدينة بين النساء والرجال: «كلهم يحتقرني، أعرف ذلك، الكل يشتمني هنا ويقول عني سحار... ولكنهم سيأتون عندي لأنهم بحاجة لي. الناس كذابون. يقولون عن السحر أشياء فظيعة، ولكن ما أن يحب أحدهم ويعجز عن الوصول إلى هدفه حتى يأتيني ويقبل أقدامي ويطلب مني الوسيلة. سيضعف إيمانه بكل شيء ويبقى إيمان واحد: إيمان بالأشياء التي يشتمها... السحر ضروري، من يعجز يحس بأهميته».

ثم أخذ يضحك ويعرض علي اختراعاته ومهازله، حتى شعرت بالقرف والتقزز منه، ثم انعطف للحديث عن شميران وكيف كانت

مكتبة الفكر الجديد

تحتقره هي وجدّها، وكيف أصبحت مع القاشا خوشابا ضده، وكيف كانا يحرضان الناس في البيعة للنيل منه، ثم قال:

«ولكن خنتا شميران جاءتني في اليوم اللي وصلت بيه أنت للمدينة وقالت لي هي تريدك... تريدك بالسحر بالقوة بأي ثمن. تريدك. ما تقدر تستغني عني... كلهم في يوم يجون عندي. حتى أنت... من تعجز عن فعل شيء تجي عندي».

كان يبسم لي ابتسامة خبيثة، ثم قام من مكانه، وأخذ يضحك ضحكاً مدوياً.

قلت له: «إنك تقرفني يوسف».

قال لي «أنت كذلك تقرفني. أنت من النوع الذي يقرفني، ولكنك تكابر. سيأتي اليوم الذي تقبّل فيه حذائي من أجل شميران. شميران تحبك اليوم وحين تنام معها... ستحبك أكثر ويوم بعد يوم ستغلي شرورها حتى تقتلك».

فنهضت من مكاني، فاضطرب قليلاً وقال لي «أوقف شوية... عندي خبزة أريدك تأكلها».

وناولني كسرة من الخبز ممسوحة بدم يابس، فقلت له «ما هذه؟».

قال: «هذه كسرة خبز من بيت المختار وممسوحة بدم من حيض شميران، أنا طلبتها منها يوم وصولك لتل مطران إذا أكلتها لن تقتلك شميران وإذا لم تأكلها ستقتلك. أنا طبعاً لم أقل لها ما هو

مكتبة الفكر الجديد

مفعولها، كنت طلبتها منها وحسب، ولكني على الدوام أعمل لصالح الرجال».

كنت هزأت منه بكبرياء، هزأت منه ولكني في داخلي – وأعترف بذلك على الرغم من احتقاري وكرهي الفظيعين اللذين وجهتهما إليه – كنت شعرت بالاهتزاز، مهما تكن قوتك وقدرتك وثباتك سيكون لديك أمام الأشياء الخفية نوع من الرهان الباسكالي، دوماً ستقول: ولكن ماذا لو كان هذا الأمر صحيحاً.

قلت له «أنت تريد أن تختبر قوتي... وتريد أن تعرف فيما إذا كنت سأشمئز من الدم على الخبز ولكن هات، سأثبت لك أني قادر على فعل ذلك». وتناولتها من يده وقضمتها سريعاً وابتلعتها. فضحك مني وهو يهز كتفيه، ويعلن عن فرحه وسعادته، وهو ينغم الكلام ويترنح: «مهما يكن تبريرك أشعر بأني أقنعتك بشخصي وبقوة السحر التي أملكها».

ثم أخذ يضحك ضحكاً داعراً وبحركات مريعة لم يكن بمستطاعي النظر إليها لفرط قذارتها واستهتارها، إلا أنه أدرك تأثيرها السيىء علي فرفع وجهه بيديه وغيّر من نبرته. وأخذت أنظر إليه وهو يبتسم لي من طرف فمه المفتوح، ثم أخذ يسير في الحجرة بصورة متبخترة، وهو يقلب فناجين وحصى ملوناً وأمواساً موضوعة بجراب أزرق ملقى فوق الخوان، ثم أخرج حصاة صغيرة، وورقة مخططة خطوطاً حمراً دقيقة، أخذ يمسح عليها بيده بعد أن طبع عليها بقطعة مغموسة بالحبر الموضوع في دواة صغيرة جنب الجراب الأزرق، وأخذ يبحث في الجوارير واحداً بعد آخر، يفتحها ويغلقها كمن يبحث عن شيء ضاع، ثم اهتدى في الجرار العلوي إلى قطعة سوداء وقليل من

مكتبة الفكر الجديد

السخام، وشيء من الحنة، ومادة قريبة من السماق المخلوط بالملح، وصحن صغير فارغ ملأه بالماء من الزجاجة الموضوعة على الطاولة، وبدأ بخلط الأشياء شيئاً فشيئاً حتى حصل على لون غريب.

لقد تغير لونه وهو ينظر بهدوء إلى ما صنعه، سحب كرسيه أمامي، وأخذ يتمتم ويقرأ في الصحن، ثم بدأ يقرأ في الورقة التي كانت فارغة، واحمرت عيناه وجحظتا بصورة مروعة، وأصبحت شفتاه مزرقتين تتمتمان وترتجفان.

حدق بي بصورة مفزعة جمّدت قلبي، ثم أحسست بأنه أوشك على التوقف، ثم وقف منتصباً على قدميه وقد أبرز صدره الأحمر المسلوخ من قميصه الأسود المفتوح، وبعينيه الخضراوين اللتين تسطعان بقوة ومن غير أن يرمش، تمتم بصوت خفيض، نهض من مكانه، وقال:

«لقد أتممت عليك سحري».

ابتسمت له، وهذا ما لم يكن يتوقعه مني.

في الواقع لو بقي يوسف خوري مجهولاً بالنسبة لي، لكان أكثر معقولية ورعباً من الآن، ولكني بعد أن رأيته لم أر فيه غير دجال من الدجالين، وعجبت كيف يمكن لشميران أن تثق بهذا الأحمق، وعزائي الوحيد هو أننا يمكننا أن نجد أشخاصاً يشبهوننا في كل شيء يعيشون في نظام ديني وأخلاقي متجانس آخر، ولكنهم يرون أشياء لا يمكننا أن نراها ولا يمكن أن يراها شخص آخر من نظام ديني واجتماعي آخر.

مكتبة الفكر الجديد

صفقت الباب ورائي وخرجت، وكنت عازماً بكل قوة أن أزور شميران في منزلها لا لأنه قد نفذ سحره علي، لا على الإطلاق، إنما لأنها هي التي دعتني إلى ذلك.

(٥١)

كانت نوافذ القصر وشرفاته مطفأة، ولم أر غير أنوار ليمونية تنبعث من جواسق الحراس ومظلات الخفراء قبالة البوابة الحديدية الضخمة، وكنت أسمع من بعيد أحاديث خفيضة، ونباح كلاب من بعيد قادمة من حدائق القصر خلف الأسيجة العالية المشيدة من الحجر الأبيض.

تراجعت إلى الوراء، ثم استدرت خلف القصر. كانت أشجار الزعرور تحيط بالسياج، وهنالك أحراش متشابكة وأوتاد صغيرة مدفونة لتعيق من يجتازها، وبعد كل مسافة كنت أهوي في حفرة مملوءة بالماء المتجمد والوحول اللزجة، ثم تقدمت حتى أصبحت أمام الفرجة الصغيرة التي ذكرتها لي شميران، وأصبحت وجهاً لوجه أمام شق صغير يسمح بمرور شخص واحد نتيجة لتهدمٍ حديث في أحجار الجدار، وقد بقيت كسره وحطام أحجاره مغروسة للنصف في الثلج، وحين دخلت من الشق الصغير أخذ نباح الكلاب يتعالى، وبعد برهة جاءتني كلاب مسعورة من كل ناحية، من الحظائر الواطئة السقوف، من الجواسق الخشبية للخفراء والحراس، من جهة البحيرات، واندفعت نحوي بقوة، حتى طوقتني.

كان نباحها مدوياً مزمجراً، وهي تحيط بي مثل دائرة، بينما كنت ألتصق بجذع شجرة من الخوف والرعب. كانت الكلاب تتلاحم

وتتقابل وتقترب مني وهي تصر على أسنانها الطويلة المكشوفة من جانب فمها، كانت رؤوسها مرفوعة إلى الأعلى، وآذانها منتصبة مدببة، وشعرها يقف على امتداد الظهر، وهي تهز بأذناب متصلبة، وهنالك كلب يتقدم مني بصمت ويهيئ نفسه للهجوم، فيضع رأسه أسفل بمستوى الظهر، بينما كان يتحدر نحوي كلب آخر مطأطئ الرأس، وقد لامس بطنه الأرض، وآخر يتدحرج على ظهره وجانبيه وهو يصدر صوتاً مزمجراً مدوياً مرعباً.

كدت أموت من الخوف، كاد نَفسي يتوقف من اللهاث، ويداي ترتجفان، وتكاد قدماي لا تحملاني من الارتجاف، وأخذت تعصف بي سورات من الجنون والهذيان، كلما تقدمت الكلاب مني.

***

جاءت شميران تهرول نحوي قادمة من الجهة الأمامية من القصر، وبعد أن اقتربت من الكلاب أخذت تهشها بعصا مذهبة تمسك بمقبضها، وهي تصلك أسنانها، فهربت الكلاب المتوثبة وهي تهز ذيولها وتلهث زافرة من مناخرها وأفواهها المفتوحة التي تتدلى منها ألسنتها الحمر، البخارَ المتكاثف في الهواء البارد.

كانت شميران تمسك بيدها اليسرى عباءتها الزرقاء المخملية المذهبة الحواشي والمطرزة الأطراف بتطريز لامع بارز، ثم سحبتني من يدي بقوة وهي تقول:

«بسرعة.. بسرعة قبل أن يتجمع الحراس».

مكتبة الفكر الجديد

ركضت معها، حتى بلغنا سلَّماً حجرياً ذا درجات عالية تقود إلى الطابق العلوي مباشرة، بعد أن عبرنا حديقة صغيرة غطاها الثلج، وغرست فيها بضع أشجار ذات إبر مدببة، وما أن تسلقناها بسرعة حتى أصبحنا بمواجهة حجرة صغيرة معتمة فتحتها شميران بالمفتاح وأدخلتني.

أجلستني على كرسي ذي مساند وسط العتمة، وقالت بصوت خفيض:

«لا تشعل المصابيح إطلاقاً.. لا تتحرك».

بعد دقائق قليلة كانت جماعة الحراس قد بلغت المكان، فنهضنا أنا وشميران وأخذنا ننظر من النافذة. كان الحراس يرتدون القلنسوات الصوفية، والقفازات، ويحملون مصابيح صغيرة تعمل بالبطاريات، ويعلقون على أكتافهم البنادق والغدارات ويقودون كلاباً سلوقية مربوطة بسيور جلدية يلفونها على أيديهم، وهي تنبح وتزمجر، ويدورون بها حول الموقع الذي حاصرتني الكلاب فيه، شمّت الكلاب وأخذت تلهث ثم سحبت بعنف السيور الجلدية الملفوفة بأيدي الحراس عازمة على الانفلات، وهي تنبح، قاصدة السلّم الحجري الذي يقود إلينا في العلية.

اضطربت وأنا أتطلع من الشرفة، وقد سمحت أوراق الأشجار الإبرية بمراقبة المشهد، فالتفتت شميران إلي وهي تحدق بعيني مباشرة، قالت:

«لا تخف، سأهبط إليهم وأسوي الأمور بنفسي».

مكتبة الفكر الجديد

كنت أتطلع وسط العتمة، إلى مشهد الحراس وقد خلعوا بنادقهم وغداراتهم من على أكتافهم لفحصها وهم يشيرون إلى السلم ويوزعون المهمات بينهم، فمنهم من انتشر عند السياج، ومنهم من ذهب باتجاه الطريق المؤدي إلى الجواسق والحظائر، ومنهم من بقي برفقه الكلاب لصعود السلم الحجري نحوي، وما أن همّوا بالتسلق، هبطت شميران إلى الفسحة التي تفصل بين السلم الحجري والحديقة المغطاة بالثلج، وقد تطرزت بآثار أقدام الكلاب، وأقدامنا أنا وشميران، وأقدام الحراس.

كانوا يهمون بتسلق السلم، وقد تقدموا بالمصابيح الصغيرة التي يشعلونها بشكل متقطع، وكانت كلابهم المسعورة تسحب سيورها المربوطة بأيديهم بقوة، فتزايد صياحهم وسبابهم وانفعالهم، بينما تخلفت منهم مجموعة انتشرت بالقرب من الفسحة الصغيرة المبلطة بمحاذاة السلم وقد صوبوا فوهات بنادقهم المدهونة باتجاه الصحن، ونحو نوافذ العلية، ونحو السياج، وكانت هنالك مجموعة أخرى كانت تحمي ظهور من يصعدون السلم.

صاحت شميران بقائدهم الذي يمسك بالمصباح الكبير الذي ظل متوهجاً بيده ليكشف في الزوايا والمنعرجات ويوزع التعليمات والبخار يتصعّد من فمه وأنفه:

«أنا التي كنت هناك... خذ كلابك وارحل حالاً».

لقد كان الموقف واضحاً إذ إن الكلاب وهي تشم الآثار وتلهث نبحت أول الأمر على شميران غير أنها عرفتها، وهمت باجتيازها وهي تسحب السيور الجلدية وتدق بأعناقها إلى الأرض، كانت

تهز بذيولها يميناً وشمالاً عازمة على الانفلات وتسلق السلم الحجري، غير أن رئيس الحراس قال بلهجة مرتابة:

«ولكن ختنتا شميران... الكلاب لا تقصدك الآن إنما تقصد شخصاً آخر من دون شكل في العلية» فنهرته شميران صارخة بصوت حاد وعال:

«أقول لك لا شأن لك. خذ كلابك واذهب... وإلا سأطردك من القصر».

أخذت الكلاب تضرب بقدميها وتدفع بالحراس، إلا أن كبيرهم قال لشميران:

«أمرك ختنتا.. أمرك ختنتا».

سحب الحراس أنفسهم وهم يجرون وراءهم كلابهم التي أخذت تزمجر وتنبح وتهز ذيولها المعقوفة يميناً وشمالاً، وابتعدوا شيئاً فشيئاً حتى وصلوا إلى جواسقهم فخفتت الضجة، ثم أخذ صوت النباح يضعف بعد أن وصلت الكلاب إلى حظائرها، وكانت تتحرك باتجاهات مختلفة كما يدل على ذلك تغير اتجاهات مصدر قدوم الصوت.

***

التفتت شميران نحوي وقالت:

«هيا... بسرعة».

مكتبة الفكر الجديد

فنهضت من على الكرسي وتبعتها، هبطنا عن السلم الحجري إلى الفسحة الكائنة في الحديقة، واتجهنا صوب مقصورة خشبية تقع بالقرب من الاصطبل الحجري المسقوف بالأعمدة الخشبية، وكانت هنالك حظيرة الخنازير الواطئة السقف والمبنية بالآجر، والمطلة على الفناء المبلط ببلاطات صفر وبنية.

كانت شميران تمسكني بيد، وباليد الأخرى كانت تلف وجهها بعباءتها الزرقاء، فتبعتها بحذر حتى وصلنا إلى جدار مشيد من القرميد الأحمر الناعم يحيط بأحواض صغيرة غرست بها بعض أشجار الجوري، والتي يسمح تفرق أغصانها بالتخفي والمراقبة معاً.

أخذنا نتفحص المكان، كانت هنالك حديقة مربعة تطل عليها مقصورة خشبية صغيرة، فانسلت شميران بهدوء واتجهت نحوها وهي تتلفت يميناً وشمالاً، ثم طرقت بابها طرقات خفيفة، وبعد قليل انفتح بابها الخشبي بهدوء وخرجت منها امرأة في الثلاثين من عمرها ترتدي روب النوم وتضع على رأسها قلنسوة، وشْوشت معها شميران بكلمات سريانية، فدخلت المرأة إلى المقصورة بضع دقائق، ثم خرجت وهي تحمل كومة من المفاتيح، اجتازت الحديقة المربعة وشميران تتبعها وصعدتا سلماً يقود إلى الأعلى، وبعد أن فتحت الباب هبطت المرأة بسرعة وعادت إلى مقصورتها، بينما تقدمت شميران نحوي وأخذتني من يدي لنصعد السلم، وحين التفتّ إلى المقصورة، كانت المرأة تنظر نحوي، وبهدوء أغلقت الباب.

* * *

دخلنا صالة فخمة فأنارت شميران المصابيح، هنالك رواق طويل

عالي السقف مقطع بالخشب الصاج والمرايا، وكان الحائط مطلياً بألوان زهرية، الأرضية مفروشة بالسجاد الأحمر، وثمة زهريات كبيرة تحمل أنواعاً من النباتات الظلية، وفي الوسط نافورة صغيرة ينبثق منها رشاش من الماء وتبعث بالشعاع مع الرذاذ الذي يهبط في الحوض بصورة عمودية.

قادتني شميران إلى حجرة صغيرة للنوم، وسطها سرير عريض مغطى بالساتان الأبيض، تنبعث منه رائحة طيبة.

كانت الستائر، الشراشف، طلاء الجدران، وردية فاتحة، وحتى السجاد كان وردياً مثل النبيذ. شعرت بالدفء والترف ينبعثان من كل مكان، فخلعت معطفي وقفازاتي ورميتها على منضدة بيضاء صغيرة. كنت مندهشاً من الفضاء الحالم وهذه الروائح الطيبة وهذا الثراء الذي يغطي كل شيء، وخلعت كنزتي ورميتها على السرير، فابتسمت شميران وحملت قفازاتي ومعطفي وكنزتي وخرجت لتعلقها على الحمالة عند الباب ثم عادت مسرعة نحوي، أما أنا فجلست على السرير وتقدمت هي نحوي.

وقفت أمامي وتنهدت تنهدات ساخنة، وراحت يدها المحلاة بالخواتم الألماس تتحرك على وجهي، فاستشعرت حرارة جلدها الناعم والدفء في حنايا ثوبها الشفاف الملتصق بجسدها الأبيض، كانت عيناها تلتمعان رغبة وشفتاها ترتجفان، فقادتني من يدي إلى الحمام، كان باب الحمام مذهباً ومصراعاه مطعمين بالعاج والفضة، وقد بلط داخله ببلاطات مربعة صقيلة تكمل بعضها برسوم طواويس خضر وزرق شفافة، وكان مضاء بمصابيح كبيرة، فقد عكست البلاطات الصقيلة الأنوار إلى الداخل بقوة، فكانت

مكتبة الفكر الجديد

الصنابير الكبيرة المذهبة والأنابيب الكرومية المدهونة والقواطع والحمالات المعالجة بالنيكل والنحاس والكلابات البلاستيكية تأتلق بألوانها الفاتحة، بينما كانت المغاطس البورسلين والمناشف القطنية بلون واحد.

بدأنا بخلع ملابسنا وأخذنا نعلقها على كلابات ذهبية معلقة على الجدار، تحت الأنوار الساطعة، فبزغت أجسادنا في المرايا عارية. نظرت إلى المرآة، كانت شميران تتقدمني وأنا خلفها: صدرها المدور وقد توثب إلى الأعلى والحلمتان الصغيرتان تبزغان مثل برعمين، استدارة بطنها الناعمة، الشعر الخفيف الذي يغطي عانتها، وساقاها الأملسان وهما ينسابان مثل نهري حليب. كنت أنظر إلى جسدها بطلاقته وإباحيته، حتى احمرت وجنتاها، وارتجفت شفتاها القرمزيتان، طوقتها من الخلف، وحين شعرت بجسدي يلامسها أغمضت عينيها ثم انزلقت وهي تشهق بحركة ناعمة، وانفلتت من ذراعي، وقالت بصوت متهدج «سأفتح صنابير الماء».

كانت تتحرك صورتها عارية على المرايا، تتحرك بسيقانها البيض الطويلة التي تنتهي بورك عريض مقوس باستدارة مغرية مع تكورات عجزها الممتلئ، وأردافها تهتز لدنة مع أفخاذها الربلة مع كل حركة من حركات جسمها الهادئة تحت ظهرها العريض، كنت أرقب منتشياً جسدها الأبيض اللدن في المرآة الطويلة أكثر جسامة وتضخماً وامتلاء وقد انحنت لتفتح صنابير الماء الذهبية في المغطس الأزرق السماوي الكبير، فتفجرت المياه الساخنة وهي تنفخ بخارها الكثيف بقوة في الحوض الذي يتصاعد منه البخار وئيداً ليغطي جسدها الناعم، كانت صورتها في المرآة التي تقابلها خلف المغطس منحنية وهي ترقب الماء الحار بصوته المتفجر من

الصنبور، وقد تهدل شعرها على وجهها، وهبط صدرها وأصبح أكثر استدارة وتجسماً، بينما انتصبت سيقانها ناعمة طويلة في المرآة التي تقابلني وأردافها أكثر بياضاً وفتوة، وظهرها انزلق بنعومة إلى الأمام. كان الحمام بجدرانه المضلعة قد امتلأ بالبخار تماماً، وتضببت المرايا ولم أعد أرى فيها غير شبح بياضها العملاق يتحرك وئيداً أميزه بصعوبة بالغة.

تقدمت نحوها، ومسدت بنعومة على ردفيها وظهرها حتى وصلت يدي إلى عنقها ثم رفعت شعرها وعقدته على يدي، بينما أخذت إناء الشامبو الذي تنبعث منه رائحة الليمون ووضعت قطرات منه في المغطس، سحبتني من يدي التي ترتجف مهتزة بين يديها في فضاء الحمام الضبابي وأنزلتني إلى الماء الساخن المعطر، فانغمر جسدي في الماء ثم أخذت تمسح بيديها الرقيقتين الناعمتين على جسدي برقة متناهية، كانت تمرر أظافرها على جسدي فأشعر بلذة تنفجر في أعماقي ترفعني وتهبط بي، كنت أشهق شهقات متقطعة، فأغمض عيني وأستسلم بهدوء إلى مداعباتها الناعمة، كنت أذوب في الماء الساخن المعطر.

***

وبعد ذلك نهضت شميران وسحبتني من يدي، فنهضت معها يتساقط الماء الساخن من كل جسدي، لفتني بمنشفة كبيرة بلون أبيض فاح من خيوطها عبير فاغم، وأجلستني على كرسي أمام المرآة، بينما بقيت هي عارية، أخذت زجاجة قرنفلية اللون وسكبت على شعري شيئاً من الزيت المعطر، ومشطتني أمام المرآة بمشط من العاج ومقبض من الذهب المطعم بالستاير النجمي،

مكتبة الفكر الجديد

وقادتني وهي عارية إلى السرير. كانت قد استلقت بصمت بعد أن شدت شعرها إلى الوراء، فأخذت أقبلها من عنقها الأبيض المحزز حتى صدرها، كانت تتنهد وتشهق وتصعد للأعلى تحت جسدي وتهبط من اللذة، وحين كنت أمس برقة حلمتيها كانت تصرخ بصوت متهدج، التهمت شفتيها وطوقت جسدها بذراعي، والتحمنا بقوة، كان صدري يلتهم صدرها وبطني يلتهم بطنها وسيقاني تلتحم بسيقانها بقوة، كان جسدها رقيقاً ولم يكن يتحرك منها سوى لسانها الناعم على شفتي وشواربي، وكانت رائحتها مهيجة ونعومتها وطهارتها وعذريتها تثيرني وتهيجني حتى كدت أجن فيها، فأخذت شفاهنا الجائعة تلتهم بعضها بصورة متوحشة، وضاع كلانا في جسد الآخر وذاب، حتى سقطنا في دوامة بيضاء مثل شلال أبيض.

(٥٢)

كنت غفوت جنب شميران قليلاً. فتحت عيني، كانت تنام عارية إلى جانبي وقد مدت يدها ووضعتها على عنقي، وقد وضعت رأسها على صدري.

نهضت من مكاني، وهبطت من السرير، وذهبت إلى الحمام، وحين عدت، كانت شميران ممددة على السرير، كتلة من الأنوثة نائمة، جسداً ذائباً وأملس وقد ردت الغطاء إلى خصرها نصف العاري، وكان صدرها المتوثب مكشوفاً، بينما كانت تفوح من إبطها الحليق رائحة طيبة، كان جلدها عند عنقها وإبطيها ونهديها مبللاً بالعرق الخفيف وقد عقدت شعرها إلى الوراء، وحلمتاها ورديتين نابضتين بقوة بينما كنت أرى إلى جانبها بعض قطرات من دم عذريتها على الشرشف الأبيض.

مكتبة الفكر الجديد

وحين تقدمت من الخوان وجدت صورة صغيرة وقديمة ببراويز مذهبة، فاندهشت.. كانت الصورة تشبهني إلى حد بعيد، شاب بشوارب وشعر ممشط إلى الوراء يرتدي بذلة كحلية وفي يده غليون. فنظرت إلى شميران.. وكانت تتململ على السرير سألتها:

«شميران... لمن هذه الصورة؟».

قفزت من السرير، بعد أن لفت الشرشف الأبيض على جسدها، وأخذت الصورة من يدي وقالت:

«ماذا تفعل بها... إنها لوالدي؟». ثم ذهبت مسرعة لتضعها في جرار الخوان، بعد أن فتحت علبة ذهبية صغيرة وأغلقتها. «والدك شميران... من والدك؟... هذه الصورة لي». قلت لها بعصبية واندهاش.

«لا، أنت واهم. هذه صورة والدي». ثم هرعت إلى الحمام وهي تلف نفسها بالشرشف الأبيض الذي عليه بقعة الدم، فتبعتها، رمته في المغطس وفتحت صنابير الماء التي تفجرت بالماء الساخن، فذابت زهرة الدم الحمراء القانية في الماء بسرعة، وأخذت شميران تدعكها بيدها، ثم التفتت نحوي وقالت:

«أما ترتدي ملابسك؟».

ذهبت إلى الحجرة الثانية وارتديت ملابسي على عجل، جلست على قائمة كرسي كبير في الصالة الدافئة، وبعد ذلك جاءتني،

مكتبة الفكر الجديد

شميران وبيدها أكواب الشاي الساخنة، كانت ترتدي روباً ناعماً وقد عقدت شعرها الذهبي بشرائط وردية.

أخذنا نشرب الشاي في الصالة، كان الدفء ينبعث من كل مكان: مني، من جسد شميران، من الموقد، جلست شميران على الأرض، وضعت طوقها الأبيض ليزين شعرها، وأراحت رأسها على فخذي، فأخذت أمسد شعرها بيدي:

«لمن هذه الصورة شميران؟». قلت لها بهدوء وأنا أحني رأسي لأنظرها. فأغمضت عينيها وقالت: «دعك من هذا اللغز. هذا المكان الذي نحن نجلس فيه هو مكان أمي، بناه وأثثه لها جدي، وهو المكان ذاته الذي فقدت به أمي عذريتها مع المعلم الذي جاء إلى تل مطران قبل عشرين عاماً».

قلت لها: «ثم تركها وهرب...». قالت «نعم... ثم جئت أنت... هذه صورته تشبهك... أما كيف؟ فلا أدري... القاشا خوشابا يقول كل شيء يعود بعد أن ينجز دورته... كل شيء يعود».

كنت مندهشاً منها، وأنا ما زلت أمسد شعرها بصورة آلية، فجأة وضعت يدها على يدي، وقالت:

«يقولون اغتصبها، ولكني لا أظن ذلك فقد وهبته كل ما تملك لأنها كانت تحبه. وحين هرب بقيت في نفسها رغبة أن تنتقم منه... لكنها قتلت قبل أن تتمكن منه. لو كانت بقيت على قيد الحياة لكانت قتلته. جدي قتلها. يقولون ذبحها... وهو يقول إنها هربت معه».

مكتبة الفكر الجديد

قلت لها: «وأنت ألا تخافين أن يقتلك جدك؟».

«لا، لا لا يمكنه... كان على أمي أن تباغته قبل أن يباغتها».

كنت أصغي إلى صوتها الهادئ وهي تتكلم وعيناها تومضان بهدوء، بينما كانت تعابير وجهها ساكنة، وما كنت قادراً على مقاطعتها ولا كانت لدي الرغبة باستمرار هذا الحديث بسبب غرابته، ومع ذلك استمرت تتحدث لي عن جدها، عن القاشا، وعن أصدقائه، وتل مطران.

«هل كان للقاشا أصدقاء؟».

«كان له صديقان يكتبان في جريدة في الموصل. القاشا يقول عنهما إنهما مثقفان، ولكن جدي يقول إنهما يكتبان أشياء لا أحد يعتقد أنها مهمة سواهما. كنت أكرههما. كانا يأتيان إلى جدي في المساء ويوشيان برجال ونساء تل مطران: فلان يخون زوجته، فلانة تخون زوجها... كانا يجلسان مع جدي في المساء ولا يتوقفان عن الكلام. كانا يتحدثان بشكل مقرف، والقاشا يجلس مفتخراً بهولاء المجانين».

قالت ذلك وأخذت تكركر في الضحك ثم قالت «كنت أنظر إليهما وأقول في نفسي: ما نفع هؤلاء الناس الذين لا يعملون شيئاً؟ العتالون والزبالون يؤدون للناس خدمة، فما هي خدمات هؤلاء الناسة غير الوشاية والكلام الممل من الصباح إلى المساء؟».

كانت شميران تتحدث ببساطة كلية إلا أنها لم تكن جاهلة، وكانت

مكتبة الفكر الجديد

تقول الأشياء بعفوية إلا أني كنت أدرك أن كل كلمة كانت تقصدها، ولم أكن متفقاً بطبيعة الأمر معها، ولكني في تلك اللحظة أدركت كم كنت مغرماً بها وبكلامها.

كنا أمضينا الليل معاً، نتحدث بهدوء عن كل شيء، عن والدتها والبغدادي الذي خدعها وهرب، عن القاشا وأمر النبي المخلص، ثم حدثتني عن كتاب راميشوع الشايب:

«هذا الكتاب خطير، لو كنت تقرأ بالسريانية، يتحدث عن تأريخ تل مطران. ما أريده هو الكنز. لو كنا حصلنا على الكنز فكل شيء سيسهل علينا. سنحقق أشياء مهمة». ثم رفعت رأسها ونظرتني وقالت: «بربك، ما رأيك بالساعات التي قضيناها معاً؟ لو كان المال تحت أقدامنا سنجعل هذه الساعات تستمر إلى الأبد. الحياة هي هذه – هي ببساطة هذه – الزبالون والعتالون لا يعقدونها. إنهم يعيشونها. القاشا وأصدقاؤه لا يريدون أن يعيشوها لأنهم لا يعرفونها».

شعرت بأني ارتبطت كلياً بأمر تل مطران من خلال شميران، وكانت تلك الساعات التي قضيتها معها، هذه الساعات الحقيقية أعظم من ساعات القاشا في كتابه، لا يمكن لليوتوبيات مهما كانت عظمتها أن تعادل لحظة واحدة من لحظات الرغبة وتنويرها، كنا نتحدث عن أشياء كثيرة، ونضحك بصوت خافت، حتى سمعنا صياح الديكة في الحديقة.

نهضت وارتديت معطفي، بينما ارتدت شميران عباءتها الزرقاء، ومسكت بها من عند حنكها، وأخذتني عبر الرواق الطويل وهي

تمسك بيدي حتى هبطنا السلم الحجري إلى الفسحة الدائرية، ففارقتها على عجل متخطياً الأرض المعشبة المغطاة بنديف الثلج إلى الفرجة المواجهة لسياج الزعرور، بينما كانت ترقبني من الشرفة متلفعة بعباءتها التي تلف جسدها، وأخذت أنا أطأ الأرض بخفة، فأحنيت رأسي قليلاً، ورفعت السكارف الصوفي المقطع إلى أنفي، وقطعت الحديقة المغطاة بالوفر وشظايا جذوع الشجر واللحاء المقشر والورق الهش المتساقط والأغصان القصيرة المهشمة المتفسخة بالوحل البارد والثلوج.

سرت مباشرة دون المرور بالأحراش الطويلة التي قطعتها ليلة أمس بصعوبة، حتى بلغت الطريق المعبد الذي يربط تل مطران بالقصر بعقدة شبيهة بالحرف (تي) بالإنكليزية. كانت الشرفة التي وقفت فيها شميران قد انطفأت، بينما سرت متوجهاً نحو تل مطران.

(٥٣)

كان الفجر بارداً، البخار الكثيف يتصاعد من الوادي، وهنالك الغربان الشبيهة بالكهنة تكسر قضبان الجليد المتدلية من الأشجار، وتضرب بزعيقها المتوحش القفار الخالية، ثم أخذت أسمع زقزقات العصافير تزداد شيئاً فشيئاً، وكنت أصغي لنباح الكلاب السلوقية التي تركض عبر الطريق المعبد بالأسفلت قبالة القصر وترجع إلى البوابة الحديدية الضخمة التي يحرسها الخفراء، وقد علقوا على أكتافهم الغدارات وهم يسيرون بهدوء أمام جواسقهم الخشبية وتحت مظلاتهم.

خلفتهم ورائي وسرت باتجاه المدينة، كنت أشعر بخدر كامل في جسدي، كنت أتعرض لاستبصار داخلي وتنوير شديد، فالحياة

مكتبة الفكر الجديد

اليومية لا تعرض سوى تبلدها ويبوستها وفقرها، أما الآن فكنت أشعر بكل شيء جميل من الدودة الصغيرة حتى المداخن الملوثة بالنساج، كنت أسير وكأني أهبط للأرض أول مرة.

كنت أشعر لحظتها بالتنوير الذي خلقته المرأة القوية الجميلة والخصبة، وهي تبشر غريزياً بالقانون الحيوي للحياة، كانت شميران تعبر ببساطة عن العواطف الكبيرة، وحتى عن الأخلاق الكبيرة، إنها الجزء العضوي والمتمم للحياة العظيمة والممنوحة من الله، إنها المثل الإنساني الكبير دون مذنبين عظام، فالسعيد هو من يعيش حياته بلذة ومتعة وصدق وسلام وخير عظيم، إنها الخط المحتوم الذي يبقى على الدوام في صميم الطبيعة البشرية، إنها الفضيلة الفعالة التي تقوم على أساس الخير والحق، والتي تحملها شميران بكل نقاء وقوة.

كانت شميران تريدني أن أشعر بنوع من الأبدية المناقضة لفكرة القاشا تماماً، نوع من الأبدية المتعطشة للتوحد مع الرغبة الكامنة في كل واحد منا، أبدية تستثمر إلى الأبد نوعاً من الأحساس بالدفء والرحمة الذي يقدمه جسد الأنثى لجسد الذكر، ويجعله يلتحم مع الماء الساخن، وزقزقات العصافير المتصاعدة من أعلى السماء، والطيور التي تصدح، وهي الطريقة الوحيدة التي تحذف بشكل مستمر فكرة الموت وفكرة الشر والانتهاك التي يبشر بها القاشا.

***

كنت بلغت ميدان تل مطران وقد نظفته الجرافات من الثلج، ولم تبق فيه سوى بقع المياه المتجمدة التي تتزحلق عليها الأقدام

كطبقات من الجلد النقي، أسير عليه بحذر شديد، أرفع ياقة معطفي الأسود الصوفي بيدي، وأضع نهاية السكارف على أنفي المتجمد من البرد، كان المهربون قد وصلوا المكان باكراً من المغارات المضاءة بالفوانيس في لحف الجبال، وانتشروا في الميدان متفرقين ببضائعهم، وقد أشعلوا النيران وسط الميدان ببقايا الأشجار الرطبة التي تنبعث بالدخان والرائحة النفاذة، كانوا يتحمون على النار ضاحكين متلفعين بالقلنسوات الجلدية والمعاطف الثقيلة، كانوا يشربون الشاي ويأكلون الخبز الساخن الممسوح بالمربى والزبدة، فتوقفت أمام النار التي تتصاعد ألسنتها المتراقصة في الهواء البارد، بعد أن فسح لي المجال أحدهم، كانت تلفح بلهبها المتقطع وجهي المحمر، فخلعت قفازاتي ووضعتها تحت إبطي وأخذت أنفخ عليها، وأقربها من النار التي ترجف ألسنتها وسط الضباب البارد.

نظرت حولي، كانت وجوه المهربين الكالحة المشققة مرتابة مني، كانت خائفة، وكانوا يلوكون الخبز والزبدة بأسنان صفر ولثث زرق من التدخين، كانوا يرمقونني بعيون متعبة من السهر، كانت عيونهم حادة محاطة بدوائر من الزرقة الكامدة.

قلت لهم: «أنا رابي في البيعة، أعمل من فترة قصيرة».

فناولني أحدهم كوباً من الشاي يدفع ببخاره الساخن في الهواء، فأخذت أتدفأ به بكلتا يدي قبل أن أشربه، فسألني الذي ناولني كوب الشاي بعد أن مدّ لي قطعة من الخبز الساخن الممسوحة بالزبد والمربى، فيما إذا كنت بحاجة إلى مسدس ويبلي عيار ٩، فشكرته وأنا أمضغ الخبز الساخن الذي يبعث الدفء والنشوة

وأخذنا نثرثر كأننا تعارفنا من زمن طويل، تحدثنا عن التهريب وخطورته، عن الجبل والوادي ووعورته، وأنا أقضم قضمات كبيرة من الخبز والزبد، وأغمض عيني أمام النار الهادئة المتراقصة، وأشرب الشاي الذي ينفث في أنفي رائحة الهيل الساخنة فأشعر بالحياة. بقلب الحياة.

قال لي: «اسمي ميخائيل. أي شيء تريد رابي أنا بخدمتك».

(٥٤)

كان الخيالة المسلمون قد وصلوا الميدان وهم على جيادهم العربية الشهباء، ملفعين بالشاميغ المخططة، يضعون على الأكتاف العباءات البنية، وهم يطوفون الميدان حاملين أكوار الصوف والمغازل وسمن الحيوانات، يتوقفون أحياناً أمام متجر أو بائع على الأرض فيجلسون القرفصاء كي يلفوا السجائر بأيديهم المشققة، ويطلقون الدخان نفثات طويلة في الفضاء البارد، وكان اليزيديون يضعون على رؤوسهم المدورة الريش الأحمر وهو يهتز في مهب الريح، ويشدون على الخصور النحيفة السكاكين والحراب، ويبيعون السجاد والبسط والحصران، بينما يهبط الأكراد من الجبل ببغالهم الرصاصية ودروعهم الجلدية يبيعون السمن والعسل والجلود، ويزداد الصخب والهرج في الميدان شيئاً فشيئاً، كنت أسمع جملاً مختلفة وأنا أتجول بهدوء:

«والله عيني هذا السجاد علي بتسعين».

«أريه والـــله كـــاكه نا زنم لو جـــويه درجوه...» «كو جرمانه... ميوقرا...».

كان الصباح يتعالى شيئاً فشيئاً، وكانت الشاحنات تشخر في الطين المتجمد، بينما كانت النساء تتلثم بالبراقع والشالات والعباءات عند محلات الوقادين وورش الحدادين ومخازن الصفارين ومتاجر الملابس والعطور، كانت الأصوات تتعالى، والمضائق تصدر هديرها المتوحش.

بقيت في تل مطران حتى الظهيرة، ثمة رغبة كبيرة في داخلي للتجوال فيها، رغبة كبيرة للدخول في تفاصيل حياتها، كان هنالك نشاط حيوي يتفجر في كل جسدي للغناء معها، للنشيد والتأمل والشعور بالراحة، فلم تكن لدي الرغبة بقطع هذه الينابيع المتفجرة في نفسي وردمها، لذلك سرت في كل مكان حتى تعبت، وفي مطعم مطل على البازار تناولت غدائي.

كنت أنظر من وراء الواجهة الزجاجية، وفي الشارع المؤدي إلى البازار رأيت وردة خوشابا يترنح سكران، سار خطوتين إلى الأمام وتراجع خطوة للوراء، ثم تقدم نحو الواجهة وألصق وجهه على الزجاجة أمامي وابتسم بلثته الزرقاء وأسنانه الصفر، والدوائر الكامدة التي تحيط بعينيه. فأشرت له بيدي أن يدخل.

وحين دخل، حاول النادل أن يمنعه وهو يقول:

«الدفع مقدماً، لا مثل كل مرة، تأكل ثم تهرب أو تسقط مغمياً عليك» قالها وهو يضع يده على صدره، فابتسم وردة وهو يشير بيده نحوي:

«أقول لك... الحساب مدفوع» وحين التفت النادل نحوي قلت له: «اتركه، حسابه مدفوع».

مكتبة الفكر الجديد

وحين تركه تقدم نحوي بخطواته المتثاقلة حتى كاد أن يسقط، ومسح بيده على شعره الأشيب والذي يميز الكحوليين بشكل عام، وجلس:

«أهلاً رابي، سأكلفك... ولكن قلبك الطيب وجيبك العامر يشجعني. ثق لو لا أني أحبك لما قبلت أن أأكل على حسابك ولكن المثل السرياني يقول: تأكل من غريب تشكر تأكل من قريب تكفر».

وحين جاء النادل خجل وردة كثيراً، فأشار بيده نحوي وقال «آكل بكيف الرابي».

ولكنني قلت له «ما يصير، أنت بكيفك». فطلب شيئاً بسيطاً وكنت قدرت نفسه الطيبة، واعتزازه بنفسه، ومراعاته لي، لأنني والحق أقول لم أكن أملك الكثير، فالقاشا حتى تلك اللحظة لم يعطني راتبي، وكنت خجلت أن أسأل شميران أن تعطيني بعض المال في الليلة الفائتة.

وبعد أن جاءه النادل بطبق الطعام، أخذ وردة يأكل بشهية وخجل، كان بعض النُدل يوزعون الخبز الساخن على الجالسين، وبعضهم يحمل صواني ويوزع الصلصة بالفلفل، ومن مكان ما تسمع صوتاً نافذاً بالسريانية يكرر الطلبات.

لقد شحب وجه وردة بشكل تام وهو يأكل، لقد أكل الخبز واللحم ورشف الصلصة الساخنة، فدمعت عيناه، وبين فترة وأخرى كان يمسح بيده على شعره، ويبتسم، ثم التفت لي لكي يقول لي شيئاً لصالحي وهو من قبيل الشعور بالامتنان، قال:

مكتبة الفكر الجديد

«كان المختار قد بعث لي أنه يريد أن يراني، وحين دخلت قصره مدّ لي مائدة كاملة من الطعام. قلت له لا حاجة لي بكل هذا فأنا لا أستطيع أن آكل سوى نوع واحد من الطعام. وحين قال طلبه رفضت أن آكل».

«ماذا كان يطلب منك وردة؟».

«كان يريد مني أن أترك إيلين زوما من أجل ابنه الوحيد، فسخرت منه».

ثم توقف عن الأكل ونظر نحوي وقال:

«بالمناسبة، يشيعون خبر أنك كنت الليلة الماضية مع شميران، وأنا أخشى عليك من جدها، وأنا أشوف تروح اليوم إلى شارع النبي دانيال».

في تلك اللحظة شعرت بالخطر، خطر الدخول إلى تل مطران والانشباك الكلي في مشاكلها، شعرت بشيء غريب، شعرت بشيء يقرقر في جوفي وأنا جالس قبالة وردة، فمنحته نظرة مفعمة بالهزء، وكأن الأمر لا يعنيني، كنت أسمع الكلاب تنبح في البازار، وكان يهبط على عيني سديم كثيف، كنت أسمع كلمات الآخرين في المطعم غير المميزة، ثم هيمن صفير خاص على أذني وكأنه قادم من الليلة الفائتة، فأزحت وجهي وأخذت أنظر صوب الميدان، لقد بزغت أشكال أخرى في هذا الزحام الصاخب، تحاول أن تجد لها مكاناً بين الخراف والفاكهة والبغال، وأنا أشعر الشعور المدوخ بمصيري ومصير شميران.

«ومن قال هذا الأمر؟» سألته.

كان من الصعب علي رؤية هذه الفوضى بعينين ضيقتين.

«الكل يتحدث هذا الصباح عن الأمر. ولأني لا أذهب بعيداً عن الخمارة سمعت هذا الأمر في الخمارة. وأظن ما تقوله الخمارة تقوله المنازل». ثم ضحك ضحكة قصيرة وعاد إلى صحنه.

لقد شعرت بحرارة ذاوية في جسدي، لم يكن من الممكن معرفة أشياء كثيرة عن أمر شميران، لأنه ببساطة ما سمعه وردة هو الدخان الذي يسبق النار، كان تصاعد الشائعة هو الذي وصل أولاً ولن يعرف أحد أكثر من هذا الأمر، وفي تلك اللحظة لم أكن قادراً على معرفة ما سأفعله، أو الوسيلة التي تكفل لي التصرف الصحيح.

كان وردة ما زال جالساً على المائدة حين صافحته وذهبت، دفعت قائمة الحساب وخرجت مسرعاً نحو منزل القاشا.

(٥٥)

كان صوت جولي بأغنيتها الأثيرة يصدح في الداخل، طرقت الباب، ففتحته جولي وهي تعلك.

«قيدمتوخن برختا جولي».

«قيدمتوخن برختا رابي. كان القاشا يبحث عنك طوال الليلة الفائتة. أين كنت؟».

مكتبة الفكر الجديد

خلعت قفازاتي ورميتها على طاولة الطعام التي تتوسط الصالة، وأخذت أنفخ على يدي المحمرتين من البرد، دون أن أجيبها. كان المكان في الداخل شبه مظلم، وهنالك ضوء يرشح من خلال الأبواب يدخل من الخارج بصورة ضعيفة، وسرت بين الجدار وطاولة الطعام، في المكان الذي وجدت نفسي فيه، حيث كانت هنالك صلصة الدجاج متروكة لتبرد ببطء، وعلى سطحها اللزج رغوة تذوب وفقاعات سخونتها تتحرك في الفضاء البارد الكثيف للصالة.

هرعت جولي مسرعة إلى الحجرة السفلية التي تقطنها وخرجت بسرعة، ثم انحنت أسفل السلم جالبة علبة ثقاب وقليلاً من الحطب، وألقت به في الوجاق، ثم تناولت غصناً وأشعلته، سخنت به المدخنة من الأسفل لتطرد الدخان، ورمته في النار فالتهب الوجاق.

خلعت معطفي ورميته على الكرسي المقابل للكرسي المنجد ذي المساند الذي يشغله القاشا على الدوام، وأخذت أتحمى على النار الهادئة المتلامعة التي تتراقص شعلها في الوجاق المرمري المطعم بالموزائيك، بينما حملت جولي معطفي من على الكرسي وألقته بعناية على الطاولة جنب القفازات، وجلست على الكرسي المقابل لي، وبالطريقة ذاتها، كانت تضع مؤخرتها السمينة أول الأمر بهدوء على الكرسي، ثم تهبط بكل ثقلها مستريحة، أحنت قامتها إلى الأمام، ثم ارتدت مباشرة إلى الوراء، ووضعت ساقاً على ساق، مباشرة دون أن ترمش...

«أين القاشا؟»

أنا قلت، وقد وخزت رائحة الخل منخري.

مكتبة الفكر الجديد

أجابته بعد أن فغرت فمها:

«أما تعرف؟ ذهب مع شميران. لقد تشاجرت مع جدها المختار هذا الصباح على مائدة الإفطار بالصحون» وأخذ وجهها تعبيراً آخر، غير التعبير الذي قابلتني به.

«لماذا؟ أما عرفت السبب؟» قلت لها، بينما أخذ قلبي يدق بصورة متسارعة.

قالت بشكل واثق: «نعم، أعرف السبب». كانت تبتسم بشكل متهكم.

«ما هو؟» قلت، وفي داخلي شيء يتحرك، خميرة تدوي.

«أنت...» قالت ذلك وهي تنظر بعيني مباشرة.

«أنا... كيف؟».

«لقد أنبأ الحراس جدها أن غريباً دخل القصر ليلة أمس من الفرجة الخلفية لسياج الزعرور، وقد نبحت الكلاب، وحين تتبعوا آثاره اكتشفوا أنه عند شميران. لقد أدخلته إلى الطابق الثاني، ويظن المختار أنه أنت».

لقد قالت لي جولي هذا الكلام بكل ثقة ومن دون أن تنفعل، وكأنما هذا الشيء كانت واثقة منه، مما جعلني لا أخشى من الموقف حسب، إنما أرتاب بجولي أيضاً.

مكتبة الفكر الجديد

«لا، إنهم واهمون. لم أكن أنا».

قلت ذلك وقد شحب صوتي، بينما بقيت جولي تنظر بعيني نظرة ثابتة، وهي تتنهد تنهدات متقطعة. فنظرت في عينيها مباشرة، كان جسدها وعيناها الذائبتان قد أنساني الخوف الذي تسرب إلي قبل قليل، كنت شعرت برغبة كبيرة تجتاحني لتعريتها، رغبة كبيرة للذوبان في جسدها وهي جالسة على الكرسي، لم تكن جولي جميلة، ولم أكن أتخيل أن للشكل الداعر هو الآخر نوعاً من الجاذبية، لقد علمتني الليلة الفائتة مع شميران أن الرغبة تمنح الجسد نوعاً من الخلود، حتى وإن كان هذا الخلود وقتياً، وهنالك رغبة جامحة للتكرار، وإعادة استنساخ الرغبة بشكل غير منته، ولكن ما يمنعني الآن هو تصوري في تلك اللحظة، أن الأمر سيكون مختلفاً تماماً عن الليلة الفائتة، لقد كانت هذه النشوة المتسامية بارتفاعها وأرستقراطيتها مع شميران ستدمرها لذة مبتذلة وعامية وشعبية وجاهلة مع هذه العذراء المتصابية، فلم يكن الأمر بالنسبة لي هو الاهتياج إنما الشعور بالجسد وقد وصل إلى أعلى أثيريته وتساميه وصعوده.

نظرت لها بعمق، فتوقفت جولي عن العلكة وفغرت فمها، كانت تنظر نحوي بصورة مباشرة، كانت تنظر بعيني مباشرة وقد أحمر خداها، والتمعت عيناها.

قلت في نفسي «ماذا أفعل؟».

لو بقيت الآن جالساً قبالة جولي، فإن الأمر سينتهي لا محالة بنا إلى الفراش، وسأشم لحظتها لا رائحة الخل التي تشق المناخر،

مكتبة الفكر الجديد

إنما تدمير صورة شميران وسموها وارتفاعها، وربما سأعرض نفسي إلى انتقام القاشا، انتقام الخيانة، والغدر بالأفكار، وسيرى بعينيه وربما بعيني هذا الفرق الهائل بين الخلود الجسدي وبين الخلود المعنوي.

كان القاشا يريد خلوداً معنوياً، خلوداً يستجيب للأفكار والمثل والأخلاق العظيمة، وكانت شميران قد علمتني الليلة الفائتة نوعاً آخر من الأخلاق، علمتني أن المرأة تمنح الجسد خلود المتعة واللذة غير المحدودتين.

نهضت من مكاني، فنهضت جولي وتقدمت نحوي، كانت عيناها مفتوحتين على اتساعهما، كانت عيناها تلصفان بقوة، ويضيق نفسها من احتباس الرغبة فتتنهد تنهدات قصيرة عالية.

كان جسدها قد تجمد، وأخذت شفتاها ترتجفان، فتقدمت نحوي.

كان كل شيء فيّ يهتز، كانت أقدامي ترتعش، فشعرت بعدم القدرة على السيطرة على جسدي، لقد شعرت على نحو متواصل بانفلاته، حاولت أن أجد موضوعاً آخر، التفتّ إلى المكتبة وأخذت أحدق بالكتب المرتبة باعتناء وكانت هنالك غشاوة تمنعني من رؤية العناوين، كما كانت هنالك قوة تجعل من كل هذه الحروف تفاهة أمام الرغبة التي تصعد وتضرب في رأسي، كانت عيناي تتجهان إلى الأوراق، بينما كان فكري ينشد إلى الوراء إلى كتلة اللحم الوردي والأملس التي تتحرك ورائي، كنت أشعر بالفرق والتمييز بين برودة هذه الأوراق وبين سخونة الجسد ورائي وهو يبعث دفئه على نحو متواصل.

مكتبة الفكر الجديد

كانت جولي تتبعني وأقدامها تحدث ضجة محمومة في المكان فالتفت إليها، كانت ورائي مباشرة، كاد صدرها المتوثب يمس صدري، فأنفلت منه، تناولت علبة السجائر من جيب المعطف الموضوع على الطاولة ووضعت سيجارة في فمي وأشعلتها، فمسكتني جولي من يدي، شعرت بشيء يقدح في عيني، شعرت بالرغبة وقد أخذت تصعد في رأسي مثل سورة كادت تعميني، كنت أدرك خطورة الموقف أمام الأربعينية العذراء، وأدرك في تلك اللحظة أن القاشا سيكون على رأسنا، ولكننا لو بدأنا الخطوة الأولى فإننا لن ننتهي منها مهما كان.

***

ارتديت معطفي وأخذت قفازاتي بيدي، كان قلبي يدق بصورة متسارعة، ثم وضعت علبة سجائري بجيبي، وهرعت نحو الباب فتبعتني إلى الباب.

فتحته واندفعت بسرعة إلى الحديقة، وأنا أقول:

«بلغي القاشا بأني سأكون عنده على العشاء».

صفقت جولي الباب بقوة خلفي، وأنا أخذت أسير بقوة في الشارع المؤدي إلى البازار.

(٥٦)

خرجت من منزل القاشا مسرعاً، كان البرد يشتد والشمس تخفت شيئاً فشيئاً، وكان الصخب الذي يجتاح المدينة قد هدأ وحل بدلاً

مكتبة الفكر الجديد

عنه صخب آخر، فقد اختفت ضجة الحدادين والوقادين وصياح الباعة وحل بدلاً منها صياح الصغار في الشوارع، أحاديث النساء من أعلى السطوح، وتسليات الرجال في المقاهي. اتجهت إلى بازار تل مطران لكي أستقل سيارة إلى شارع النبي دانيال، كنت أسير مسرعاً وأشعر بجسدي وهو يسخن ويحمى، كنت أول ما فكرت، فكرت ببائعة المربى والقيمر، فكرت بجسدها الربل الذي يتحرك تحت الملابس الضيقة اللازقة، فكرت بصدرها الأبيض المنتفض، بساقيها الناعمتين، حتى كدت أختنق، كنت أسير في الشارع وأنا أنظر إلى النساء يميناً وشمالاً، كانت لدي رغبة جامحة لمس أجسادهن، كانت لدي رغبة جامحة للوصول إليهن والنظر بالعيون التي تومض، كانت لدي رغبة جبارة لا تحد، لتذوق شفاههن التي ترتجف، وفي كل مكان أقول في نفسي:

«ماذا أفعل؟».

فكرت بالذهاب إلى شميران، فكرت بتسلق القصر من الخلف، والصعود إلى المكان الذي قضينا فيه الليلة الفائتة أنا وهي ساعات عذريتها الأخيرة، حين كنت أتذكر البخار الذي كان يلفنا في المرايا والشهقات التي أطلقناها في الفراش، اللمسات العذبة الرقيقة ليديها على صدري المتوحش، أدرك بأن تكرار هذه اللذة سيكون رغماً عن كل شيء، فجدها الذي يقف أمام وجهنا علينا أن نزيحه بأية صورة، ولن يكون هنالك من شخص يمكنه أن يدمر وحدتنا، حتى وإن كانت هذه الوحدة زائفة. حين التحمت بها ليلة أمس، شعرت بهذا النزوع الرائع للوحدة، ولكنني بعد لحظات شعرت بأناي وقد عادت إليّ، شعرت بأن هذه الوحدة مهما طالت فإنها سترتد إلي، وشعرت بأنا الآخر وقد تلوث هناك، وأن هذه

الوحدة وإن كانت زائفة فأنا سأحاول تكرارها آلاف المرات، سأحاول استنساخها، حتى وإن كانت المرة الأولى قد ذهبت على سلك الزمان الذي مر، ومن المستحيل إعادتها، إلا أني أحاول وأحاول وسيكون ذهني منشدّاً في كل مرة إلى المرة الأولى.

* * *

اتخذت الطريق المؤدي إلى البازار، كانت المتاجر والمقاصف والمحلات مبهجة وهي تعرض البضائع المتنوعة، وكانت رائحة العطور والماكياجات تتسرب إلى أنفي مع هبات الهواء الباردة، أخذت أسير وراء النساء تحت السقوف المعدنية الملتوية والمظلات البلاستيكية المذيلة بالألوان الوردية والبنفسجية الزاهية، كنت أنظر إلى مؤخرات النساء وأنظر إلى المظلات فتثيرني استداراتها وانتفاخاتها الملونة، كانت تتراءى لي مثل أرداف متوثبة ترتدي كلسونات مذيلة وملونة.

فأخذت أدور حول الميدان نصف دورة، وأسير في الشارع على مهل، كان السوق مزدحماً بالعربات، ومصطخباً بالباعة المتجولين، بضجيج الرجال والنساء معاً، وكانت هنالك عدة متاجر متخصصة ببيع الملابس النسائية والأزياء والعطور والماكياج، يطلق عليها القاطنون «سوق البنات» فدخلت فيه: كانت النساء يزدحمن هناك على الرصيف وفي المتاجر بأعمار مختلفة: مراهقات يرتدين بناطيل الجينز الضيقة، كنزات ناعمة تبرز الصدور دون سوتيانات، أو تنورات صوفية قصيرة فوق الركب، تكشف عن سيقان نحيفة تغطيها الجوارب المثيرة المثقبة الناعمة، وهنالك مختلف الأزياء والملابس المحلية المحبوكة والمطرزة،

والعمائم التي تتحرك في الزحام مثل أصص الزهور، كانت الخصور مشدودة بأوشحة لماعة، فتبرز الأرداف بصورة مغرية ومثيرة، فألهبني هذا المشهد، ألهبني مشهد النساء الطليقات، فأخذت أسير بينهن، وهن يتجولن في السوق للتبضع ومتابعة تغير الموضة، والتفرج على مجلات أخبار ممثلي السينما ولشراء صور المطربين والمطربات.

نساء... نساء كادت يدي تخرج من جيبي رغماً عني لمس رقيق على صدر متوثب أو مؤخرة ناعمة تكاد تشق القماش لبضاضتها، كنت أريد أن أمس صدورهن بصدري، وأجعل ساقيّ تتلامسان برقة مع سيقانهن، فأشعر باستحالة هذا الأمر، فأعريهن بخيالي. كانت يد خيالي السحرية تتحرك بهدوء هناك تعري وتعري، تعريهن عن ملابسهن، كانت تخلع وترمي ملابسهن يميناً وشمالاً، بهدوء وتمهل لذيذين، كانت تخلع عنهن معاطفهن بهدوء، ثم تخلع الكنزات الصوفية، وتنسل بخفة لتفتح أزرار البنطلونات، وبعد ذلك تخلع بتروٍّ مذهل ما يستر النهد، كل ما ألمسه بيدي يذوب ويتحول إلى عري خالد، كل شيء كان يثيرني ويذكرني بعري المرأة الخالد، رطوبة الزجاج، الانحناءات والزوايا المظلمة، الاستدارات المعدنية، البردة تتحول إلى مكان دافئ، الأرصفة تتحول إلى أسرة ببياضات نظيفة معطرة، وهناك أشهد انفجار الأنوثة الخالدة تتراءى لي على خلفية من بخار الذهب.

كنت أحاول أن أربت على كتف جميل لأمرأة، كنت أحاول أن أسأل عن عنوان وهمي لأشبع من العيون المتوحشة بسوادها والتماعاتها، كنت أبتسم لوجه وسيم اعترافاً بأمر لم يحدث، أو

أتحدث مع بائعة لأشبع من الصوت الأنثوي المائع كي أذوب أمامها، أخذت أتطلع إلى الباترينانت المشيدة من الزجاج والمعدن، والمزدحمة بمختلف البضائع النسائية:

عطور في حقاق ملونة، ماكياجات تظهر العيون المكحلة، الشفاه المزمومة بلون قان، أو كلسونات بأنواع متعددة والمذيلة بالدانتيلا، والقميصولات المرسومة عليها قلوب ناعمة، أو زهور.

كان هنالك كلسون معلق بدائرة خشبية، وقربه سوتيانات بأحجام متنوعة، وعلى الأرضية جوارب نسائية مخرمة، وهنالك صورة نصف عارية لفتاة جميلة ترتدي كلسوناً صغيراً، وسوتيانة لا تغطي إلا حلمتيها، وكان بطنها المدور وسيقانها تنساب بنعومة، معروضة تحت أضواء شديدة.

كنت أسير خلف النساء أو أمامهن حتى وصلت نهاية الشارع، فشعرت بقوة في جسدي، قوة ألف حصان تصهل.

***

كان سوق البنات يؤدي إلى ميدان السيارات، كان المسير يخفف برودة الشارع، فيخيل إلي بأن الجو كان ساطعاً وساخناً، حتى بدأت قطرات من العرق تنغز جبيني، وحين وصلت هناك وجدت سيارة شوفرليت واحدة كانت قد امتلأت بالراكبين، وجلهم من الموظفين والموظفات ومن سسترات المستشفى في شارع النبي دانيال، وقد انطلقت بسرعة في اللحظة التي وصلت فيها، ولم تبق غير الربلات. كان الحوذية يصرخون وهم على منصاتهم:

مكتبة الفكر الجديد

«شارع النبي دانيال، شارع النبي دانيال»، ويلوحون بالسياط السود الطويلة المدببة النهايات.

لولا شعوري بالخوف في تلك اللحظة لقطعت المسافة المؤدية إلى شارع النبي دانيال سيراً على الأقدام، فقد كنت بحاجة كبيرة إلى التأمل بالذكرى التي تركتها شميران، بالحب الوحيد الذي يشعرني بالتناقض بانشباكه بأكثر من جسد، بأكثر من حب، فكيف لي أن أحدد هذه الملامح الأخلاقية المتناقضة، وهي تنبعث في روحي من تأثير شميران، فالعالم المتهدم أصبحت له روح جديدة تتأسس في روحي، ولا يمكن لأية قوة أن تقضي عليه.

في الواقع كنت أدركت أننا في لحظات الخوف، لحظات اليأس، لحظات الضعف، نشعر بالحاجة الماسة للخلاص، فكيف يكون الخلاص دون نبي، وربما كانت تل مطران تشعر بالشعور ذاته الذي أشعره الآن لكي تفكر ملياً بفكرة الخلاص، ولكن على يد من سيكون الخلاص، ومن الذي يستحق فكرة النبي؟

(٥٧)

وقفت قليلاً في الساحة التي ازدحمت بالناس والباعة والربلات، وبعد ذلك تقدمت من ربل يقف عند عمود الكهرباء قرب باعة الفواكه:

«عمو، إلى شارع أحمد أفندي في شارع النبي دانيال».

«اصعد، ولكن تعطيني الأجرة أولاً» فمددت يدي في جيبي، أخرجت محفظتي وأعطيته أجرته كاملة، فقبلها على طريقة

مكتبة الفكر الجديد

المسلمين ووضعها في جيبه، ولولا كلامه السرياني وسحنة وجهه لظننته مسلماً.

كان الحوذي مسناً ذا بنية ضعيفة إلا أنه لطيف المظهر، وقد وضع نظارة قديمة الطراز على عينيه جعلته حاد المزاج، وبعد ذلك تسلقت الربل وأرحت جسدي في المؤخرة، وحين انطلق الحصانان يخبان على الطريق المعبد بالإسفلت، وضعت رأسي على السجف وأخذت أفكر، كان الحوذي السرياني كبيراً في السن، كثير الكلام، لكنه لم يكن يوجه كلامه نحوي، إنما يتحدث عن أشياء قديمة وكأنه يتحدث مع نفسه، مما أعفاني من مشاطرته، ومنحني فرصة للتأمل والتفكير مع نفسي.

لم أكن قادراً بالفعل على التفكير ولكني كنت مجبراً عليه، بالأمس حين رأيت الحب في عيني شميران، الرغبة في عينيها شعرت ولو على نحو طفيف بنوع من النعيم الأخلاقي، ولكن هذا التأثير أخذ بعداً آخر هذا اليوم، فالرغبة أخذت تتصاعد على نحو فاضح وساخط، فكيف يمكنني ضبطها، كيف يمكنني أن أتعالى على ما آمنت به، كان علي أن أميز تمييزاً شديداً وعلى نحو واضح، بين الرغبة الهائلة المتسامية العظيمة، بين الروح الأرستقراطية التي كنت أريد الاندماج بها، وبين الدعارة والابتذال والشعبية المقرفة، وإن كنت أدركها على نحو عقلي فكنت أفشل فيها على نحو جسدي، كنت أشعر بهذه الكتلة، التي تحيط بي مثل حيوان، تتملص، تتفلت ولا يمكنني ترويضها.

(٥٨)

كانت الشمس شديدة والثلج يلمع في الوهج، وهنالك هبات باردة

مكتبة الفكر الجديد

تأتيني بين آونة وأخرى، وبعد أن عبرنا تل مطران ودخلنا إلى شارع النبي دانيال، كنت فكرت بتيمور (ماذا لو كان يقف في باب الأوتيل؟ ماذا لو هجم علي؟).

فكرت بالهبوط قبل الوصول إلى الأوتيل، ومن ثم الذهاب إلى الأوتيل بهدوء.

وبعد أن وصلت العربة على مقربة من بداية شارع أحمد أفندي شعرت بتعب يجتاحني كلياً، وكانت لدي رغبة كبيرة بالذهاب إلى المرحاض، فهبطت قبل الوصول إلى الأوتيل، كان هنالك مرحاض مصنوع من الصفيح، والهواء يخشخش في سقفه المعدني، كان بابه شبه مخلوع وهنالك أحد العمال المصريين يجلس على كرسي وطاولة في الهواء الطلق يجمع الأجرة من الخارجين، وهنالك بضعة أشخاص خرجوا وهم يزررون بناطيلهم وقفوا بوجوه مرتاحة وأيد مبللة يضعون الأجرة في الصينية ويمرون.

فتحت أزرار معطفي أول الأمر، ثم فتحت سحاب بنطالي وأنا أسير، في الباب كنت أسمع وشيش الصنابير، وهنالك شخصان في التواليتات يتحدثان مع بعضهما بصوت عال، وهنالك مبولتان واحدة مشغولة وأخرى فارغة، وقفت وأخذت أبول، شعرت وأنا أريح مثانتي أن الشخص الذي يقف على المبولة التي في جانبي ينظر نحوي، فالتفتّ إليه.

كان تيمور هو الذي يقف ويبول إلى جانبي، وكنا وجهاً إلى وجه، أحدنا ينظر نحو الآخر.

مكتبة الفكر الجديد

«أين المفر؟» قلت في نفسي، وقد خدرت يداي واهتزت ركبتاي، كان عليه أن يستدير نحوي ويلطمني لطمة تكومني فوق المبولة، إلا أنه بدلاً من هذا ابتسم لي، فابتسمت له ومع هذا لم أكن واثقاً من سلوكه «ماذا لو قبض على عنقي بيد وقد زرّر بنطاله باليد الأخرى وأنا ما زلت أبول وأخذ يركلني في بطني حتى يطرحني أرضاً؟ فما فعلته به لم يكن هيناً».

زررت بنطالي واستدرت بسرعة لأنفلت منه إلا أنه سبقني، ولدى باب المرحاض دفع الأجرة فأخجلني، وسرنا معاً نحو الأوتيل صامتين، كنا نسير والهواء البارد يضرب وجوهنا بهباته القوية المتقطعة، وكان تيمور يضع يديه في جيبه ويسير منحنياً قليلاً بسبب طوله، وما زالت آثار أظافري على وجهه. وحين صعدنا الدكات الثلاث للأوتيل توقف في صالة الاستراحة لينتظرني أدفع الباب وراءه وأدخل، كانت ريزان تجلس وقد أمالت رقبتها كما تفعل الدجاجة، وقد شدت على جسدها روباً ضيقاً عند الصدر غريب المنظر، فقال لها تيمور بالكردية «روز باش...» فأجابته بلهجة مندهشة واضحة.

قادني من يدي وسرنا يثقل كلاً منا شعور فاضح بالفشل، طلب مني تيمور أن أدخل حجرته لتناول الشاي معه، فدخلت.

كانت حجرته تشبه حجرتي في كل شيء، ولأن حجرتي فارغة فكانت حجرته أكثر فوضى، فقد علق صوراً مختلفة للممثلين والممثلات على الجدار، وهنالك صورة لفريدة وهي ترتدي قبعة مثل الممثلات الأجنبيات موضوعة في إطار رخيص على الكومدينو، وكانت زجاجتها مكسورة، وهنالك ريكوردر وبضعة تسجيلات ومجموعة من العطور الثمينة على الخوان ذي المرآة، بينما كانت

مكتبة الفكر الجديد

الكتب الموضوعة على رف قرب الخوان مرتبة بصورة أنيقة، فوقفت عندها وأخذت أقلب رواية «بئر الحرمان» لإحسان عبد القدوس.

كانت هنالك مجموعة من الطبعات المختصرة لبعض الروايات العالمية المطبوعة في بيروت، روايات أميل زولا، ديكنز، سومرست موم... وكانت الصور التي تزينها صور نساء ذائبات بألوان باهتة، وهنالك بعض الروايات اللبنانية وهي من نوع الروايات الرخيصة شبه الخليعة، ومجموعة من الكتب المصرية، وبعض المجلات النسائية مثل «الموعد» و«الشبكة».

وضع الشاي على الطباخ ونهض، تحرك نحو الزاوية ثم خلع جاكتته وعلقها، جاء قريباً مني وجلس على الكرسي المقابل للكرسي الذي أجلس عليه، وأخذ دون شعور منه يتحسس آثار أظافري على وجهه، ولكي أكسر حاجز الصمت بيننا، سألته:

«من زمن بعيد وأنت تعمل في تل مطران؟».

«العمل... لا، منذ سنة تقريباً. ولكني كنت أزور المدينة من خمس سنوات. كنت جندياً في وحدة للرادار قريبة من هنا أثناء الحرب. وأثناء ذلك تعرفت إلى فريدة، فأخذت أزورها هنا. وبعد تسريحي من الجيش قررت الإقامة والعمل هنا، وهي عندي في الحجرة، ولكن حدث خلافنا... والباقي أنت تعرف... ثم أخذ يغالب دمعة كادت تطفر من عينه».

كانت الريح تعصف وتشتد بقوة، وهي تصفر في السطوح والشقوق، والظلام يهطل بسواده على شارع أحمد أفندي، بينما

مكتبة الفكر الجديد

أخذت الأضواء تأتيني من النافذة بخفوت، فتحرك تيمور وفحص الشاي، ثم تحرك نحو النافذة وأسدل الستائر، واقترب من المدفأة وأخذ يزيد النار فيها، قلت له:

«اليوم الجو بارد». فهز رأسه وقال:

«نعم، والمشكلة أن علي أن أذهب اليوم وأبيت في الموصل، فقد طلب مني صاحب المتجر أن أجلب بعض العطور من هناك».

كان تيمور يتحدث عن شيء مخيب للآمال، ومع ذلك لم أجد كلمة واحدة مشجعة، فقلت له:

«ستذهب بهذا الطقس؟». وكنت أفكر بالمقاييس التي يستخدمها هو، كنت أفكر بالعودة إلى موضوع فريدة، فقال لي: «العمل يتطلب ذلك... مع أنه لا يدفع ما يكفي».

لم يكن مستحيلاً أمر العودة إلى موضوع فريدة فقلت له:

«اسمع تيمور، لم يكن لي دخل في موضوع فريدة، هل تعرف؟ كانت ريزان قد طلبت مني...» ولم يدعني أكمل، أخذ يتحدث وهو يصب الشاي في الأكواب على الطاولة الصغيرة التي تفصل بيننا.

«أعرف الموضوع، لا موضوعك ولا موضوع ريزان، إنه موضوعي. كانت فريدة تريد مني أن أتزوجها فرفضت. إننا نعيش هنا، فماذا ينقصها؟».

مكتبة الفكر الجديد

قضيت ساعة أو ساعتين في حجرة تيمور وهو يتحدث عن فريدة، يتحدث وكل عصب من أعصابه كان متوتراً، وكأنه على وشك الانفلات، يتحدث بصوت قاس وكأنه يريح شيئاً متوثباً في نفسه. كان وجهه يتخذ هيئة معذبة حائرة لأنه لا يعرف ما يريد، واللحظات التي يبتسم فيها هي حديثه عن مسراته مع فريدة، كيف كان يغادر المعسكر المحيط بتل مطران متسللاً من الأسلاك الشائكة، وهناك يرتدي ملابس مدنية يحملها معه، ويضع الملابس العسكرية في جحر محفور في التراب، ثم يتسلل خفية إلى المدينة حتى يصل الملهى، وهناك فريدة في انتظاره، تأخذه إلى حجرتها، تعد العشاء وتضعه على الطاولة، ثم يجلسان على السرير يتبادلان قبلات خفيفة، وبعد العشاء ينامان معاً على سريرها.

«في الصباح توقظني، كنت أحياناً مفلساً، تعطيني بعض المال وتوصلني حتى الباب.. لأعود إلى المعسكر دون أن يعرف أحد».

تحدث لي عن الكيفية التي تخاف فيها عليه:

«كانت لا تتمالك أعصابها فتبكي» يقول تيمور، فيجلس قبالتها ويهدّيها، ويعدها بأشياء وأشياء، وهي ليست رغبات إنما كانت تريده هو، لم تكن تريد شيئاً منه سوى أن يبقى إلى جانبها، كان هو الذي وعدها بالزواج، هو الذي قال لها نتزوج ونرحل عن تل مطران، إلا أنه لم يف بوعده:

«لماذا تيمور؟».

«مستحيل، لا أرى شخصاً إلا وأتخيل أنه في يوم كان قد نام معها».

مكتبة الفكر الجديد

كان كلامه واضحاً، كان يفكر بها بطريقة غير متسامحة، يريد منها أن تكون بغياً أصلية، فالبغي وحدها التي يمكنها أن تجذب الرجال، يريد منها أن تكون نسخة ضحلة من محظيات القرن الماضي، لكي يشتهيها، ومن ثم يتركها لفساد روحها.

«ولماذا لا تتزوجها تيمور؟» قلت له وأنا أشرب الشاي.

«أتزوجها كيف، لا أستطيع. لم أكن أول رجل ينام معها. كانت تعمل هنا في الملهى».

فأحسست بتلك اللطمة الموجهة لكرامته.

«حسناً، اتركها...». فنظر نحوي بحدة، وكأنني أريد أن أقول له اتركها لتبيت الليل عندي، لترتمي في أحضاني، شعرت به في تلك اللحظة وكأن نار المنافسة والغيرة قد تلوّت في داخله، وهذا ما كان يفسر جل سلوكه وتصرفاته، كان هنالك نوع من الانفعال العاطفي الذي يغطي وجهه، فيتحول إلى حائط ضخم من المشاعر، أحسه في كلامه الذي يتجدد في اللحظة التي يفكر بغيابها ورحيلها إلى رجل آخر، كان يفكر بالاستحواذ عليها أكثر مما يفكر بحبها، وهو ما يحياه على الدوام أولئك الرجال الذين يريدون الرقاد مع امرأة على سرير البغاء في الحجرة المؤجرة في الأوتيلات، لا يريدون امرأة إلا من الأوتيل لأنها وحدها التي تشعرهم باللذة، وحدها التي لها نكهة دعارة كاملة، فالمرأة التي تقطن تحت السقوف المشبعة بالرطوبة، والجدران المتآكلة، والتي لها رائحة الزناخة المنبعثة من الزوايا المظلمة تشعرهم بالتوحد مع روح العاهرة بالمصير، وهكذا فإنهم يحيون

حياة مزدوجة، يتزوجون امرأة شريفة لمقتضيات النفاق الاجتماعي، بينما أرواحهم ترفرف على أوتيلات بحثاً عن الاحتراق في جسد وسخ.

وهكذا كان تيمور يشعر شيئاً فشيئاً بروح الاستحواذ على فريدة، يشعر بروحه وقد وجدت طريقها، فأحبها كعاهرة في حجرة مؤجرة، ولا يشعر بالغيرة إلا حين تذهب في حجرة مؤجرة أخرى، فتقف أمامه مثل شبح ضخم، عليه أن يسحقه. كان تيمور يريد امتلاك فريدة دون أن يكون لها إرادة بذلك، لأن اللذة تنبع هنا من الزوايا الغامضة لحياته هو لا حياتها هي.

(٥٩)

نهضت من مكاني، واستأذنته، قلت له:

«أريد أن أذهب كي أتعشى». فنهض معي، ولدى الباب دعاني للعشاء عنده، شكرته. كان عليه هو الآخر أن يغادر فتركته وخرجت.

دخلت إلى حجرتي، أخذت بعض المال من حقيبتي، خلعت معطفي، وارتديت كنزة صوفية سميكة فوق الكنزة التي أرتديها، ثم ارتديت معطفي وخرجت.

هبطت السلم، كانت ريزان في صالة الاستراحة تحوك بسنارتها بالقرب من المدفأة. رمقتني بعينيها باضطراب، رمت أكوار الصوف والسنارة على الكرسي الذي يقابلها وهرعت نحوي مسرعة، اقتربت مني ثم التفتت نحو السلم، قربت وجهها من أذني ووشوشت بصوت خافت:

مكتبة الفكر الجديد

«لو جاءت فريدة هل أدعها تدخل حجرتك؟».

اضطربت. لم أعرف بماذا أجيبها، تركتها دون أن أجيبها. كانت لديّ رغبة أن أجعل الأمر يسير بشكل طبيعي، وحين خرجت كان الهواء البارد قد جمد وجهي.

فجأة خطرت لي فكرة الدخول في الملهى.

***

عبرت الشارع المعبّد بعد أن هبطت الدكات الثلاث، كانت الحديقة الدائرية التي تتوسط التقاطع مملوءة بالثلج، وهنالك كلب يسير بهدوء على الرصيف، كنت متلفعاً بالسكارف المصنوع من الصوف وقد غاص وجهي بين ياقتي معطفي، توجهت نحو «ملهى الطاحونة»، كانت الواجهة تحمل لوحة مرسومة بشكل بدائي تقليداً للوحة تولوز لوترك «الطاحونة الحمراء» وهنالك لافتة مكتوبة بالإنكليزية (night club).

كانت الأضواء الملونة تغطي الواجهة، وهنالك شخصان يقفان لدى البوابة الخارجية، بائع السجائر يرتدي معطفاً كاكياً ويلف رأسه بقبعة مصنوعة من جلد الغنم، اشتريت منه علبة مارلبورو ودخلت إلى الملهى، دعاني الشخص الواقف لدى الباب إلى الدخول، بينما اقترب مني الثاني وسألني فيما إذا كنت بحاجة لفتاة تبيت الليل معي.

دخلت، كان المكان الصاخب الذي تطغى عليه الألوان الخافتة مملوءاً بالدخان، وكانت رائحة الدفء والزناخة والكحول تكتم

مكتبة الفكر الجديد

الأنفاس، واجهتني لدى باب صالة الرقص راقصة حبلى، وقد أمسكت بيدها كأسها، أرادت أن تلاطفني فشعرت بالتقزز، شعرت بشيء أشبه بخميرة تتحرك في أحشائي، فتراجعت، دعتني للدخول، كنت أنظر من الباب إلى الطاولات التي تشغلها النساء نصف عاريات وهن يدخنّ ويمسكن الكؤوس بوجوه متعبة مصبوغة بالمساحيق، إلى الرجال وقد تعتعهم السكر فأخذوا يتقلبون على الكراسي وهم يؤدون حركات مقززة خليعة، إلى الصخب الذي تحدثه الموسيقى النشاز، وصوت المطربة المفجوع الذي يؤذي الآذان، جاءتني فتاة بعمر العشرين ترتدي ملابس فاضحة، إلا أن لكنتها لكنة قرويات الجنوب، فسألتني فيما إذا كنت أسأل عن واحدة بالتحديد، سألتها عن فريدة، فقالت:

«فريدة مدري وين... رافجها واحد وعافها».

فتراجعت للوراء، كانت لدي رغبة للهروب والانفلات من هذا المشهد، وحين وصلت إلى البوابة سمعت ضحكة قوية أطلقتها الراقصة الحبلى وقد داعبها الشخص الذي كان واقفاً لدى الباب، الصدور المندفعة للأمام، الوجوه الملونة بالمساحيق، رائحة الكحول القوية كانت تطاردني. سرعان ما شعرت بالتناقض والاختلاف بين فضاء الملهى الدافئ والملوث، وفضاء الخارج النقي والبارد.

تحركت صوب ميدان الراهبات، سرت بسرعة نحو المطعم، قررت أن أتناول عشائي في مطعم قريب بدلاً من «مطعم أبو جوني».

اتخذت الطريق القصير المرصوف بالحجارة الكلسية المؤدي مباشرة إلى المقاصف والمحلات والمتاجر المشيدة بطراز حديث، الواجهات الشاهقة المطلية باللون الأرجواني الزاهر المبقع بألوان فاتحة، الفاترينات التي تعرض البضائع المتنوعة، بضائع مستوردة، بضائع محلية، بضائع مهربة:

عطور فواحة أريجها يتخلل النسمات الباردة، أزياء حديثة، أدوات ماكياج معروضة في الفاترينات... وكان الميدان مازال مزدحماً بالعربات والباعة والضجيج، بينما كان المطعم القريب من الساحة مفتوحة أبوابه على مصاريعها، دخلت.

كان مطعماً صغيراً ونظيفاً ومضاءً جيداً، جلست على طاولة بعيدة عن زجاج الواجهة، فخف نحوي النادل، طلبت لحماً مسلوقاً وقليلاً من الخضرة، وبعد أن وضع صحون الطعام أمامي، سألني فيما إذا كنت أريد أن أشرب الشاي مباشرة بعد الطعام أم أريد شيئاً آخر.

كنت ألتهم الطعام دون شهية، ذلك لأن ذهني كان مشغولاً بشيء آخر، وقبل أن تفرغ الصحون دفعت للكاشيير لدى الباب وخرجت.

اتجهت صوب الأوتيل، كانت عربة الحوذي محمد متوقفة هناك.

(٦٠)

صعدت الدكات الثلاث مسرعاً، كان الحوذي يقف أمام ريزان ويتحدثان، قالت ريزان بصوت عال:

مكتبة الفكر الجديد

«هذا المامو ستا جاء...». فالتفت الحوذي نحوي وهو يفتل شاربيه.

«ماموستا، يريدك القاشا الآن»، فتقدمت نحوهما، سلمت على ريزان التي كانت تحك بظفرها الطويل صفحة خدها، وتفغر فمها مثل عاهرة، والتفت إلى الحوذي:

«أينك محمد؟ أنت غايب». ففزّ وأخذ يتكلم ويؤشر بيديه الطويلتين «لا ماموستا، جئت عليك وأنت ما كو.. بعدين الثلج ما ممكن آجي».

«الآن يريدني القاشا؟». قلت باستغراب، فقد كان الظلام والبرد يشتدان بصورة فظيعة، ومن المستحيل أن أصل إلى تل مطران ثم أعود إلى النبي دانيال.

«بلى ماموستا، هسه».

خرجت معه، تمسكت بقائمة الربل وصعدت، كان البرد شديداً، ومصباح الربل يكشف منطقة صغيرة بسبب الظلام والرياح، وكان الحصانان يخبان على الطريق المعبد ويحدثان صوتاً متناغماً.

لم أكن قادراً على التفكير إنما انشغلت بتدفئة نفسي حتى وصلنا إلى منزل القاشا.

(٦١)

كانت الصالة مضاءة ومدفّأة جيداً، ونار الوجاق شديدة، والقاشا يجلس قبالتها ويمسك بيده مجموعة من العدسات والمبارد، وهو

مكتبة الفكر الجديد

تسليته الأثيرة، بينما كانت جولي تعلك وتنظر نحوي بعينين حاقدتين، وحين خلعت معطفي واللفاف والقفازات تناولتها مني بصورة تفتقر للتهذيب وعلقتها وهي تعلك بصورة ثابتة، لقد غيرت لهجتها معي:

«متعشي؟». هززت رأسي بالإيجاب، وأنا أتحاشى النظر بعينيها مباشرة.

«رمشوخن طاوة قاشا». قلت له وأنا أتقرب نحو الوجاق الذي كان يطلق شرارته اللامعة على السجادة.

«رمشوخن طاوة رابي، كنت بعثت عليك وقالوا لي أنت لم تبت في الأوتيل فانشغلت عليك، ثم عرفت في الصباح أنه أنت كنت في دعوة مع شخص آخر».

«لا قاشا أنت متوهم، لم يدعني أحد».

«لا تقل متوهم، ليس من السهل علي أن أتوهم. أنا لا أقول الأشياء غير المتأكد منها. شخص اسمه شميران، أليس كذلك؟». كانت عيناه تتلاقطان بسخرية عجيبة «ثم جئت هنا على ما أعتقد، قالت جولي، وكنت على طبيعة مختلفة نوعاً ما. كنت تتصرف معها بصورة..».

قلت في نفسي: «افترتْ علي جولي بأني تحارشت بها إذن».

«لا تستغرب». قال القاشا ونهض من مكانه ثم قال: «وقضية تيمور وفريدة؟».

مكتبة الفكر الجديد

كنت أنظر نحوه وأنا صامت، استدار دورته المسرحية والتفت نحوي: «والبنت الأرمنية بياتريس؟».

«من بياتريس؟» سألته بصورة محتجة.

«الأرمنية... شابة قصيرة تعمل مع والدها في متجر للبن».

«لا قاشا، بياتريس؟ لا. هذي تتوهم أشياء لم تحدث» قلت له وكانت لدي رغبة في تكذيبه أو تكذيبها بكل قوة، فضحك وهو ينظر نحوي ضحكات قصيرة متقطعة وقال:

«تحتج لأنها مع بياتريس لم تحدث؟ ستحدث رابي. ما هو المانع؟ ستحدث. الإنسان إذا تعلم واحد في واحد سيتعلم جدول الضرب كله. ليس هنالك من فرصة للتراجع. هنالك على الدوام بداية ولكن النهايات غير محدودة. كل شيء يبدأ بالخطوة الأولى. لن تنتهي خطوات الإنسان، سيقول بس هذي المرة وبعد بس.. لكن المرة الواحدة هي اللانهاية. وسيركض وراء هذه اللانهاية وهي تركض أمامه. يركض كي يمسك بها وهي تركض وتركض. لن يقبض عليها».

وهجم علي بصوته المدوي وحركاته المسرحية، كان يصرخ ويضرب جبينه بيده، يصرخ «لا، اللذة الحسية لا.. هذا ليس انتهاكاً، هذا انغماس بالقذارة والوحل».

* * *

مكتبة الفكر الجديد

لقد رسم لي الأشياء الأكثر سواداً بفرح يستشيط غيظاً، كانت تنبعث وراء كلماته حمّى من السرد، الطبيعة الكريهة للمثقف، القذارة والوهن للروح التي تمتلك أفكاراً، الطبيب الصغير الذي يكذب على المحتضرين، السرد الطويل والممل لخطر حمّى الحواس، وعند ذاك تحدث عن الصور الجريئة للانتهاك كما يفهمه، كان يكبِّر الأشياء بأبعاد عديدة ومتنوعة، وكان كل شيء لا ينتمي إلى المثال الأخلاقي فهو باطل وعديم الجدوى، ولكن الأخلاق التي يطلبها هي أخلاق تدمير العثة، وهم الجهلة والعاهرات والسوقة والمكارية والعتالين والموظفين وحتى السياسيين والمثقفين، ثم قفز من مكانه:

«لنصغِ إلى الكائنات وهي تغني.. لقد أفسدتنا البلاغة».

فيتحدث عن امرأة ساومت شاباً وسيماً بمهارة، وحين أمضت ليلتها معه صامتة راحت لتستحم بكل برود في النهر، ثم انطلقت صبيحة اليوم التالي إلى المدينة لتقضي على ذكراه. كان يقول «هذه الشهوات مرضية، لا يقرن الحب إلا بالموت والانتحار». كان يقول: «اللذة، نعم ستورثك الكآبة والحزن. كل لذة ستورثك..». ثم راح يمجد بدلاً عنها البطولة والمجد، الروح الكبيرة القادرة على كل شيء، حتى على محو العالم:

«عليك أن تميز بين انتهاك العامة، وهو انتهاك حسي، وانتهاك النخبة، وهو انتهاك أخلاقي، لا تعاد الأخلاق الكبيرة إلا بعد تدمير وتخريب كبيرين. عليك أن تتقشف. ليس هناك من لذة كبيرة إلا بعد تقشف كبير».

مكتبة الفكر الجديد

(٦٢)

إن ما يميز كلمات القاشا لا ميتافيزيقيتها، إنما أخلاقيتها، تلك البضاعة الغاضبة على كل شيء، البضاعة الثائرة على عالم كثيف متقهقر، النباح على غياب الروح، على الأفكار الخلاعية الدنيئة والمعتوهة.

يصمت ويصرخ: «آسيا، آسيا، متى تعودين إلى التاريخ؟ لقد نمت كثيراً وهذا يكفي».

لقد اكتسحني مرة أخرى بأسلوبه المهذار، وبفزعه الأخلاقي أمام حماسة العالم، وكان يركض بثوبه الفضفاض نحو المكتبة يقرأ علي المقاطع ثم يرمي الكتاب على الطاولة، ويتحرك نحوي ويداه مرفوعتان إلى الأعلى، صورة الحطاب الآسيوي القديم في الغابة وهو يطلق الموعظة اللاهبة على الأشجار:

«آسيا، هي التي ستجدد شباب البشرية. آسيا وحدها...» ثم يضيع صوته بفمه، يقترب مني وكأنه على خشبة مسرح ويقول بصوت منغم: «العنف، العنف وحده درس العالم الكبير».

ثم تعرض لمدائح البطولة، التحام الشهوة والمجد: «العظمة، عظمة الإنسان وهو يغني على موتها».

كان نشيده قاسياً، مرعباً، ومسرحياً بالمرة، الصوت المموج، ارتفاع الذراعين وانخفاضهما، صعود الرأس إلى الأعلى وارتجاف الأردان أمامي، والحركة السريعة للممثل على خشبة المسرح ووقوفه المفاجئ أمام فكرة تطرأ للتو على ذهنه، يقف ويتكلم، يتحرك صامتاً، ثم ينفجر صراخه على آمال راحت عبثاً،

وأفكار قتلت، وليس هنالك سوى السريالية التي ستحقق التمظهر الأخير للمخلِّص.

(٦٣)

لقد شعرت بخدر كبير في أطرافي حين خرجت من منزل القاشا، كان محمد الحوذي نائماً في العربة وقد غطى نفسه بالبطانيات، بينما كانت لديه رغبة كبيرة بزيارة شميران في قصرها، فلم أوقظ الحوذي ليأخذني إلى الأوتيل إنما هربت بخفة، وضعت يدي بجيبي معطفي وأحنيت رأسي لأغطيه بياقتي معطفي وسرت بخفة نحو الشارع المؤدي إلى الميدان.

سرت بسرعة، كانت لدي رغبة كبيرة بلقائها، شعرت بقوة تدفعني نحوها، كنت أتخيلها وقد ارتدت ملابسها الأنيقة والعطر يفوح من جسدها، وصنابير الماء تدفع بالبخار من الحمام بقوة ونحن نتعرى بشكل مفضوح في حجرة نومها.

وحين وصلت إلى الطريق المؤدي إلى القصر تراجعتُ، لكني رأيت من بعيد أضواء القصر، ومظلات الحراس المضاءة، والكلاب تركض في الشارع الواسع المعبد وتعود إلى الوراء.

تراجعت إلى الخلف، فكرت بالبائعة الأرمنية بياتريس، لو كانت موجودة فهي فرصتي الحقيقية لإشباع رغبتي، كانت البطولة التي تحدث لي عنها القاشا تتحول في نفسي إلى بطولة أخرى، بطولة إشباع حواسي ورغباتي وسط مخاطر كبيرة دون هبوط إلى القاع.

كانت بياتريس تتجسد لي على نحو آخر:

مكتبة الفكر الجديد

ظلام متجرها في الليل، رائحة البن منبعثة من الصناديق والعلب المعدنية النظيفة، عذريتها المشبوبة، والرغبة المشتعلة تحت بنطلونها الضيق، كنت فكرت بصدرها البض المنتفض، فكرت بعينيها السوداوين المتوهجتين، فكرت بلمسة يدها وذراعها، بالزغب تحت إبطيها، بمراهقتها التي ستتوهج، براءتها تحت جسدي (ماذا أفعل..؟) شعرت بجسدي وهو يحمى، وأقدامي وهي تهتز وترتعش.

سرت بسرعة عابراً مقاصف الأطعمة والمتاجر، قاصداً الطريق المؤدي إلى ميدان البازار كي أستقل سيارة من هناك، ما أن اخترقت العطفة الصغيرة حتى تناهى إلى سمعي خطوات متناغمة مع خطوات متثاقلة بوقع جاف لكعوب حذاء تصدر رنيناً خفيفاً خلفي.

شعرت بعينين حادتين مصوبتين نحوي، فتوقفت كي أتأكد من متابعتها لي، فتوقفت الخطوات، وانحبس الصوت تماماً.

عدت فسرت بخطوات أسرع فتبعتني الخطوات مضطربة في المرة الأولى إلا أنها سرعان ما ضبطت إيقاع خطواتي بنفس السرعة تقريباً، فأدركت لحظتها أن الخطوات تقصدني، فاجتاحتني موجة من الخوف، وشعرت بشعر رأسي الذي توقف ينخزني كالدبابيس، وقبل بلوغ مفترق الطرق التي يقود أحدها إلى الميدان كانت الخطوات قد اجتازتني، فتوقفت فجأة وقد اكتسحتني موجة رعب.

امرأة تسير، امرأة طويلة، جميلة، تضع إيشارباً أسود على رأسها متوافقاً مع الملابس المحلية الأنيقة التي ترتديها: وشاحاً من

المخمل الأزرق الفاتح ملفوفاً على خصرها، وثوباً لماعاً مخرماً ومذيَّلاً يصل إلى الساق، جوارب صوفية مصنوعة من الموهير متناسبة مع الحذاء الأسود، كانت كعوبه تصدر رنيناً متوحشاً وغرِيباً في الخلاء، سارت أمامي بخطوات متناغمة وأردافها تتحرك بقوة مع الخطوة الواثقة، ثم أرخت الإيشارب ليسدل على كتفيها العريضين المضغوطين تحت السترة المخمل، كانت جميلة ومغرية.

(٦٤)

أخذت أسير وراءها، كانت مؤخرتها ترتفع وتهبط بصورة مغرية، كنت أريد اللحاق بها، كنت أرقب حركاتها بصورة متواصلة، وقد اشتعلت في داخلي الرغبة بها، وبعد ذلك انحرفت عن الرصيف وغاصت قدماها بالثلج واتخذت طريقاً آخر في الظلام فتبعتها، وحين شعرت بوجودي وراءها توقفت ونظرت نحوي، فتوقفت أنا أيضاً.

انحنت لتلقط غصناً صغيراً من على الأرض البيضاء، وأخذت تكتب به على الثلج بهدوء وهي ترفع رأسها نحوي وتخفضه بصورة منتظمة، فأدركت لحظتها أنها تكتب رسالة موجهة لي، وبعد أن انتهت ألقت بالغصن الصغير وتابعت سيرها على كثبان الثلوج التي تغطي الأرض.

هرعت نحو المكان، مكان توقفها، ووقفت عند الغصن المرمي على الثلج وآثار قدمين غائصتين في الندف الأبيض، وأخذت أتبين دائرة مرسومة، وفي وسطها كلمات بحروف كبيرة:

«اتبعني، لدي أمر مهم معك، أنا إيلين زوما».

مكتبة الفكر الجديد

(٦٥)

سرت وراءها.

كانت قد دخلتْ إلى زقاق شبه مظلم، فهرعت وراءها متحاشياً عمود الكهرباء الكائن في أول الزقاق، لأن مصباحه كان يضيء الجهة اليمنى من الطريق بمثلث أصفر يضع الظلام الحالك، كان الضوء يكشف عن الضباب الأبيض الهابط من السماء إلى الأرض.

توقفتْ إيلين منتصف الزقاق، أمام منزل أصغر من المنازل التي تجاوره وأوطأ منها، وقفتْ ونظرتْ نحوي وحين تأكدتْ من أني عرفت المنزل دخلتْ بعد أن فتحتْ بوابة الحديقة على مصراعيها.

أخفيت وجهي بين ياقتي معطفي كي لا يعرفني أحد، أحنيت رأسي قليلاً وسرت على عجل في الظلام، توقفت أمام المنزل الذي أشعلت إيلين النور في صالته المطلة على الحديقة، كانت البوابة الخارجية مفتوحة على مصراعيها، وقد قادني ممر الحديقة النظيف ببلاطاته المخلعة إلى باب الصالة، كانت البلاطات ملونة وقد أحدثت صوتاً مكتوماً حين سرت عليها بحذائي، أما الحديقة فقد كانت متروكة وقد نمت الأعشاب في كل جوانبها، وواجهة المنزل بسيطة كما تبينتها وسط الظلام.

دفعت باب الصاج الذي تركته إيلين وراءها موارباً ودخلت الصالة المضاءة بالمصابيح.

أخذت إيلين ترد الستائر على النوافذ دون أن تكلمني، فخطوت

مكتبة الفكر الجديد

خطوات نحو المنضدة الموجودة وسط الصالة المفروشة بالسجاد، خلعت معطفي ورميته عليها، فاستدارتْ إيلين دون أن تنظر نحوي، خلعت الإيشارب الذي كانت تلف رأسها به ورمته على الأريكة العريضة المغطاة بالقماش القديفة والوسائد الساتان المطرزة، ثم تحركتْ نحو الزاوية البعيدة، وأخذت تشعل المدفأة النفطية الكبيرة.

(٦٦)

جلست على الأريكة، خلعت قفازاتي وأخذت أقرب يدي من فمي وأنفخ عليها، وأنا أنظر إلى إيلين التي استدارت نحوي دون أن تقول شيئاً وجلست على الكرسي الذي يقابلني. وضعتْ وجهها بين يديها ثم رفعت عينيها ببطء، ونطقتْ بصوت شبه مبحوح: «حسن رابي، أنا إيلين زوما».

في الواقع لم أر في حياتي امرأة بهذا الجمال، لقد كانت جاذبيتها غريبة، وكل شيء فيها كان متناسقاً تناسقاً تاماً: العينان السوداوان، الرموش الطويلة السود بسواد السورمة، والشفتان الكبيرتان اللتان تكشفان عن أسنان بيض ببياض الثلج، أما شعرها فقد كان فاحماً وغزيراً وهو ينسدلِ على كتفيها.

«أنت تريد أن تعرف كل شيء رابي، أليس كذلك رابي؟».

«أبداً لم أفكر بهذا إيلين». قلت لها مباشرة، وكنت صادقاً في ما قلت، لم أفكر على الإطلاق بالحديث معها عن حياتها، وما جعلني أتبعها هو سبب آخر، سبب لم أكن قادراً على مصارحتها به، ومع ذلك فقد عرفته إيلين مباشرة:

ابتسمتْ ابتسامة حزينة وهي تهز برأسها وقالت: «ربما فكرت بي مثلما يفكر بي الآخرون».

وهذا واقع حال، ولذلك فقد وافقتها: «بالضبط إيلين هذا ما جاء بي».

كانت لي رغبة أن أقول لها إن الرجل لا يفكر بالمرأة إلا من نقطة محددة، من نقطة جسدها بالضبط، الرجال لا يفكرون إلا بغرائزهم ورغباتهم، إنهم كتلة من اللحم الهائج والمتوثب في كل لحظة، قوة عمياء هائجة يمكنها أن تسحق كل شيء أمامها، ومع ذلك لم أقل لها شيئاً إنما سكتُّ أول الأمر وبعد ذلك قلت لها: «حسن إيلين، أنا أريد سماعك، على الأقل أعرف ما تريدينه مني».

لقد شعرت أن من دواعي الأخلاق أن أستمع إليها، أن أعرف على الأقل ما تريده مني، ومن غير المعقول أن أصر على أسبابي وقد تهدمت بكلمة واحدة منها وما علي سوى أن أستمع إلى أسبابها، مع أني في داخلي لم أكن قادراً على نسيان رغبتي أمام هذا الجسد الذي تكفي لمسة واحدة لإشعاله. وقد أحسست بأن إيلين هي الأخرى كانت قد شعرت بنوع من الخيبة مني، خيبة أطلقتها فيها صراحتي، ومع ذلك كانت رغبتها بأن تتحدث لي عن نفسها جامحة، مهما كانت أسبابي، كانت تريد أن تتحدث عن نفسها:

«رابي أنا ميتة...» هذه هي الجملة الأولى التي نطقتها ايلين أمامي. «أعرف، أعرف أنا ميتة، لذلك أريد أن أعترف».

«أنا لست قاشا إيلين».

«أعرف، لو كنت أريد أن أعترف لقاشا لكنت اعترفت. لكني أريد أن أعترف لك لأنك نخرايا. كل تل مطران تتحدث عن خيانتي، والكل يصدق ذلك حتى القاشا. ويهمني أن يعرف ولو واحداً على الأرض بأني بريئة. أريد أن أعترف لك رابي... أنا ميتة. زيا راح يعود بعد يومين. وراح يقتلني لأنو مقتنع...» خنقتها عبراتها وسكتت. كان يمكنني أن أنسى كل شيء، كل ما قالته إيلين ولكني لم أكن قادراً حتى اليوم على نسيان هذه الجملة، لقد مرت سنوات طويلة على هذه الحادثة ومع ذلك فأنا أستحضرها الآن وكأنها قد حدثت للتو، لا بسبب أهمية هذه الجملة، أبداً، إنما للطريقة التي قالتها بها إيلين، لقد خلعت فؤادي بحزنها، خلعت فؤادي لأني لم أكن قادراً على احتمال هذا الحزن والضعف من امرأة كان الجميع يتحدث عنها وكأن لها قوة الشيطان ذاته.

«حسن، سأسمعك إيلين». قلت لها.

عيناها السوداوان كانتا تتلاقطان بعمق، ملامحها الجميلة قد هدأت تماماً، بينما احمرّ خداها بفعل الحرارة المنبعثة من الوجاق، صمت قصير ثم جاءني صوتها بنبرة أخرى:

«أنا أحب زيا من كل قلبي» ابتسمت، وكأنها تحلم فسألتها مباشرة:

«وأخوه؟».

نظرتْ نحوي وهزتْ رأسها: «لا رابي... كنت عرفت يوسف قبل زيا صحيح، لكني لم أحبه. لم أعده بشيء. كانت معرفتي به لأسبوع فقط...» فقاطعتها: «والخرزة إيلين؟».

مكتبة الفكر الجديد

«أعطيته الخرزة هدية صحيح، أنا ما أنكر. ما كنت أعرف. غلطت رابي من أعطيته الخرزة؟ بعد أسبوع رأيت زيا، فشعرت بأن هذا هو الشخص الذي يريده قلبي».

«كيف إيلين؟». قلت لها.

«بعد أسبوع رأيت زيا. كان يحمل نفس الملامح التي يحملها يوسف لكنه أحلى بكثير» وابتسمت.

«نسخة معدلة» قلت لها.

ضحكت إيلين وقد غطت عينيها سحابة من الدموع وقالت: «نعم أحياناً ترى المرأة رجلاً يعجبها لكن ينقصه شيء لا تعرف ما هو. وبعد أن ترى أخاه مباشرة تعرف أن هذا هو المقصود». صمتت قليلاً ثم قالت:

«حين رأيت زيا عرفت أن له كل الملامح التي يحملها يوسف ولكن زيا أحلى بكثير، فجذبني وأحببته في اليوم الذي رأيته فيه. ولكن يوسف لم يترك لي فرصة، علق الخرزة على عنقه ليدلل على أني خنته، وأنا لم أخنه. رحل إلى الشيخان وانقطع عن الناس في مغارة جبل».

«وهناك تعلم السحر» قلت لها.

«نعم، تعلم السحر على يد كردي اسمه ملا حفيز».

«إلاّ أنه يحبك إيلين».

مكتبة الفكر الجديد

«هذا ما ذنبي. كل تل مطران تحبني. لو عناني أمره لعناني أمر الآخرين».

«ولكن الأمر مع يوسف مختلف».

«نعم مختلف لأنه الأخ الأكبر لزوجي. شئت أم أبيت فهو من العائلة. راضية أم مكرهة الأمر معه مختلف. حين تتزوج المرأة تشعر بأنها جزء من العائلة الجديدة، وعليها أن تصونها وتحافظ عليها وأن لا تكون سبباً في تشتتها. بلى رابي، يوسف خوري شيء مختلف عن كل الباقين في تل مطران. لذلك أقنعت زيا أن يبحث عنه وأن يعود به إلى البيت أخاً له. وبالفعل اقتنع زيا وراح شهرين وهو يبحث عنه في جبل الشيخان مع دليل كردي وواحد مهرب من تل مطران اسمه ياقو حتى لقوه هناك. حاول أن يقنعه بس يوسف عنيد. وصمم أن ينتقم مني. رفض وما عاد...» توقفت قليلاً ثم أحنت رأسها، وقالت:

«ولما رجع زيا إلى البيت حاولت أن أشرح له. أردت أن أقول له إني ما وعدت يوسف بشي وما كان بيننا علاقة مثلما هو يشيع. ولكن زيا لم يرد علي، هز رأسه ووضع إصبعه على شفتي وقال أش، فبست أصابعه وبست إيده».

«لماذا؟» قلت لها.

فأخذت إيلين تحدثني عن حياتها التي عاشتها مع زيا، لقد عاشت أسعد أيامها معه، عاشت أجمل أيامها، وقد كانت هذه هي الفاصلة الكبيرة في حياتها، لقد كانت حياتها مأساة في منزلها أيام مراهقتها، كان والداها ينظران إليها مثل فضيحة، قالت:

مكتبة الفكر الجديد

«...كان والدي يضربني بسبب وبغير سبب. وكانت والدتي تريد أن تخفي كبر صدري بأي صورة لأن تل مطران صارت كلها تلاحقني». لم يكن والدها قادراً على تحمل رؤيتها وقد أصبحت شابة، لقد كان تغيرها أمامه قد حول عواطفه إزاءها، لم يكن قادراً على تحمل صورتها، وقد برز نهداها، وتضخم وجهها، وأصبحت مثل النساء، كان قد شعر بأن براءتها قد غادرتها، فصار قاسياً عليها. وكانت والدتها تبكي الليل والنهار، تبكي لأنها تخشى منها أن ترافق الرجال، قالت إيلين:

«صار الرجال ينظرون نحوي بقوة كأنهم يريدون التهامي. حتى أصدقاء والدي كانوا ينظرون نحوي بالشارع ولعابهم يسيل. وفي المساء يأتون عند والدي في البيت ويقولون له بنتك حلوة ما تتأمن. إذا طلعت للسطح تطلع ورائي أمي. إذا وقفت بالباب كانت تجرني من شعري وتدخلني إلى البيت. إذا تكلمت بكلمة تضربني وكان والدي يدعو في الليل والنهار يقول يا رب موتها وخلصنا منها».

لقد أخذت تتحدث إيلين بسيل جارف من العواطف، كانت تتحدث عن قهرها وكأنما تتحدث عن شخص آخر، لأنه من غير المعقول أن تتصور أنها عاشت كل هذه الأحزان ومع ذلك فإنها باقية حية حتى اليوم، وكانت تصور لي كل شيء بدقة متناهية. كانت تتحدث لي كيف كان الشباب يلاحقونها حينما تخرج مع أمها، ومع ذلك حينما كانت تعود إلى المنزل كانت أمها تضربها بقوة وتتهمها بأنها هي التي جعلتهم يلاحقونها. كانت تتحدث كيف كانت أمها تتمنى أن ترى اليوم الذي تموت فيه، تحدثت لي عن والدها الذي يضربها بكل قوة وكيف كان يريد قتلها، كان

يضربها حتى تموت وهو يقول لولا السجن كنت ذبحتها وخلصت منها، وبعينين دامعتين ترفع إيلين رأسها نحوي وتقول:

«رابي ما أنسى، رابي أبداً ما أنسى اليوم الذي شعرت فيه بآلام فضيعة في بطني، ولما سألت أمي عنها أخذت تلطم على وجهها، وحين عرف والدي أخذ يرفسني على بطني ويضربني على رأسي وهو يصرخ يا ربي من أين جاءتنا هذه الفضيحة».

«لماذا؟» قلت لها.

قالت: «جاءتني الدورة الشهرية وأنا ما كنت أعرف شنو دورة شهرية. الكل كان يضربني ويريدني أموت وما كنت أعرف السبب».

صمتت أول الأمر مختنقة بعبراتها ثم سحبت الشال المرمي على الأريكة ومسحت عينيها، ولكي أقلل من ألمها، وأخففه قلت لها: «ثم مات والدك، أليس كذلك؟».

لقد أصبحت أكثر راحة وكأنها شعرت بسعادة لاستعادتها ذكرى موته:

«نعم وفرحت. كانت أيام العزاء أيام عيد. وبعد أسبوع خرجت من المنزل. أسير في الشوارع وأنا أشعر براحة كبيرة. وحين عدت إلى البيت صرخت والدتي بوجهي فصرخت بوجهها. ضربتني فضربتها».

«ولهذا أحببت زيا؟» سألتها.

مكتبة الفكر الجديد

«نعم أول مرة شعرت فيها بأن صدري مو عيب، وجسمي مو عيب. زيا كان يلبسني الملابس الضيقة لأنه يفتخر بجسم مثل جسمي».

لقد تذكرت أيامها مع زيا وهي تبتسم، رفعت عينيها إلى الأعلى لكي لا تلتقي أعيننا مباشرة وأخذت تتكلم بهدوء عن أيامها معه، لقد تحدثت لي عن كل شيء وبرقة وحنان كبيرين، لقد تحدثت لي عن الكيفية التي كان يعاملها بها وكيف كانت تحبه من كل قلبها لأنه عوضها عن الأيام الحزينة السوداء التي عاشتها مع والدها ووالدتها، كانا ينامان على مئزر الصوف في هذه الصالة التي كنا نجلس فيها، كانا يشعلان المدفأة ويتدفآن عليها.. فشعرت بالهدوء والرضا والراحة وقد سمنت ورضيت وارتاحت.

«رضيت وبان الرضا على وجهي. صرت أنام مرتاحة. قبل كنت حادة المزاج وأعصابي تعبانة. بعد الزواج صرت هادية ومرتاحة. كنا نقعد بالمرجوحة في الحديقة، أو نتطلع من الشرفة المفتوحة ونحن نشرب العصير، وكان زيا يريد كل الناس تشوفنا ونحن قاعدين نتكلم ونضحك».

سألتها مباشرة «ولكن ما الذي تغير بعد ذلك؟».

«لما راح للجبهة في الحرب تغير كل شي».

«كيف؟» سألتها.

لم تجبني أول الأمر، ذهبت إلى المطبخ وجاءتني بأقداح الشاي، وصبت لي في قدح مذهب وقدمته لي، كانت قد تغيرت قليلاً،

مكتبة الفكر الجديد

كانت هذه الفاصلة القصيرة قد غيرت من عواطفها وصارت أكثر صفاء وأخذت تتحدث لي عن حياته في الجبهة وكيف كان يأتي إليها بالشهر مرة واحدة لمدة أسبوع ما خلا أيام الهجوم، فقد كان يتأخر شهرين وأحياناً ثلاثة أشهر، وكيف كانت تقضي الوقت كله بالتفكير فيه، لقد كانت تنتظره من يوم ليوم، كانت تنتظره لحظة لحظة، وحين يأتيها كانا يمضيان الإجازة كلها معاً، لم يتفارقا قط، لقد ترك زيا أصدقاءه وأهله ومعارفه، وأخذ يقضي وقت الإجازة كله معها إلى أن يعود إلى الجبهة، وكانت هي تودعه حتى المحطة، لم تكن تريد أن تضيع ثانية واحدة من الإجازة من دونه، وحين تعود إلى المنزل تبدأ بعدّ الأيام والليالي دونه يوماً بعد آخر، حتى يحين يوم الإجازة فتعدّ له عشاءه وفراشه، وملابسه الداخلية، وبرنص الحمام وتعطر له فراشه، يبقى أسبوعاً ثم يعود إلى الجبهة.

«ولكن هذا الفراق يقوي الحب، أليس كذلك؟» قلت لها.

«نعم، نعم في الجبهة كان يكتب لي الرسائل من هناك».

كنت أسأل عن شيء محدد، ولكن إيلين لم تكن تنتبه إلى طبيعة كلامي، كانت تريد أن تتحدث هي، كانت تريد أن تستسلم لخيالها، أن تستسلم للماضي ولا تعود منه أبداً، فأخذت تتحدث لي عن انتظارها المحموم لرسائله، وكيف كانت تهرع من منزلها وهي تتعثر حينما تسمع صوت الدراجة البخارية التي يقودها الجندي وهو يحمل البريد العسكري من الجبهة إلى عائلات الجنود، تقول:

«يأتي البريد العسكري يحمله الجندي على دراجته البخارية إلى تل مطران، ونركض وراءه، كل نساء تل مطران يركضن وراءه، وأنا

مكتبة الفكر الجديد

اركض معهن، وفي كل مرة كانت لي رسالة طويلة. ولا مرة عدت دون رسالة طويلة منه. كنت أقضي الوقت كله وأنا أقرأ رسائله. كنت أقرأ الرسالة الواحدة مئات المرات. كنت أحفظ كل كلمة فيها، وكان هو يكتب لي عن كل شي ويقول لي إنه يفكر بي طوال الوقت الذي يقضيه في الخندق، ويطلب مني أن ما أخاف عليه لأنه في القطعات الخلفية، جندي في قلم السرية وهو في أمان. ولما كان يأتي بالإجازة كنت أسأله بالتفصيل عن كل ما حدث خلال الشهر».

(٦٧)

كانت إيلين تسرد لي التفاصيل وبدقة، وحين يفوتها شيء كانت تعود لسرده من النقطة الأولى، فكل شيء كان ضرورياً في قصتها، ولم تنس أن تتحدث لي عن تأخر زيا مرة أكثر من شهرين عند الهجوم على البصرة، فقد كان الهجوم شديداً وقد منعوا الإجازات تماماً وكلما كانت تأتي جنازة إلى تل مطران يغمى عليها وتسقط على الأرض، لأنها كانت تظن أنه هو.

«لم أحتمل فقررت أن أذهب وراءه إلى الجبهة. أخذت القطار الذاهب إلى البصرة، لم أكن وحدي، طبعاً كان معي كثيرات، زوجات الجنود وأخواتهم وأمهاتهم. ملأنا القطار ذلك اليوم. كل العائلات راحت في القطار. وأنا أيضا أخذت معي كل ما يحتاج له، طعامه، وشراشفه، ومناشفه... وقضيت الوقت في القطار مع زوجات الجنود. كل واحدة كانت تتحدث عن زوجها أو تتحدث عن ابنها».

«نعم حينما كنت جندياً في الجبهة كنت أرى الزوجات أيام الهجوم يتجمعن عند الخطوط الخلفية ويسألن عن أزواجهن. ولكن هل تركوك تصلين إليه؟» قلت لها.

مكتبة الفكر الجديد

«لقد منعونا. قالوا القصف شديد. ثم اتصل الضابط بوحدة زيا وأحضروه لي. ولما رآني جن جنونه وأخذ يصرخ علي بعصبية. لكني بكيت وأنا فرحانة لأني رأيته سالماً، ووعدته بأن ما أسويها مرة ثانية».

***

ثم أخذت إيلين تتحدث لي كيف كانت تنسج له الجوارب الصوفية والبلوزات واللفافات الكاكية كي يأخذها معه إلى الجبهة ويفكر فيها كما كانت هي تفكر فيه، وتفكر بحياته لكي يتخيلها كما كانت تتخيله، وكانت تريد منه أن يعرف عنها كل صغيرة وكبيرة مثلما كانت هي تريد أن تعرف عنه كل كبيرة وصغيرة. كانت تقول إنه كان يقول لها بأنه هو أيضاً يفكر فيها مثلما هي تفكر فيه ولم يكن ينساها إلا حينما يلعب الكوتشينة.

«الكوتشينة؟» قلت لها مندهشاً.

قالت: «نعم الكوتشينة. كان يحب الكوتشينة ولم ينقطع عنها إلاّ عندما تزوجنا. كنت أسمي الكوتشينة ضرتي، ولكنه تركها».

في الواقع لم أكن أدرك تلك اللحظة أهمية هذا الموضوع بالنسبة لها، إنما كنت أظن أنها من حبها له كانت تحاول أن تستعيد التفاصيل التي تتعلق به، كانت تريد أن تستعيد أي شيء يتعلق به حتى لو كان هذا الشيء تافهاً، فهو مهم طالما يخصه، كانت تريد أن تستعيد التفاصيل كي تشعر بأنها قريبة منه، لتمسك به بكليته، بلحمه ودمه وأوهامه وخيالاته، كانت تريد أن تكون قريبة منه،

مكتبة الفكر الجديد

كانت تريد أن تعرف ما كان يحب وما كان يكره، لكي تحب ما يحب وتكره ما يكرهه، ولذا فإنها كانت تصر على أنه حين ترك الكوتشينة غمرتها سعادة كبيرة، لقد شعرت بأن وقته قد أصبح كله لها، لها وحدها هي، ولم يعد هنالك من أحد يشاركها به ولا حتى الكوتشينة التي أحبها، وحين ذهب إلى الجبهة، عاد ليلعب مرة أخرى لأنها تسليته الوحيدة.

قال لها معلِّلاً، ماذا يفعل من الصباح إلى المساء في الجبهة، هنالك وقت فراغ كبير ولا سيما أنه في الخطوط الخلفية، فقرر أن يلعب الكوتشينة لكي لا يضجر، فحدثتني إيلين عن فرحتها لأن زيا كان يقضي وقته في الجبهة بشيء يحبه، ولكنها لم تكن تعرف حتى ذلك الحين أن الكوتشينة هي التي ستسلبه منها إلى الأبد. وحين سألتها «كيف؟». أخذت إيلين تتحدث لي كيف أنه لعب مع أحد الجنود فتشاجرا، ولأن زيا كان على الدوام عصبياً بسبب فراقها لم يحتمل إهانته، فضربه على وجهه، وكسر له فكه وأسنانه الأمامية، وحين أخذوه إلى المحكمة هرب في الطريق، وعاد إلى المنزل.

وبعد فترة صمت تغير صوت إيلين ووجهها، أجهشت في البكاء فناولتها منديلي الذي مسحت به عينيها ثم استأنفت حديثها.

أخذت تتحدث لي عن بعض الأشياء الجانبية ثم عادت وأكملت لي القصة، وأخذت تتحدث لي عن تفاصيل هربه، وكيف جاءها في يوم ممطر بعد أسبوع من ذهابه إلى الجبهة، ولم تكن تتوقع عودته، وفي منتصف الليل سمعت ضربات عنيفة على الباب وهو يصرخ بها، «افتحي الباب، افتحي الباب».

مكتبة الفكر الجديد

وحين فتحت له فزعت من منظره، فقد كان غاطساً في الوحل من رأسه إلى قدميه، كان وجهه شاحباً، وهو يرتجف من الخوف ومن البرد معاً، فخلعت عنه ملابسه وغطسته في الماء الساخن، ونشفته وعطرته مثل طفل، وأجلسته أمام المدفأة، ووضعت في يده كوب القهوة، أجلسته بالضبط في مكاني، وأشارت إلى المكان الذي كنت جالساً عليه أنا . وسألته عن سبب مجيئه:

«قلت له: هل أنت مجاز؟ مأمورية؟» قالت ذلك وكأنها تسألني، ثم قالت وهي تهز رأسها:

«قال لي لا، وتحدث لي عن شجاره مع العريف بسبب الكوتشينة وهروبه من الانضباط. وقال لي بأنه لن يذهب إلى السجن، فحاولت إقناعه...» كانت تنظر بعيني وتقول:

«لا بد أن يعود إلى السجن، حتى لو للسجن، فالمسألة ما تستاهل هروبه. الشجار سجن. يتحمل سنة أو سنتين ثم يخرج. لكن الهروب من الجيش إعدام. هل تفهم رابي؟»».

قلت لها: «طبعاً، طبعاً».

قالت: «بكيت، لطمت، وبكى هو أيضاً. قلت له: زيا ما معقول زيا. أنت تحبني صحيح. وما تقدر تفارقني. ولا أنا أقدر، ولكن مصيبة وحلت، وهي أهون مما تنعدم وتروح وما أشوفك بعد».

كانت إيلين تلك اللحظات تحدثني وهي تبكي وكأنها تحدثه: «شأسوي لو عدموك؟ من أين جاءتنا هذه المصيبة يا رب؟ وبكيت

مكتبة الفكر الجديد

من كل قلبي، فتأثر هو وبكى، وقال لي بأنه راح يسلم نفسه في الصباح إلى المخفر. وهذه آخر مرة نمت فيها مع زيا».

ثم أخذت تتحدث لي كيف حضنته على السرير ونامت معه ولكنها لم تغف لحظة واحدة، أما هو فقد نام ساعة على وجه الفجر ثم نهض، ارتدى ملابسه، وسلم نفسه إلى المخفر في تل مطران، وبعد شهر واحد فقط، حكموا عليه بالسجن، فبكت عليه إيلين:

«بكيت عليه رابي، وشعرت بالوحشة لفراقه». قالت، فسألتها: «وبعد ذلك؟».

فأخذت تحدثني عن الشائعات التي كانت تطلقها تل مطران عنها، وقد اتهموها بأنها سلمته إلى السجن، أو أقنعته بأن يسلم نفسه كي تتمكن من استقبال عشاقها في المنزل الذي أجره لها زيا، ولكنها لم تكن تكترث كثيراً بما كانوا يقولون وكانت تقول في نفسها بأنها شائعات وأن تل مطران كانت تطلق الشائعات بسبب وبغير سبب. ولكن بعد أن ظهر يوسف خوري على مسرح الأحداث أصبح الأمر مختلفا، قالت:

«كنت أسأل لماذا ظهر يوسف خوري في هذا الوقت بالذات بعدما اختفى كل هذا الوقت؟ لماذا جاء بعد سجن زيا مباشرة؟ وعرفت بأن يوسف خوري جاء لكي ينتقم مني» ثم قالت بلهجة غاضبة:

«ماكو بشر يقدر يتخيل الخبث في نفس يوسف. ماكو بشر يحمل خبث يوسف أبذ رابي، يوسف ما ينسى إساءة أحد. قلت لنفسي زيا

يحبني، وكل ما يسويه يوسف ما يقدر يحطم العلاقة بيني وبين زيا. ولكن كنت غلطانة».

«ووردة خوشابا، إيلين؟» قلت لها.

«بالمسيح ما كنت أعرفه... وما كنت سمعت به. كنت أعرف أمه تقرب أمي. المرة الأولى التي رأيته فيها هي أمام البيعة بعد سجن زيا. كان سكران. ركع قدامي وهو يصرخ ارحميني ارحميني. لكني تركته ودخلت البيعة. هذا ما غريب علي رابي، كل تل مطران تركض ورائي، بس الشائعات هذه المرة كانت أقوى من كل مرة. وأعتقد بأن يوسف خوري هو الذي لقنه هذه الحكايات المحبوكة. وأخذ يوسف يروح لزيا في السجن، فعرفت بأنه يدبر لي مؤامرة».

ثم استمرت إيلين بحديثها، وقد شعرت بأنها كانت متعبة إذ أخذها مونولوج داخلي طويل وكأنها تهذي:

«كنت مطمئنة رابي، مطمئنة من أن زيا ما يصدق الشائعات... إلى أن وصلتني رسالة منو يردد فيها كل ما ينشر في تل مطران. وقال إنو عرف بالمؤامرة اللي دبرتها ضدو، وإني أنا اللي أدخلتو السجن حتى يخلو لي الجو وأستقبل العشاق في بيتي... ومن يخرج من السجن راح يقتلني رابي. غداً يطلع زيا من السجن وأنا ما أجهل مصيري أبد، أعرف إنو راح يقتلني. راح يذبحني بخنجرو. أنا مليت الحياة رابي. أريد أخلص. راح أبوس إيدو اللي راح تذبحني، ما أتوسل، بالعكس كل ما يأمرني بيه راح أسويه، ما راح أعارض، أتمدد وأعطيه رقبتي وأقول لو اذبحني».

مكتبة الفكر الجديد

«لماذا لا تهربين؟» قلت لها، بعد أن شعرت بالتقزز من سلبيتها.

«لا رابي، لو أهرب هذا يعني إني خنتو، وأنا ما خنتو أبد. وفي يوم جاءني القاشا وقال لي اعترفي! قلت له ما سويت بحياتي فرد شيء حتى اعترف، أنا طاهرة. ما صدقني. أنا ما سويت شيء أندم عليه أو أخجل منو رابي. أنا ما أريد أعيش، أريد أموت، أموت، وأريد بس لو واحد بالعالم يعرف الحقيقة. أنا أعرف زيا راح يذبحني. حلمت به وهو يذبحني. ادري راح يذبحني. بكرة يذبحني. ما راح أغير شيء. مهما عملت راح يذبحني. مهما عملت راح يذبحني. راح أموت، أعرف، وأنا ما خايفة أبداً، ولا ندمانة ولا زعلانة. أنا أريد أموت. وإذا هو ما عرف هذه الحقيقة، وتل مطران ما عرفت الحقيقة، أنت نخرايا غريب فاعرف الحقيقة. رابي، لازم واحد على الأرض يعرف الحقيقة. أريد بس واحد يعرف الحقيقة. وهذا أنت عرفت الحقيقة رابي».

تلاشى صوتها الحزين الخارج بهدوء من شفتيها الحمراوين اللتين ارتختا وكشفتا عن أسنان بيض ناصعة، وأسندت رأسها المعصوب بعصابة من الساتان الناعم على حافة الكرسي المزخرف بزخارف متعددة، وأغمضت عينيها السوداوين الجميلتين وانطفأ وميضهما، واستسلمت ملامح وجهها بهدوء كبير، ونامت مثل طفلة.

***

نهضت من مكاني وألقيت عليها إزاراً كان مرمياً على الأريكة. كانت يداها بيضاوين ناعمتين، وكانت قدمها اليسرى مكشوفة تحت ثوبها، وهي بيضاء مثل الثلج، لم أر وجهاً بريئاً ونقياً مثل وجهها ذلك اليوم.

مكتبة الفكر الجديد

ارتديت معطفي وقفازاتي، ولففت وجهي بالسكارف، وخرجت، وفي الطريق رأيت شبحها تراءى لي وراء الستائر، فتوقفت، انتظرت دقيقتين أو أقل، فقد أطفأت النور في الصالة. ارتعدت، هل كانت تمثل علي أنها نائمة؟ هل خدعتني؟ شعرت بقدميّ وقد تصلبتا في مكانهما.

هبت ريح باردة اصطدمت بوجهي وعبثت بشعري، فارتجفت.

(٦٨)

في الطريق إلى الأوتيل كنت أفكر بإيلين زوما، لقد أحزنتني كثيراً، كنت شعرت بها وهي ترفض العالم الذي تعيش فيه دون أن تقبل الهروب منه، إنها تلتصق بزيا وتتشبث به، ولا تريد أن تتنازل عنه، وبدلاً من أن تنساه فهي تعاني منه.

إنها تعاني من عدم قدرتها على امتلاكه وحيازته، ومعاناتها هذه هي في وجه من الوجوه معاناة الآخرين أيضاً، معاناتنا نحن، فكلنا نحيا في عالم غير تام، نعيش في عالم ناقص وغير كامل، ولكننا لا نفهم هذا النقص واللااكتمال، إلاّ في اللحظة الهاربة، ومن المؤسف أن هذه اللحظة هي لحظة الموت، لحظة تنوجد مرة واحدة وإلى الأبد، ولكن المهم في هذا كله، أنها تعبير نهائي وأخير عن نوع من أنواع الاكتشاف؛ إننا ننظر إلى الناس وهم يعيشون حياة كاملة وممتلئة، وربما هذه هي مشاعر الجميع، هذه المشاعر هي التي تولد لدينا الحسد الذي نبديه إزاء حياة الآخرين، دون أن ندرك أن الشقاء هو قدر أبدي، وهو الذي يوحدنا جميعاً دون استثناء.

كان القاشا وحده الذي يصر على أن للحياة شكلاً محدداً، شكلاً

مكتبة الفكر الجديد

يصر على تطبيقه كما هو، بينما كانت شميران مجرد دفعة، حياة بلا شكل، حياة منطلقة ولانهائية، حياة تبحث لها عن شكل، وبين رؤية القاشا ورؤية شميران كانت هذه الحيوات تعيش وتتشبث بنوع من الامتلاك، وهو امتلاك مستحيل، إنه حلم لا غير، وهم، وهـذه الـرغبـة فـي الـواقـع هـي شـمـول فـي داخلنا لا نقوى على تهديمـه، القاشـا وحـده يحـاول تدميـره، ومـع ذلك كان يصر على القبض على لحظة مطلقة، يحاول أن يقبض على العالم في بكارته المطلقة، فإن لم يكن ممثلاً عظيماً، فقد كان نبياً أرعشه الحنيـن والعجـز.

(٦٩)

لقد وصلت الأحداث إلى ذروتها، إلى ذروتها النهائية، وكنت أشعر بأني أضيع في متاهة، متاهة حقيقية لا بداية لها ولا نهاية، شيء مثل الحياة بدأ قبلي ولن ينتهي بعدي، ومع ذلك كنت أشعر شعور الآخرين بأني لست السبب في حدوثه، ومع ذلك كنت أدرك بأن هذا العلم ينطوي على قسوة ومظالم وشر كبير، كما أن ثمة مذبحة عظيمة يتقدس عليها كل قاتل ومقتول، والسؤال الذي ظل يلح علي بإصرار هو: من يمتلك سلطة الموت والحياة على الآخرين؟ كيف يمكن أن نتقبل الجريمة في لحظة ونتقبل المظالم دون أن يكون لدينا أية إرادة في ردها؟؟

لقد شعرت بصداع يفلع لي رأسي، ألهذا أنا جئت إلى تل مطران؟ شخص بسيط مثلي، جندي صغير تسرح من الجيش ونجا من الحرب، وهو عاطل عن العمل، ليس لديه إيمان كبير، ليست لديه مبـادئ عـظيـمة يريدهـا للنـاس، أو يفـرضهـا عليهـم، جاء ليعمل ويكسب مثله مثل الآخرين، معلم للعربية في كنيسة كاثوليكية

مكتبة الفكر الجديد

شمال العراق، بقي بعيداً على الدوام عن التاريخ المأساوي للعالم، فجأة وجد نفسه في هذه المتاهة . ماذا يصنع؟

لقد أصبحت بين قس ممثل أو مضطرب عقلياً، أو شاعر له أخلاق في غاية الغرابة، وليكن مجنوناً، ماذا يريد بالعقل، إنه يريد الحماسة، الحماسة الكائنة في أخلاق الإرهاب والانتقام، إنه قوة، قوة حقيقية تسحق وتدمر، قوة تسير بأقصى سرعة ولا تريد أن تتوقف، وهو يدرك أنها لو توقفت فإنها ستبطل أن تكون قوة، سيبطل كيانها أو وجودها، ستخبو وتموت، ماذا يريد؟ العدالة؟ لماذا نضحك على أنفسنا، فالعدالة هي القوة، ولكنها لن تكون إلا بأخلاق الإرهاب والانتقام، لن تكون إلا إذا عدنا إلى زمن الإرهاب الأرستقراطي.

شميران، شميران وحدها التي تريد أن تبرئ نفسها من كل جريمة على الأرض، ليس هنالك سوى حياة واحدة علينا أن نحياها، أن نستنزفها، أن نمتصها ونستقطرها، حياتنا هي حياة اللحظة، ليس هنالك من قبلها حياة ولا بعدها حياة، ولكن لو وقف القاشا بوجهها ماذا ستفعل شميران؟ ألن تبحث عن القوة التي ستسحقه بها، ألن تقول هذه حياتي التي لن أعيش غيرها كيف أسمح له بتدميرها؟ أليس من العدالة أن تسحقه، ومن العدالة أن يسحقها؟ ما هي العدالة، إذن؟

بين هذا الشاعر وهذه الحسناء آلاف من الضحايا، ولكن من هو الجلاد ومن هو الضحية؟

هل هؤلاء الحمقى أبرياء حقاً؟

مكتبة الفكر الجديد

طيب ما دخلي أنا، ما هي قصة النبوءة؟ قس يحتضر، أحمل له رسالة ولكني لم أره حتى اليوم، ويحل محله شاعر وممثل قديم أصبح قساً، يسيطر علي ويضبط حركاتي وسلوكي طبقاً لشيء يخطط له، حب عنيف يربطني مع شميران، وأنا لا أثق بها، بل أخافها، وأخاف من جدها؟ ما هي حقيقة الصورة التي تشبهني، من هو والدها؟

لقد أصبحت رغماً عني في الشبكة التي تنسجها وينسجها كل واحد هنا في تل مطران، وبياتريس الأرمنية، وفريدة، وريزان، وتيمور، ووردة خوشابا، وكثيرون غيرهم؟ أين هي مدرسة الأطفال السريان الذين علي تعليمهم العربية؟ لماذا جئت أصلاً إلى هذا المكان؟

أنا شيء زائد، فائض عن الحاجة، أعرف ذلك، وجودي هنا لغاية أخرى، ولكن ما هي؟ من دبر هذا كله، وكيف يكون بهذه البراعة والدقة، هل هي ابنة الشاعر التركي؟ المسز نادر؟ ليليان؟... من؟.

(٧٠)

لقد وجدت نفسي فجأة في دروب عشوائية ومظلمة، هل جئت من أجل العدالة أو الأخلاق التي يريدها الشاعر، أم هو الذهب الذي تبحث عنه شميران في مخطوطة راميشوع الشايب؟

لقد جئت من أجل أن أعمل، هل هناك ما هو أبسط من رجل يبحث عن عمل، ويريد أن يعيش مثله مثل الآخرين، وأن يستمتع بهذا الانبثاق الفجري الجميل للحياة؟ هل هناك ما هو أكثر شاعرية من هذا؟ ليس لدي أدنى شعور بالإذلال طالما أجد كل يوم قطعة من الخبز والزبدة والمربى والشاي الساخن، في صباح بارد، تقدمه امرأة من أجمل ما يكون و بأعذب ما يكون.

مكتبة الفكر الجديد

أية أفكار كبيرة وأخلاق عظيمة تلك التي تستند إلى الجريمة لكي تحقق هذه الواقعة البسيطة، والتي لا تساوي إلا بضعة قروش؟ ما هي الحياة؟ ما هو جوهرها؟ هل يمكنني أن أدعم هذه الفكرة بشيء هو غير الطغيان والإرهاب؟ هل نحتاج إلى قتل بعض البشر لكي نحمي أكثر عددٍ منهم؟ والذين يموتون بالقرب مني من هو المسؤول عنهم؟ أنا؟

(٧١)

كان البرد في شارع النبي دانيال على أشده.

هبت ريح باردة جمدت أنفي وشفاهي، فوضعت السكارف الصوفي على وجهي وأنا أرتجف، سرت منحنياً، ويداي في جيبي، بينما كانت قدماي تخبطان في نثار الثلج. كانت المدينة بيضاء شاحبة، وشعاع المصابيح يلقي بنوره الأصفر على الشارع، يضيء جانباً، ويبقى الجانب الأكبر من الشارع في العتمات، ومن هذه العتمات ينبعث خوف يجمد لي قلبي.

كنت أرى دخاناً يتصاعد من أماكن بعيدة، نباح كلاب مذعورة، حركة بغايا، لصوص، مهربين، وفي أول الشارع أفزعني صوت نافذة فتحت بعنف، فهربت.

كانت قدماي تخبطان بعنف في الثلج، فسقطت على حافة الرصيف، نهضت، كان ثمة شيء يملأني رعباً، كأن يداً تمسك خنجراً وتمتد في الظلام إلى خاصرتي، عيوناً شريرة تراقبني، ومن بعيد كنت أسمع صوت إطلاق رصاص ينبعث ويخبو، وبعدها أنين غائر ومكتوم يعقبه صوت بكاء. وحين وصلت إلى شارع أحمد

مكتبة الفكر الجديد

أفندي، خرج سكران من الملهى وقد سقط على الأرض، وعند عمود الكهرباء كان هنالك بائعة هوى واقفة تئن من أعماق روحها، كأنها مضروبة بسكين، وفي الظلمة كلاب تصدر أنيناً محبوساً ومكتوماً، شحاذ صغير وبائس ورثٌ يتجمد من البرد، عظامه الهشة تتفكك وهو يبحث عن قشرة برتقال قرب برميل الزبالة، رجل يضرب زوجته يسحلها من شعرها على الثلج وهي تتمدد ببطء، أعضاؤها منهكة منبسطة، وثدياها مكشوفان للبرد، يرتفعان من شقة الزيق في الظلام، وأنا لا أعرف ماذا أفعل.

ومن نوافذ المنازل الكبيرة وشرفاتها، كنت أتبين نشوة جامحة، ورقصات متحمسة تحمى آخر الليل، تصل إلى ذروتها، إنها جذوة ملتهبة في اللحم الحي، إنها رغبات محبوسة مضطربة، وعربدة مكتومة قوية لا تنزاح، وفي الطريق اصطدم بي رجل كان يحمل فانوساً نصفه مضاء ونصفه معتم يقف في البرد هادئاً، رازحاً تحت سماء متجلدة، ومن ورائه سور الملهى القديم، حجر مرصوص عليه آثار قيء أصفر مريض، ومن الداخل تدق الطبول في الملهى، أنفاسها اللاهثة المكتومة مثل حيوان نابض يهدده خطر لا ينزاح، خطر دفأته النيران في المنازل وقد انعكست على الرخام والنحاس والقصدير، انعكست على وجوه الجالسين هناك، كانت الأغاني والضحكات المبتورة تختلط مع مواء القطط على السياج، مثل رغبة محمومة في قلب مجروح.

خوف يحوم في الهواء، خوف يتفلت مثل ريش يتطاير من وسادة مثقوبة، وفي الظلام كانت وجوه الأطفال وهيأتهم قد تشوهت، ضحكاتهم المثرثرة مثل صراخ، وفي الأعلى كان القمر يخرج لي لسانه مثل مشنوق.

(٧٢)

ركضت مسافة قصيرة في الشارع المعتم، وورائي صوت وضحكات غير مفهومة، ثم انعطفت إلى زاوية الشارع المؤدي إلى الأوتيل، وأنا ألهث.

وصلت. كانت الواجهة الزجاجية مضاءة بمصباح واحد، والزينة الملونة تنطفئ وتشتعل بصورة متعاقبة، وهنالك ثلاث عربات تجرها الخيول واقفة أمام الملهى، وحوذي يلف رأسه بقبعة روسية مصنوعة من جلد الغنم، يرتدي معطفاً طويلاً من الصوف، لم يكن بإمكاني أن أتبين وجهه في الظلام، وبين آونة وأخرى يخرج زجاجة العرق من جيبه يشرب قليلاً، يسد فوهة القنينة ويردها إلى جيبه، وبيده الأخرى يضع في فمه حبات الفستق ويبصق قشورها على الرصيف.

***

سمعت صوتاً يخشخش خلف آس الحديقة التي تتوسط الشارع، فارتعشت، كان ثمة كلب يحاول أن يأكل عظاماً ملفوفة في كيس من النايلون، وكانت أغصان الأشجار تهتز وأوراقها تتساقط دون أن تكون هنالك ريح، وفي الشارع كان القرميد الذي يشكل جدران المنازل ينزُّ رطوبة وماء، وقد بانت تحت المصابيح عروقه المتعرجة الداكنة اللون.

***

دفعت باب الأوتيل ودخلت، فارتطم بوجهي تيار هواء ساخن ممزوج برائحة الكحول، كانت ريزان تجلس وراء الحاجز

مكتبة الفكر الجديد

الخشبي تشرب الكونياك، وقد ارتدت فستاناً من الصوف الناعم بلون الزبدة، ووضعت على رأسها قبعة من القماش بلون بيج فاتح، وعلى جيدها علقت عقداً من المجيديات المصنوعة من الذهب، حين رأتني وقفت أول الأمر، ثم نظرت نحوي بعينين زائغتين من السكر، وبفم تفوح منه رائحة الكحول قالت:

«تعال ماموستا تعال. أريد أقل لك شي». كان صوتها خشناً ماكراً، وكان لون وجهها أحمر محتقناً، وعيناها زائغتين.

تحركت نحوي واصطدمت بالطاولة الصغيرة الموضوعة أمامها، كادت قنينة الكونياك أن تندلق على الأرض، فتلقفتها بيدها، وازنت جسدها الثقيل وتقدمت خطوات نحوي، وحين وصلت على مقربة مني كادت أن تسقط فحضنتها، كان جسدها مترهلاً، وعيناها جاحظتين، وأسنانها بارزة تحت لثتها المزرقة من التدخين، كنت أحس بثقل ثدييها المترهلين وكبر بطنها المترجرج، وعجيزتها المدورة المكورة، فصدمتني بأفخاذها السمينة، ورائحة الكحول تنبعث من فمها، قالت:

«اصعد، فريدة بانتظارك».

أعدتها إلى مكانها، لم أكن قادراً على تحمل زناختها وعطانتها الممزوجة برائحة الكحول، لم أكن قادراً على تحمل هذا الوجه المترهل، المشبع برائحة كولونيا رخيصة، كولونيا رجالية من تلك التي يضعها أهل الريف، فأجلستها على الكرسي وهي تلهث، وصعدت السلم درجتين درجتين، حتى أصبحت أمام باب شقتي، أخرجت المفتاح من جيبي وأدخلته في ثقب الباب.

مكتبة الفكر الجديد

كانت حجرتي معتمة تماماً، وخانقة بسبب الرطوبة الثقيلة المنبعثة من السجاد الذي لم ير الشمس منذ وقت طويل، فتحت زر النور فأضاء المصباح، ارتبكت، كانت فريدة ممدّدة على السرير عارية وقد ردت اللحاف الثقيل على صدرها، وكان شعرها الأسود الكث ينسدل إلى الخلف، بينما كان وجهها مصبوغاً بالماكياج، ماكياج العاهرة الشهوي الثقيل، وجهاً لامع السمرة تحت الضياء، وكانت أصابعها التي ترد بها اللحاف إلى صدرها نحيفة، طويلة، وأظافرها مصبوغة بالمانيكير الأحمر.

اقتربت منها. كانت ملابسها مرمية على الكرسي الذي يقابل السرير، نظرت إليها دون أن أكلمها وقد أخذت أنفاسي تتصاعد، رفعت ذراعيها الرشيقتين نحوي، فانزاح اللحاف قليلاً عنها وظهر نهداها المتوثبان الممتلئان إلى الأعلى، وانكشف جزء من إبطيها المحلوقين بعناية، وقد فاح منها عطر من ماركة «دوف» كان مشتهراً بين النساء تلك الأيام.

وقفت عند السرير تماماً، وأخذت أخلع ملابسي بهدوء، كان عطرها حاداً لاذعاً مختلطاً برائحة الكحول، عيناها منتفختان قليلاً وفيهما نظرة وحشية ثقيلة، وشفتاها مطليتان بالروج، كانتا ترتعدان، وحين عانقتها شعرت بنعومة جسدها ودفئه ولدونته، كانت تتأوه...

رفعت رأسي عن الوسادة، وأخذت أراقبها، كانت تسير عارية في الحجرة، تضع السيجارة البيضاء بين أصابعها في نهاية فتحة الأصابع، وحين تمصها تكور شفتيها الحمراوين كأنها تقبل شخصاً من بعيد، ثم تنفث الدخان بقوة وهي تحرك رأسها إلى الوراء بغنج.

وضعت السيجارة في المنفضة، ارتدت كلسونها، ثم تناولت سوتيانتها وارتدتها، بعد ذلك جلست على الكرسي ارتدت كولونها، ثم نهضت وارتدت فستانها، تناولت سيجارتها من المنفضة، وعادت لتنفث الدخان في فضاء الحجرة وهي تغني أغنية لعبد الحليم بصوت خفيض ومبحوح.

توقفت عند المرآة، أخرجت مشطها من حقيبتها، نفضت شعرها ومن دون أن تعيد ماكياجها ارتدت حذاءها، تناولت حقيبتها ووضعتها على كتفها، ووقفت أمام السرير، ابتسمت لي ابتسامة عذبة، وحركت أصابعها بإشارة وقالت بصوت مبحوح «باي».

أدرت رأسي إلى الجهة الأخرى دون أن أكلمها بشيء.

(٧٣)

كان صوت هبوطها الحذر على السلم بالكاد يصلني، وفي الحجرة بقايا عطرها الفاغم ممزوجاً برائحة التبغ، ورائحة الرطوبة تكتم الأنفاس.

نهضت من السرير وأشعلت المدفأة وارتديت ملابسي، أخذت سيجارة من العلبة المرمية على الكومدينو وأخذت أدخن، نظرت في المرآة، كان وجهي متعباً وتعيساً، ومشاعر الاشمئزاز الشديد لم تفارقني بعد، شعرت برأسي فارغاً خاوياً غير قادر على التفكير بسبب شعور غريب هاجمني لحظتها.

لقد كانت علاقاتي مع النساء فيما مضى «بيوريتانية» من نوع ما، أقصد مشتهية لكنها ممنوعة، والعلاقة الوحيدة التي لم تكن تخلو

مكتبة الفكر الجديد

من الاتصال الجسدي هي علاقتي مع ليليان، لكن الأمر مع ليليان مختلف جداً، لماذا؟ أولاً لأن ليليان صريحة وصادقة، ولم تكن رخيصة ومبذولة، لقد كانت مثقفة ومحترمة وحرة، كانت لها القدرة – لو شعرت في أية لحظة بأني أهينها – أن ترفضني دفعة واحدة، وهذا ما جعلني أحترمها، وأقدرها على الدوام.

ولكن الأمر هنا مختلف، مختلف جداً، وعلى خلاف ما كنت عليه فيما مضى، لم أكن أرتضي لنفسي أن أرتبط بعلاقة مع أية امرأة مهما كانت هذه المرأة أو أن أجعلها تشترك فيّ مع ليليان، هذا يعني أني أهينها، وما جعل علاقتنا تستمر طوال هذا الوقت هو كلمة الشرف التي كانت تربطنا حتى لو لم نكن ننطقها، وكان هذا الأمر بديهياً، كان بإمكاني أن أفعل أي شيء دون علمها، ولكن أخلاقي لم تكن تسمح لي بذلك، وأنا أعرف أن ليليان كانت تعرف هذا الأمر دون أن تكلمني به يوماً إلا على صعيد الدلال أو المزاح.

وعلى خلاف ما كنت أتوقع، وجدت نفسي منشبكاً في حزمة من العلاقات المعقدة والمضطربة: علاقتي مع شميران ينتابها الكثير من الغموض، أما فريدة فقد غادرت فراشي ولم يجف فمي من قبلاتها المحمومة بعد، وكنت أحاول مع بياتريس المراهقة أيضاً. ماذا صنعت بنفسي؟

(٧٤)

قبل أن تتنقى حجرتي من عطر فريدة الفائر سمعت صوت تيمور يتحدث في الممر مع ريزان.

كتمت أنفاسي. بعد برهة من الوقت سمعت طرقات خفيفة على

مكتبة الفكر الجديد

باب حجرتي، فتجمد قلبي من الخوف، كان صوت تيمور يأتيني مرتعشاً: (هل الأستاذ موجود؟»).

لا بد أنه عرف بأن فريدة كانت معي هذه الليلة فجاء لينتقم، هرعت مثل جرذ بقدميّ الحافيتين الحذرتين إلى السرير وانسللت في الفراش خائفاً مرعوباً، لكنه فتح الباب قبل أن أرد اللحاف إلى صدري، دخل فاضطربت.

«هل أنت نائم؟» قال وهو يخطو خطوات حذرة نحو سريري، لقد انعقد لساني تماماً، ولم استطع إجابته مطلقاً، لقد كنت خائفاً، خائفاً وهو يقترب مني، كنت أشعر بأنه سيغدر بي، وهذه الابتسامة التي رسمها على وجهه أخذت تتشوه بنظري، لقد كانت ابتسامة ذابلة صفراء، وأما النصل فمخفي في جيبه، وسيخرجه بسرعة ويغلّه في خاصرتي.

«أستاذ، أريد أن أشكرك» قال متردداً.

حتى تلك اللحظة كنت أشك بأنه يخدعني، لقد كان عطر فريدة يفوح من جسدي، ومن كل مكان، عطر لا يمكن أن يستخدمه سوى امرأة، ولا يمكن لتيمور الذي يعمل في بازار العطور أن يخطئه، عطر شهوي كان قد جلبه هو بنفسه لها. كنت متأكداً من ذلك، كنت متأكداً أنه لن يخطئه مهما كان.سحبت اللحاف إلى صدري، كانت آثار الروج تبقع فانلتي، وخشيت أن يراها تيمور.

ابتسمت له ابتسامة خائفة، ابتسامة مترددة، وأنا أرد رأسي إلى الأسفل، وقلت بصوت خفيض «على ماذا تيمور، على ماذا؟» لقد

مكتبة الفكر الجديد

كنت مستسلماً استسلاماً كلياً، مستسلماً بشكل مطلق، ولم يكن لدي أية ردة فعل فيما لو صعدت الهستيريا إلى رأسه، وانقض علي الآن.

«اسمح لي أن أجلس» قال وهو يسحب الكرسي الذي كان يحمل ملابس فريدة قبل ساعة، جلس عليه أمامي تماماً، نظر في وجهي وابتسم ابتسامة متعبة وسعيدة معاً:

«لقد قررت الزواج من فريدة، لقد اتفقت معها. وسنرحل في الصباح إلى قريتنا».

شعرت في تلك اللحظة بمشاعر متناقضة، فكلامه من جهة هدّأ مخاوفي، وأزال شكوكي، ومن جهة أخرى هاجمتني مشاعر فظيعة، مشاعر الخوف الممزوجة بمشاعر التقزز، ولم أشعر بأي عطف عليه من قلبي، لقد جلس أمامي مثل ضفدع، وأخذ يشرح الأمر.

«أنا لا أستطيع أن أتخلى عنها. لقد تعودنا على بعضنا. من سنوات ونحن نعيش معاً. لقد عرفتها جيداً وهي عرفتني. الكل هنا يعرفها، فلا أستطيع الزواج منها. أما في القرية فلا أحد يعرفها. وهي ستبدأ حياتها من جديد. لقد كانت ظروفها قاسية وهي طفلة. والله غفور رحيم».

(٧٥)

في الواقع لم أكن قادراً تلك اللحظة على مبادلته المشاعر ذاتها، لا لأني ضد هذه الفكرة التي اقترحتها عليه أصلاً، إنما لأني لم أكن مهيأً في تلك الظروف المعقدة التي وجدت نفسي فيها على مبادلته مشاعره الطيبة، ومع ذلك ولكي أختزل المسافة الطويلة، قلت له: «مبروك تيمور، أتمنى لكما السعادة».

مكتبة الفكر الجديد

«أشكرك أستاذ، لو فكرت بالزواج من واحدة في القرية ستطلب مهراً عالياً، وأنت تعرف الظروف، أما فريدة فهي لا تطلب شيئاً».

لا أدري لماذا كانت لي رغبة في تلك اللحظة بأن أبصق عليه، لقد اختزل تيمور كل شيء بالقيمة، وتحول الأمر برمته إلى صفقة رابحة، وستكون خاسرة بطبيعة الأمر لو كان هنالك شخص واحد في القرية – وهذا ما يحدث كثيراً – صادف أن مر يوماً بتل مطران وعلى عادة أهل القرى، وأمضى ليلة معربدة وماجنة في الملهى.

ومع ذلك ما أدهشني في حديث تيمور هو تحول شعور الغيرة لديه بهذه السرعة وتحت ضغط الحاجة إلى شعور آخر، وتحولت فريدة التي كان يحتقرها، وكان يعدها بغياً إلى مخلوقة معذبة، ومن أجل أن يهدئ مخاوفه تناول هذه الفاكهة المسكرة وهي: لا أحد يعرفها في القرية.

ولكن كيف له أن يجزم بهذا الأمر، من أين جاءه هذا اليقين؟ ماذا لو حدثه أحدهم هناك عن مشاعره بعد مضاجعة فريدة قبل سنوات في الملهى، فمغامرة واحدة من هذه المغامرات سيتحدث عنها القروي طوال حياته، وإن رواد الملهى – وتيمور أحدهم – فضلاً عن مسيحيي تل مطران، هم من تجار الأغنام التركمان في تلعفر، والفلاحين الشبك الذين يقطنون الحمدانية، والشيوخ اليزيديين القادمين من سنجار، والعرب والأكراد الذين يمرون بطريقهم إلى تل مطران، ليقضوا الليالي المعربدة في الملهى حتى آخر دينار، كما أن من طابع هؤلاء الناس القرويين هو تطفلهم على حياة بعضهم البعض، وإن كل هذه الفوضى الظاهرة على تفكيرهم وحياتهم قادمة من الفضول، ثم هنالك شيء آخر وهو الأهم، أن الجنس،

مكتبة الفكر الجديد

بالنسبة للعراقيين هو مثل جدول الضرب كمّيّ، ويعتمد على الحد المضروب، فالجنس مع البغيّ هو غيره مع الزوجة، وسيجد تيمور نفسه بعد سنوات إن لم نقل بعد أشهر في هذا الملهى يبحث عن بغيٍّ أخرى، ومع ذلك لعب تيمور دور المهرج معي.

«كان الفضل لك أستاذ. أنت الذي نورتني».

قلت له: «لا عليك تيمور، لا شكر على واجب».

لقد كانت فريدة تطلب منه هذا الأمر من سنوات، وهو الذي كان يرفض، فأي سخف في قوله أني أنا الذي نورته.

«متى تغادر؟».

«في الفجر. ذهبت فريدة الآن لتجهز حقيبتها، وسنكون في الضحى في قريتنا».

رفعت اللحاف عن صدري ووضعت يدي على المكان المبقع بالروج في الفانيلا لكي لا يراه تيمور، وهبطت من الجهة الثانية من السرير، تناولت معطفي وارتديته بسرعة وأنا أدير ظهري له، ثم أغلقت الزر العلوي الذي يخفي المكان، لقد كنت منشغلاً بالفعل بهذه اللطخة الحمراء في فانيلّتي أكثر من انشغالي بمصير تيمور، أية حياة تافهة نحياها؟ إن هذا القرار «العظيم» الذي اتخذه تيمور بعد تردده لسنوات، وكل هذا الجهد الإنساني المبذول والآلام التي ولدت قرار تيمور، من الهشاشة بحيث إن لطخة حمراء صغيرة في فانيلّتي كافية لتهديمه.

مكتبة الفكر الجديد

«طيب عليك أن تغادر، وراءك سفر متعب». قلت له، ثم صافحته متجنباً معانقته، إلا أنه أخذني بحضنه وعانقني، لا ريب أنه شم عطر فريدة منبعثاً مني، وإن لم يعرف أن هذا العطر هو عطرها فلا بد أنه سخر في نفسه من أهل المدن الذين لا يفرقون العطر النسائي عن العطر الرجالي، فهذا الأمر مهم جداً بالنسبة إلى بائع عطور.

***

كل شيء على ما يرام.

هبط تيمور السلم أمامي وهو لم يزل يرتعش من تجربته، وحين التفت إلي وهو في منتصف السلم قال:

«اليوم هو أسعد يوم في حياتي».

ابتسمت وأغلقت الباب بسرعة.

(٧٦)

مهما كانت هذه الحذلقة المغرية، كنت أدرك من أعماق قلبي أن هذا العالم لا يحكمه سوى صراخ مشوش مجنون، ومبهم بالكلية. لقد كان كل واحد منا مثل كلب صيد كبير يبحث عن صورة ذاتية لنفسه، صورة تكون ملكه الخاص به، ويحرص عليها كل الحرص، وسيبقى إلى أمد غير قصير سكران بذكرى خيالاتها، ولكن لو كان تيمور صادقاً مع نفسه فإنها لن تمنحه سلاماً أبدياً، أنا نفسي لو كنت صادقاً مع نفسي، فإن هذه التجربة الباردة والصامتة والتي قمت بها هذا اليوم ستحمل كل معاني التهديد لأفكاري،

مكتبة الفكر الجديد

وستهزني بعنف، وستضعني على حافة الجنون والانهيار، ولكن هل كنت صادقاً مع نفسي؟

كنت أعتقد حتى تلك اللحظة بأني أقف وراء وجهه وأحتمي به، ولكنني أدركت الآن، وأكثر من أي وقت مضى، أنني أحتمي وراء وجودي الخاص، وأن ما يمنعني أن أصدق انفعالاته هي هذه الأكاذيب التي نحييها جميعاً في أنفسنا، ففريدة ولكي لا تعود إلى الوراء وتتراجع في إطار ماضيها الشخصي، والذي كتب على تيمور أن يحياه بمزيد من المخاوف والزعزعة، فإنها سترزح في جزيرة نفسها لسنوات طوال، وستتعلم تناقضات أخرى في القرية وستبرع بها، وهذا ما سيمنعه من تصديقها حتى لو كان قد تقبلها من أعماق قلبه، فالشك لن ينام طويلاً مع شخص مثل تيمور، وإن عاد يوماً إلى منزله، وقد رآها جالسة وإلى جانبها سيجارة مشتعلة وضعتها في المنفضة، فإن هذه الصورة المحايدة ستغذي كل ذاكرته، وستفرز صورتها وهي جالسة في الملهى إلى مائدة مملوءة بالقشور، جالسة وأصابعها منداة بالخمرة والكحول، وهي ترد طرف فستان الرقص لتكشف عن سيقانها، وسيتذكر كل تلك التعليقات القاسية والمشحونة بالشكوك والبذاءات والتي ستضغط عليه وعلى قلبه بأصابع ثقيلة، ببطء وعذاب، وسيدرك أن قد فاته رؤية الكثير مما كان يجري حوله.

وأنا ماذا صنعت بنفسي؟.

أمن أجل نزوة، نزوة مهما كانت عظيمة فهي وضيعة، لأني اشتركت مع فريدة في خيانة تيمور، لقد وضعت نفسي طرفاً في

خيانة تقبلتها ببرود؟ لقد تقبلتها، في الوقت الذي كان علي أن أردها وأقر أمام نفسي بأنها حقيقة مؤلمة وقاسية. كيف حدث هذا؟ ثم ما الفرق بين الرجل الشريف والنزيه وبين السافل والمنحط والشعبي؟ هل هذا هو ما تحدث عنه القاشا؟ الإرهاب الأرستقراطي الكفيل ببتر هذه الزوائد من الدهماء وخلق مجتمع النخبة؟ ثم من هم الدهماء أنا أم هم؟

(٧٧)

خرجت من الأوتيل وعلى وجهي رطوبة الماء ورائحة الصابون، كانت الشمس مشرقة، والصباح رائقاً ودافئاً ومنعشاً، وشارع أحمد أفندي مثل لوحة مائية معلقة على الجدار، هنالك امرأة تسير مدورة الوجه، عيناها خضراوان تتألقان بمرح، ورجل يهبط شاربه على ذقنه يحمل مكنسة ويطرد الأوراق من أمام متجره، عربات تسير وسنابك خيلها تدربك على الشارع الإسفلت المغسول، وكان هديل الحمام يأتيني ناعماً من الشجر.

هبطت الدكات الحجرية وعبرت الشارع، سرت على الرصيف متجهاً إلى صالون حلاقة «أدور» الكائن على مبعدة ثلاثة متاجر من ملهى الطاحونة.

كان الصالون نظيفاً بأرضيته المبلطة، وجميلاً بمراياه الطويلة وصوره الفوتوغرافية المعلقة على الجدران، وفي وسط الصالون هنالك طاولة خشبية مربعة تحمل عدداً كبيراً من الصحف المحلية والأجنبية، ومن بينها مجلات «الموعد» و«الشبكة» والكثير من المجلات اللبنانية والمصرية ذات الأغلفة الملونة، والتي تعرض صور الممثلين والممثلات والفنانين والراقصات.

استقبلني أدور الحلاق بودٍّ ظاهر، لقد كان صورة ناطقة لشخصية الحلاق الأبدي، لا بثرثرته وحسب إنما بهيئته أيضاً:

شعر مصبوغ بالأسود الفاحم ومصفف بكريم ويلاّ، شوارب مشذبة بعناية ومقصوصة بخط دقيق ومستقيم، أصابع نحيلة وطويلة، أما صدريته البيضاء والضيقة من عند بطنه فلم تكن تخلو من بقع الزيت.

لقد كان أدور يتكلم دون توقف، ويؤشر بيديه الاثنتين ويهز برأسه، وسرعان ما طلب لي من المحل الذي يجاوره فنجان قهوة، وضعه على دولاب الأدوات الذي يتوسط الكرسي والمرايا، وحين جلست نكت الصدرية بخفة مرتين في الهواء ولفها على صدري، وشد خيوطها على عنقي، كأنه يقدمني إلى المقصلة، ثم تناول المشط والمقص، وأخذ يشقشق بخفة في الهواء.

أما أنا فقد سلمته شعري وذقني واستسلمت لرائحة القهوة والهيل المنبعثة من الفنجان، كنت أرقب من خلال المرايا الكثيرة والمتعاكسة واجهة الصالون من جهة الشارع، وقد أسرني مشهد شجرة الصفصاف الضخمة والمعمرة منذ زمن الاحتلال الإنكليزي وقد انتصبت وحدها أمام الصالون، تلقي بظلها على الرصيف، بينما كانت واجهة الصالون الزجاجية مكشوفة للشمس.

(٧٨)

كان أدور ظريفاً جداً، ومع أن ملامح وجهه كانت ذابلة إلا أنها وسيمة، أما ابتسامته التي لم تفارق شفتيه فقد كانت ابتسامة مرسومة وثابتة وتخلو تماماً من المشاعر، كان قد عود نفسه عليها، يرسمها دون جهد وينسى أن يمحوها مع الوقت، لقد كانت حركته

مكتبة الفكر الجديد

سريعة لا تتناسب مع سنه وكان كلامه متواصلاً وقد ألزم نفسه أن يستخدم كلمات إنكليزية ليدلل على ثقافته.

قال لي إن مالوان زوج أغاثا كريستي جلس على هذا الكرسي في الخمسينيات، حينما جاء لينقب عن الآثار في الموصل، وإن أغاثا كريستي التقطت لهما صورة علقها في المحل لفترة طويلة، وقد رفعها هذه الأيام دون أن يذكر السبب.

ثم رمى المقص والمشط على الكومدينو، فتح الدولاب وأخرج لي صورة بإطار عتيق تظهر شخصاً طويلاً أصلع قليلاً، هو مالوان، وإلى جانبه أدور، كان شاباً وسيماً دون شوارب، وبشعر مسرح ومفروق من الوسط، كان نحيفاً وصغير السن، يرتدي قميصاً أبيض عريضاً، وبنطلوناً على موضة الخمسينيات بطية من الأسفل.

ثم قال لي إن أغاثا كريستي ظلت تبعث له بطاقات بريدية لفترة طويلة لأنها - وقد قالها بصوت خفيض - أحبته. فقد كان وسيماً جداً فيما مضى، أما الآن - رفع سبابته المسورة بخاتم من الألماس إلى فوديه - وقال: «العمر... بليف مي».

***

وضع معجون الحلاقة على ذقني، ثم تركني وذهب إلى الكومدينو وأخرج لي كتابين لألبرتو مورافيا باللغة الإيطالية وعرضهما علي، وقال لي:

«بليز... انظر».

مكتبة الفكر الجديد

نظرت إليهما فاحتك صابون الحلاقة بالصدرية، رفعت رأسي، فدفع بالكتابين أمام عيني بالضبط، كان غلافا الكتابين ملونين، يعرضان صوراً لنساء عاريات، فنظرت إلى وجهه المنعكس في المرآة ولا أعرف ماذا أقول، رفع الغلاف وكشف الصفحة الأولى، وأشار بإصبعه إلى توقيع ألبرتو مورافيا، وقال:

«لقد جلس ألبرتو مورافيا قبل أعوام هنا وحلقت له شعره. كانت معه صديقته، وهي شابة».

وبعد أن أعاد الكتابين إلى الكومدينو، انتقل إلى الحديث عن صديقة مورافيا الشابة الجميلة ملمحاً إلى أنها هي الأخرى أحبته، وليبرر حبها قال: «المرأة الغربية تفكر بالشرقي من جانب فحولته، بليف مي... ذ سكس».

ثم حدثني عن فيلم إنكليزي تم تصويره في الموصل وكان لتل مطران الحصة الكبرى في التصوير، ولم يحتمل هذه المرة، فقال لي إنه نام مع الممثلات جميعهن ولم تسلم منه حتى العجائز ولا حتى زوجة المخرج، ولكي يخفف من ثقل حديثه قال:

«أنا لا أتحدث لهؤلاء الجهلة عن هذه الأشياء لأنهم لا يصدقوني، أما أنت فأحدثك لأنك مثقف وتفهم».

قلت له: «نعم إني أصدقك».

وكنت أعرف في داخلي أن طموحات أدور الجنسية في الخيال ليس لها حد، حتى لو وصلت إلى ملكة بريطانيا ذاتها.

مكتبة الفكر الجديد

(٧٩)

خرجت من صالون أدور على عجل، كانت رائحة الكولونيا تفوح من وجهي، كولونيا رديئة ولكنها كانت منعشة، وقد شعرت بحرقتها وهي تتنمل على صفحة وجهي في هذا الصباح الرائق والبارد.

ما أعذب المشهد!:

عربات الربل تسير، وحدوات خيولها الحديدية تضرب الإسفلت فتقدح بصورة متواصلة، شاحنات عسكرية تشخر بقوة في الفضاء، باصات أجرة مزدحمة بالراكبين تتوقف عند الرصيف، باعة متجولون يصرخون بصوت عذب، نساء بالبنطلونات الصوفية والمعاطف يحملن الحقائب الصغيرة على الأكتاف ويسرن بسرعة، رجال يمرون وهم يحملون المظلات دون أن تكون هنالك غيمة في السماء واحدة، وهديل البلابل وزقزقة العصافير لا تنقطع أبداً.

توقفت عند مطعم صغير تطل واجهته المطلية بالبويا على الشارع مباشرة، ثمة عامل مصري لف رأسه بكوفية ذات لون دخاني، كان يصفّ الكراسي المصنوعة من البلاستك على الرصيف وهو يغني أغنية صعيدية، وحين رآني صرخ:

«تفضل اجلس يا باشا».

جلست، ومن دون أن أطلب منه شيئاً، قدم لي ساندويشاً من القيمر والمربى واستكان الشاي، وأخذت آكل مغموراً بأشعة الشمس،

مكتبة الفكر الجديد

ومنسحراً بهديل الحمام الذي يلقط الحب قرب المصاطب الخشبية الموضوعة تحت أشجار الصفصاف الضخمة.

غسلت يدي ووجهي بالماء البارد الذي يجري من الحنفية النحاسية، كان سلسالها الأبيض يتجمع ويختفي في المغسلة، دفعت له، وسرت خطوات، وعند شجرة الجوز الكائنة على رصيف الشارع الإسفلتي المتجه إلى تل مطران أوقفت عربة ربل سوداء بحصانين أبيضين، صعدت، وقلت له:

«إلى تل مطران، أنزلني أمام البيعة من فضلك».

(٨٠)

دخلت البيعة، كان الأطفال يلعبون في الباحة، وضجيجهم يملأ المكان.

كانت شميران تحمل كتاباً في يدها، تقف عند العمود الأسطواني أمام الباب الخشبي المزخرف الذي يقود إلى المكتبة، معطفها الطويل كان مفتوحاً فيكشف عن بنطالها الضيق الذي يضغط على ساقيها الرشيقين، وكانت كنزتها الصوفية ضيقة ومنتفخة بصدرها المتكور والمنتفض، ومن بعيد كنت أنظر نحوها وهي ترد شعرها إلى الوراء فينكشف عنقها الأبيض ببياض الوز، وحين اقتربت منها شممت عطرها الذي أشعرني لحظتها بخدر لذيذ ودوار، حتى كاد أن يغمى علي.

ابتسمت لي حين رأتني، وبحركة مصطنعة عضت على شفتها السفلية وتقدمت نحوي مسافة جد قريبة، فأخذ قلبي يخفق، لقد

مكتبة الفكر الجديد

شعرت باضطراب أمامها، كان وجهها قريباً جداً من وجهي، وكنت أنظر في عينيها الذائبتين فاحمرّ وجهها، قالت وقد تحشرج صوتها:

«أين أنت؟».

في الطريق كنت قررت أن أقول لها جملة بطريقة حادة وعصبية، ولكني قلتها لها بطريقة ذائبة ومرتبكة:

«أين أنا شميران... أنا فائض عن الحاجة، جئت لأعلم أطفال الكلدان العربية».

وقبل أن أكمل جملتي، قالت بهدوء: «أبداً رابي، أنت رابي البيعة».

ضربت بجزمتها البيضاء التي تشبه جزمة الفرسان على الأرض، التفتت وراءها، تناولت الناقوس النحاسي من الأرض وأخذت تقرع بقوة، وأمرت بصوتها الناعم الجميل الأطفال بالدخول إلى الصف، ثم ناولتني الكتاب، غمزت لي بعينيها اليسرى، وقالت:

«ادخل الصف، أنا أنتظرك في المكتبة، لدي أخبار كثيرة وستسرك حتماً».

ذهبت إلى الصف وقد استحوذت علي صورتها، كان الأولاد يتدافعون أمامي وهم يتبسمون، وحين دخلت، ذهبت مباشرة إلى السبورة.

كانت أشعة الشمس تدخل من زجاج النوافذ العليا، فترمي لونها

مكتبة الفكر الجديد

الذهبي على الجدران، وقد غمر فضاء القاعة نور دافئ مبهج، وكان الهواء نقياً هناك، يدخل من الباب المفتوح نصف فتحة ومن إحدى النوافذ العليا في القاعة. فشعرت بفرح آسر تملكني.

خلعت معطفي ورميته على أحد المقاعد، وأخذت أكتب لهم الدرس على السبورة.

لقد انتقلت مشاعري المبتهجة إلى الأولاد، فأخذوا يتكلمون مع بعضهم ويسرق بعضهم أقلام بعض، وحين ألتفت إليهم يعودون إلى أماكنهم يكتبون وهم مبتسمون، وحين أعود إلى السبورة تتصاعد الفوضى شيئاً فشيئاً.

***

كان الدرس عبارة عن قصة من قصص الأبد المسيحي مزينة بالصور الملونة في الكتاب، لم تكن جميلة وصادقة فحسب، بل كانت بليغة وذات مغزى عظيم.

تتحدث عن طفل سأل أحد الرهبان في الكنيسة عن عمل القديسين بعد موتهم، فقال له الراهب إنهم لا يعملون شيئاً، إنهم ينظرون إلى جمال الله لكي لا يكبروا ولا يشيخوا. فلم يصدق الطفل هذا الأمر، وحين خرج من الكنيسة في اليوم ذاته رأى طائراً جميلاً يقف على مقربة منه، اقترب منه الطفل لكي يقبض عليه، فهرب الطائر وحط عند مسافة قصيرة وأخذ يرتل أغاني جميلة، تبعه، دخل وراءه الغابة، عبر النهر، سار وراءه مسافة طويلة، وبعد ذلك عاد به الطائر إلى المكان ذاته الذي رآه فيه، عاد به إلى المكان القريب من بوابة الكنيسة.

مكتبة الفكر الجديد

لقد عاد الطفل إلى مكانه الأول، غير أنه وجد الراهب قد أصبح كهلاً، والكنيسة قد تغيرت تماماً، والغابة هي الأخرى قد تغيرت، وهو وحده الذي بقي طفلاً دون أن يكبر.

لقد مر عليه عشرون عاماً دون أن يحس بذلك.

لقد أثملتني هذه القصة بمفهومها العظيم والبسيط معاً عن علاقة الجمال بالزمن، لا أقول إنها أعجبتني بل أسكرتني تماماً، وجعلتني مبتهجاً ومرتاحاً وكأنني قبضت على كنز كبير. لقد كان شعوراً طارئاً أقحم نفسه علي بفجائيته ذلك اليوم فأدهشني، كان شيئاً أشبه بمعجزة قد حدثت للتو فأسكرتني، وبعد أن انتهى الدرس، ذهبت إلى المكتبة، وأنا أترنح من الفرح.

كانت شميران جالسة أمام الطاولة الخشبية الكبيرة التي تتوسط المكتبة، وقد ازدحمت بالكتب الضخمة والموسوعات والمخطوطات السريانية المجلدة بجلود الحيوانات، وكانت بعض هذه المخطوطات مفتوحة تماماً تعرض أوراقها القديمة الصفر، شبه الممزقة، وعلى الطاولة خارطة كبيرة مبقعة بالحبر الأحمر، وهنالك مثلثات ومساطر ودوائر هندسية، ومجموعة متنوعة من الأقلام والمحابر والمماحي، ومجموعة من الأوراق المخططة التي كانت شميران تنقل عليها بعض المعلومات.

لقد عمت الفوضى جميع المكتبة، جميعها ولا أقصد الرفوف فقط بل حتى الأرضية، فلم يكن هنالك رف من رفوفها قد بقي على حاله، إنما كانت الكتب تتوزع في كل مكان، وعلى الأريكة التي تقابلها جلس شخص غريب المظهر، أصلع قليلاً، يرتدي نظارات

مكتبة الفكر الجديد

سميكة، وكانت بذلته قديمة ولكنها مكوية ونظيفة، قدمته لي شميران قائلة:

«هذا دانيال...» دون أن تضيف أي شيء آخر.

صافحته، فارتسم على وجهه التعبير المهذب الرقيق الذي يكتسبه الأرستقراطيون المسيحيون في الموصل من حيائهم التقليدي وتربيتهم الممتازة.

كان دانيال في الستين من عمره، وإذا استثنينا النظارة البلاستيكية السوداء ذات العدسات السميكة فإن عمره لا يتناسب مع صحته الوافرة وحيويته، وحين جلست قبالته شعرت بلباقته ودفئه وشاعرية أسلوبه في الكلام، وهو يفك بعض الألغاز في كتاب راميشوع الشايب المفتوح أمام شميران، ومن دون صعوبة كبيرة كنت أميز في عيني شميران هذا التوهج الذي سطع بلهب كبير ومرتبك.

التفتت شميران نحوي، وقالت: «لقد فك دانيال لغز كتاب راميشوع الشايب» وضحكت.

أخذ دانيال يشرح، بلغة نادرة، تفاصيل أحداث مروعة، حدثت أيام الإمبراطورية العثمانية لليزيديين وعبدة الشيطان في منطقة سنجار الواقعة شمال الموصل، فقد قام أحد الضباط الأتراك باجتياح المنطقة بسريته المعروفة أوان ذاك «بسرية نادر بك»، وأخذ يعذب اليزيديين وذلك بصب الرصاص على رؤوسهم أو بغليهم في القدور النحاسية الكبيرة أو بشيهم بواسطة الأسياخ على النار، بحثاً عن كتاب «رش» كتابهم المقدس، أما هم فقد جمعوا ما بحوزتهم من

مكتبة الفكر الجديد

الذهب وأودعوه إلى الشيوخ الأكراد الهورمان الذين قدموها إلى خزائن والد جد شميران لإخفائها في قصره، وطبقاً للرموز التي يتضمنها كتاب راميشوع الشايب، فإن الكنز مدفون في قصر جدها.

التفتت نحوي شميران وقالت:

«هذه هي القصة الحقيقية للكنز وكنا نجهلها. كنا نعتقد أنه كنز الأكراد».

«لا، خاف الأكراد من نادر بك، ولكن والد جدك كان صديقاً له، ومن غير المعقول أن يقوم بتفتيشه، فأودعوها لديه».

(٨١)

ما أثارني في حديث دانيال هي طريقته التفصيلية في شرح وتصوير عمليات التعذيب التي واجهها اليزيديون على يد هذا الضابط التركي، لقد كان حديثه يخلو تماماً من العاطفة، لا بل هناك متعة في التركيز على أدق التفاصيل في تصوير مراحل التعذيب والأدوات الجنونية المستخدمة، لقد كانت هنالك دقة شاعرية في وصف حتى فقاعات الرصاص المصبوب على رؤوس هؤلاء المساكين، أو في وصف خرقهم من مؤخراتهم بالأسياخ، ومن ثم شيهم على النيران الملتهبة، كما أن حديثه كان معاداً ومكروراً، على ما يبدو، لأنه في كل مرة كان يلتفت إلى شميران ويقول لها: كما حدثتك من قبل، أما التفسيرات الجديدة فإنه يعيدها لي، وربما يعيدها لكي يشعر بمتعة مضاعفة، بمتعة مزدوجة، وفي قمة هذا التصوير السادي الذي أشعرني بالقرف والاشمئزاز، كانت لغته الشاعرية تتضمن أكثر التعبيرات سهولة واستخداماً.

مكتبة الفكر الجديد

(٨٢)
خرج دانيال وبقينا أنا وشميران وحدنا في المكتبة.

نهضت شميران من مكانها، وأغلقت الباب وعادت هي إلى كتبها ورموزها وأوراقها. لقد تركتها منهمكة في وضع الخطوط الدقيقة بالمسطرة على الورق، وكلما كان يتهدل شعرها على الخريطة كانت ترده بحركة من رأسها إلى الوراء، أكاد أسمع تنفسها وأشعر بحرارة جسدها، أقول لقد اشتعلت بها، اشتعلت، ولم أكن قادراً على الاقتراب منها، كانت منهمكة بعملها، وأنا كنت منهمكاً بالنظر إلى جسدها الذي تجسم خلف الملابس الضيقة اللازقة، وكنت أعرف أن الوقت لم يكن يسمح لي بالتقرب منها، أو مغازلتها، فشعرت بالحزن، أما هي فقد شعرت بي، رفعت رأسها وابتسمت ابتسامة خدرتني وقالت:

«أما تفعل شيئاً؟ ستظل هكذا تنظر نحوي».

نهضت من مكاني وأخذت أقلب كتب وأوراق القاشا الموضوعة على الرفوف، أصبحت خلفها مباشرة، ومن أمام الرف كنت أختلس النظرات لجزء من نهدها وقد تجسد وراء الكنزة الصوفية البيضاء.

(٨٣)
بعد دقائق كنت نسيت شميران وتملكتني كتب القاشا.

من بين الأشياء التي عثرت عليها، كتب مهداة من أكثر الكتاب العرب أهمية في الستينيات إلى القاشا، وكانت الإهداءات تحمل عبارات التدليل والمجاملات، والأكثر من ذلك، كنت عثرت على

مكتبة الفكر الجديد

رسائل متنوعة، كان قد أرسلها له مجموعة من الكتاب اللبنانيين:

ثلاث رسائل بالفرنسية أرسلتها له شاعرة لبنانية تكتب بالفرنسية اسمها نادية حمادة، رسالتان من الشاعر سعيد عقل، عشر رسائل من أدونيس، ورسائل كثيرة من توفيق صايغ، ورسائل مؤرخة من طالب كان يدرس في لندن اسمه رياض الريس، وهنالك بعض الرسائل الغريبة الأخرى، مثلاً رسائل من عامل في متجر بقلاوة البحصلي، موظف في فندق سرسق، سائق تاكسي في بيروت اسمه طوني، أما أكثر الرسائل إثارة فهي رسائل عاطفية من فتاة اسمها أماليا، من الواضح أنها كانت ممثلة مسرحية مغمورة في بيروت، وقد ضمنت واحدة من رسائلها صورة لزعيم سياسي اسمه انطوان سعادة، وقد كتبت خلفها عبارة «صورة التقطت له في البرازيل».

وما عدا هذه الرسائل، وجدت مجموعة كبيرة من الكتب التي علق عليها القاشا بخطه الجميل والدقيق، وبلغته الرشيقة العذبة، وقد وضع في واحد من هذه الكتب قصيدة له ومسودة رسالة إلى رئيس تحرير مجلة «شعر» يطلب منه نشرها، ومن الواضح أن القصيدة لم تنشر، والسبب في تقديري هو المقدمة الخيالية والمدعية التي قدم فيها للقصيدة، فقد كتب، أن الجنس البشري لا يكتسب المعرفة الضرورية عن طريق المنطق، إنما يكتسبه عن طريق القوة والمجد، وإن كل علاقة لا تقوم على القوة هي علاقة هشة سرعان ما تتحطم عند أول تجربة لها، كما أن على الفنان أن لا يعيش الزمن، إنما يمر به مروراً، لأن السر الأعظم يكمن في الضحك، فالفنان المأساوي هو الذي يعيش الزمن، أما الذي يضحك فهو الفنان الذي ينفلت من الزمن، وإن الضحكة في تقديره هي انفلات من الزمن، ولهذا السبب فإن الله يحب الدعابة، ويحب السرياليين، ويكره الشعراء

العرب لأنهم بجديتهم يقلقون سلام الله وطمأنينته، ثم ينتهي بوصف مقتضب للشعراء العرب:

«كئيبون، مولولون، ناعبون، ومصابون بأمراض السوداوية المزمنة...».

أما القصيدة فقد كانت تقوم على المفارقات الضاحكة ولا تتناسب مع مقدمته المدعية.

سألت شميران: «شميران، أما زال القاشا يكتب الشعر؟».

«لا أظن، لقد ترك الشعر من زمن بعيد، أو هكذا يقولون، منذ عودته من بيروت. لقد تحول إلى راهب». قالت دون أن ترفع رأسها عن الخريطة.

«هل كان في بيروت؟». سألتها.

«نعم ذهب إلى بيروت وعمل في صحيفة «النهار» هناك» وأشارت بيدها إلى كدس من صحيفة النهار مجلدة بشكل أنيق، ثم قالت «ولكنه تخاصم مع صاحبها وعاد إلى كركوك وبقي فترة من الزمن فيها ثم تخاصم مع القس يوسف سعيد وجاء إلى تل مطران».

أخذت أقلب قصائده وقد استمرت شميران تتحدث عنه قالت:

«جدي يقول ذهب هناك بسبب صديقة له، ولكن اللبنانيين سخروا من شعره وطردوه. جدي يكرهه».

مكتبة الفكر الجديد

«لماذا يكرهه؟» سألتها.

«لا أدري، القاشا يريد إخافة الناس. حين جاء إلى تل مطران فتح محلاً لبيع السجائر سماه «سرطان لبيع أمراض الدخان»، فلم يشتر منه أحد. جدي يقول إنه مجنون وكان يطالب بإدخاله إلى مصحة. لم يكن يحبه أحد هنا سوى الأب عيسى اليسوعي والأب بولص نويا» ثم قطبت حاجبيها وقالت:

«هل تعجبك أفكاره؟». قلت لها «تعجبني طرافتها».

«اسمع رابي، لدينا الكثير من الأشياء الجادة التي علينا إنجازها. لا وقت لدينا للمزاح. لقد عثرت على الكنز وجهزت كل شيء للحفر تحت قصر جدي. سأحفر الليلة، هل تعرف ماذا يعني هذا؟».

«لا، ماذا يعني؟» قلت لها.

«هذا يعني أننا سنصطدم بالقاشا وبجدّي أيضاً. لقد دخلنا مرحلة خطيرة. عليك أن تقدر هذا الأمر. لم يعد لدينا وقت كثير لنبدده. سأقوم بحفر المكان في القصر وأنا واثقة من أنني سأجد كنز اليزيديين، وإذا حصلنا على هذا الذهب سيكون نصف الطريق إلى مهمتنا قد أنجزناه» ثم تقدمت نحوي وشفتاها ترتجفان وقالت:

«عليك أن تؤمن بما نفعله وإلا ضاع كل شيء. هل أنت ذاهب إلى القاشا؟ عليك أن لا تقول شيئاً له، ولا تخبره مطلقاً بلقائك بدانيال».

مكتبة الفكر الجديد

عاد الشحوب إلى وجهها مباشرة، ولم تعد شفتاها ترتجفان، تقربت منها وحاولت أن ألصق شفتي على شفتيها، فزفرتْ زفرة ساخنة وأخذتْ ترتعش، ثم مدتْ يدها إلى وجهي وأخذتْ تتحسسه، بينما التمعتْ عيناها بقوة وكأن غابة من الدموع قد غزتهما، لقد احمرًّ وجهها، ولم تقو قدماها على حملها، فسحبتِ الكرسي من ورائها وجلستْ وحين حاولت تقبيلها، مانعتْ أول الأمر، وقالتْ:

«انتبه، نحن في البيعة». وضعتْ يدها على صدري ودفعتني.

تراجعت قليلاً، ثم سرت نحو رفوف المكتبة، بينما أحنتْ رأسها وهي جالسة على الكرسي دون أن تتكلم، وبعد دقائق سألتها:

«أريد أن أسألك شيئاً شميران، أنا جئت من أجل قس هنا. كانت صافيناز أوغلو أرسلتني هنا وتوسطت لي، وقد أخبرتني عن قس اسمه عيسى اليسوعي. وإلى اليوم لم أر عيسى اليسوعي».

«ماذا تريد منه؟ إنه يحتضر، ولم تعد له قوة على الناس».

«ولكنني جئت من أجله وأريد رؤيته. هل هو موجود في تل مطران؟».

«نعم هو موجود هنا في دير قريب من تل مطران، تسهر عليه الأخت فكتوريا ولكنه لا يريد أن يلتقي بأحد، ولا يريد أن يعرف أحداً».

مكتبة الفكر الجديد

(٨٤)

غادرت البيعة، وقد ودعتني شميران حتى الباب، سرت في الطريق المؤدي إلى منزل القاشا، وعلى مقربة من الميدان رأيت عجوزاً يسير على بغلة دون سرج، فأوقفته، سألته عن دير قريب من تل مطران، فسألني مستغرباً (من أنت؟)».

قلت له بأني رابي البيعة وأريد الذهاب لزيارة القاشا عيسى اليسوعي.

قال: «هل أنت نخرايا؟».

قلت له: «نعم».

«هناك» وأشار بلحيته لا بيده إلى الجانب الأيسر من تل مطران:

«إسطبل عتيق وإلى جانبه دير، لن تخطئه. قربه حظيرة للخنازير، وفي أعلاه ناقوس كبير».

خلعت معطفي لأن الشمس أصبحت أكثر حدة، بينما تجمدت قدماي بالماء البارد الذي يذوب من أكوام الثلج على جانبي الشارع، ويسير بشكل تيار هابط إلى الأسفل، أخرجت سيجارة ووضعتها في فمي، أشعلتها وتطاير دخانها ورائي، سرت يساراً، كان علي أن أقطع الطريق المتعرج أسفل تل مطران، وقد أصبحت أكوام الثلج الذائبة هشة، والأرض موحلة، سرت وتعثرت كثيراً حتى لاح الدير بحظيرته، وناقوسه النحاسي في الأعلى من بعيد.

وحين اقتربت منه سمعت حمحمة الحصان المكتومة من الجهة الثانية، وصوت حوافر بقرة تضرب بالأرض، ورأس حيوان يصطدم بمذود التبن.

(٨٥)

كان الدير مشيّداً بالحجر المعرق وهو قديم جداً، حجارته قد تآكلت والتحمتْ بالأرض الحمراء الموحلة التي تحيط به، كان بابه الخشبي شبه مغلق، أما بناء البرج الذي يحيط بالناقوس فهو حديث، وهذا ما يثبت أنه كان إصطبلاً فيما مضى وقد حولوه إلى دير، أما الأرض التي أمام الباب فقد كانت مكسوة بالإسفلت وقد تآكلت كثيراً، وقد ترك الثلج بركاً من الماء في حفراتها.

دفعت الباب الخشبي فانفتحت أمامي حجرة شبه مظلمة، عالية السقف، ومن الداخل كانت الجدران مبنية من الحجر الخشن دون ملاط، وهنالك سلم بأربع درجات يقود إلى الأسفل، إلى سرداب، وقد انبعثت رائحة الرطوبة قوية حادة تجرح الأنف، لقد كانت الحجرة مزدحمة بالأشياء التي لا نفع فيها، أشبه بمخزن للبضائع المهملة، سروج صدئة مرمية على بعضها، معصرة نبيذ عتيقة، أخشاب تجمّع عليها العث وشبكات العناكب، وهنالك طاولة طويلة بمساطر كثيرة، وأوراق مطوّاة، وحين وصلت إليها وجدتها بحوثاً رياضية ورسوماً للنواقيس تطوت من كثرة اللمس والمسح. فجأة سقطت قنينة معبأة بالزيت ورائي، فارتعبت وأخذ قلبي يدق بقوة، لقد جاءتني رغبة للهرب، رغبة حقيقية أن أفتح الباب وأهرب.

وضعت معطفي على كتفي وذهبت مباشرة للسلم، ولكني توقفت

مكتبة الفكر الجديد

على صوت أنثوي أجش قليلاً، ومليء بالحرارة جاء من ورائي مباشرة: «ماذا تفعل هنا رابي؟».

لقد خرجت الأخت فكتوريا من وراء ستارة بدلاً من الباب، من الزاوية اليسرى من الحجرة، وتوقفتْ قرب طاولة الرسم، كانت طويلة فارعة الطول، تضع البرقع الأبيض على رأسها مثل ممرضة، وقد لفت نفسها بملاءة سوداء بإحكام ورشاقة.

«جئت لأرى الأب عيسى اليسوعي أخت فكتوريا».

«أنت تعرف أنه مريض ويحتضر، ماذا تريد منه؟».

«أنتِ أيضاً تعرفين أني جئت برسالة من صافيناز أوغلو، وعلي أن أراه».

«لا يمكنك. هل يعرف الأخ خوشابا بذلك؟».

صمتُّ ولم أجبها.

هزتْ رأسها وقالتْ: «من دلك على المكان؟». ثم سمعنا من وراء الستارة حركة السرير، وصوت سعلة متعبة مصحوبة بأنين، فقالت: «اذهب أرجوك...». ثم دخلتْ إلى الحجرة مسرعة. توقفت لحظة، استدرت إلى الوراء لأغادر المكان، ترددت، ومن ثم عدت وراءها، أزحت الستارة، ودخلت.

مكتبة الفكر الجديد

(٨٦)

هذه هي المرة الأولى التي رأيت فيها الأب عيسى اليسوعي الذي كنت حملت له رسالة من صافيناز أوغلو ابنة الشاعر التركي في بغداد. كان ممدداً على السرير الحديدي الكبير ذي الأعمدة الأربعة، وفي أعلى كل عمود كرة نحاسية مخلوعة، وأمامه صور كثيرة معلقة على الجدران، وحين رأتني الأخت فكتوريا امتقع وجهها، ونهرتني بقوة: «ألم أقل لك اذهب؟!».

تركتها وتوجهت نحو الشخص الممدد على السرير، إنه صورة ناطقة وحية لملاك بشحوبه ولحيته البيضاء الممشطة، لقد كان كبيراً في السن، أصغر بكثير من لويس شيخو ولكنه رآه وعرفه.

قلت له: «قاشا، أنا رابي البيعة، حملت لك رسالة من سيدة عراقية من أصل تركي اسمها صافيناز أوغلو، ابنة شاعر تركي، أنت تعرفه ويعرفه بولص نويا وآدونيس». إلا أنه لم يتكلم. لم يتحرك من مكانه على الإطلاق، بينما سحبتني الأخت فكتوريا من يدي بهدوء وقالت: «أرجوك، إنه لا يتكلم مع أحد. إنه يحتضر. ألا توجد حرمة للأموات؟».

قلت لها: «نعم» وغادرت.

(٨٧)

عدت إلى تل مطران، وعند البازار رأيت مجموعة من السياح الأجانب وهم يحملون الكاميرات على صدورهم، وقد تقدمهم أدور الحلاق، كان يسير أمامهم وبيديه اللتين لا تكفان عن الحركة يشرح لهم عن كل شيء، وحين رآني أصبح صوته أكثر رصانة من

مكتبة الفكر الجديد

قبل، وكأنه يريد أن يريني أهميته بين هؤلاء الناس، أما من جانبي فقد أهملته تماماً، ومضيت لأتخذ الطريق المؤدي إلى منزل القاشا، إلا أنه لم يتركني لحالي، لم يكن بإمكانه أن يفوت فرصة على نفسه مثل هذه الفرصة، صرخ ورائي وجاء مهرولاً، وقد ترك السياح الأجانب وراءه: «رابي، رابي...». توقفت، ودون أن أسأله عن شيء أخذ يتحدث لي:

«هؤلاء أصدقائي، سياح بولونيون جاءوا إلى تل مطران ولم يجدوا أحداً أفضل مني يشرح لهم عن الآثار. فتركت عملي وجئت معهم. لقد أتعبوني بأسئلتهم».

لم أجبه بشيء، لم أكن أعرف بماذا أجيبه، بقيت صامتاً أنظر في وجهه، فلم يحتمل ذلك، قال لي: «انظر إلى الشابة تلك...»، أشار بيده إلى شابة لم تكن جميلة، ترتدي ملابس مبعثرة: بنطلوناً كاكياً قصيراً يكشف عن شعر سيقانها، وقميصاً من القطن ارتدته دون سوتيانة فالتحم صدرها وبطنها معاً، ولأنها بولونية مولعة بأصباغ الشعر، فقد تقرع شعرها الأحمر الناري وتقرطف من الخلف فشدته بفولار رخيص.

«لقد أحبتني» قال وهو يبتسم.

أما أنا فلم أنطق بشيء، إنما بقيت أمامه صامتاً دون كلمة، وكي يتلافى الموقف، قال لي: «مر علي اليوم في الدكان، فأنا أكره كل تل مطران لأنهم كلهم قرويون، وأنت من المدينة وأنا أحب أهل المدن، بيننا أشياء مشتركة كثيرة». كان يتصورني مهتماً بموضوع القرية والمدينة، ومع ذلك قلت له: «نعم...» ومضيت.

مكتبة الفكر الجديد

كان القاشا ذلك اليوم يجلس كعادته بين مبارده وعدساته، وكتبه الحافلة بالتذييلات والتعليقات.

«قيدمتوخن برختا، قاشا» قلتها وأنا أسير باتجاهه.

«قيدمتوخن برختا، رابي».

فز، ووضع نظارته الدائرية المموهة إطاراتها بالذهب ووضعها على الطاولة، وكعادته أمر جولي التي كانت تنظر نحوي بكراهية ظاهرة هذا اليوم أن تعد لي الطعام، فجلست أمامه، كان يبتسم مع نفسه، ومن دون أن ينظر نحوي قال لي: «دانيال كان هنا هذا اليوم أليس كذلك؟ كان مع شميران...؟». نهض من مكانه بخفة ليضع كتاباً أحمر الغلاف في رف المكتبة.

لقد شعرت وكأن الصداع دهمني وهجم علي مرة واحدة، دخلت عليه وكنت أظن بأنه لا يعلم شيئاً عن أمر دانيال، وكان من المفترض أن يكون سراً، ولكن السر تحول من إخفائه عن القاشا إلى البحث عن سر معرفة القاشا به، ماذا أقول له؟ لقد كنت منتظراً منه أن يسألني عن زيارتي للأب عيسى اليسوعي، فلا بد أن فكتوريا قد عرفت كيف تمرر هذه المعلومة إليه بالسرعة الممكنة، ولكن أمر دانيال، كيف؟

«من قال لك هذا؟» قلت بهدوء، ووضعت ساقاً على ساق، ثم أخرجت علبة سجائري من جيبي، أخرجت سيجارة وأشعلتها، وأخذت أنفث دخانها في وجهه دون مبالاة.

«شميران...» قال وقد نظر في عيني مباشرة.

مكتبة الفكر الجديد

«مستحيل» قلت له وكنت مصراً على أن أحطم فرضيته.

«شميران كانت هنا، قالت لي إن دانيال حل لها لغز كتاب راميشوع الشايب وأنت كنت موجوداً معها في البيعة. وقبلها جاءني دانيال وقال لي إنه حل لغز راميشوع الشايب وإن الكنز موجود في القصر، وإنك رأيت الخريطة. لماذا تنكر؟».

«لا أنكر، ولكن لم يحدث هذا الشيء».

«رابي تسمح لي أن أقول لك بأنك غبي لأنك تتصور بأن ما تفعله لا يصلني». في هذه اللحظة شعرت بتوتر كبير، لقد أغضبني بنبرته المتعالمة والمتعالية والخبيثة أيضاً، من هذا الأغبر لكي يهينني بهذه الصورة؟ فانفجرت بوجهه: «أرجوك قاشا لا تتكلم معي هكذا». في تلك اللحظة غير لهجته تماماً، لقد كان ثعلباً حقيقياً، أقول ثعلب لأني لم أجد الكلمة التي تناسب شيطنته وخبثه ومراوغاته، إنه يريد إيهامي بطريقة ملتوية، يريد أن يقول لي بأن الجميع يتآمر ضدي، وأنه وحده الصادق بينهم، خدعة سخيفة وواهية، كان من الممكن أن يكون دانيال هو الذي حدثه، أو واحدة من راهبات الدير اللواتي يتجسسن علي وعلى شميران، ولكن من المستحيل أن تقول لي شميران إن هذا الأمر سر، ومن ثم تذهب من ورائي لتخبره به. ما هي مصلحتها بذلك؟

صاح بعصبية مفتعلة: «رابي أنت رأيت دانيال، وذهبت بعدها إلى الدير وحاولت أن تكلم الأب عيسى، ورأيت في الطريق أدور الحلاق أخ وردة خوشابا وجئت هنا».

مكتبة الفكر الجديد

استدار بشكل مسرحي نحو الطاولة وأخذ يقلب بمبرد صغير مكسور من الحافة وأخذ يعالجه بيده.

أما أنا فقد تركت كل تعليقاته عن شميران ودانيال وعن راميشوع الشايب والأب عيسى وفكتوريا وتمسكت بموضوع واحد: «أدور الحلاق أخو وردة خوشابا؟». قلت بنبرة مندهشة.

«نعم، ألا تعرف؟» قال ذلك بعد أن مسك المبرد بيد، ومسح بيده الأخرى على صلعته التي لمعت تحت نور المصباح. قلت له: «لا والله... لا أعرف» وكنت صادقاً بذلك، كيف يمكنني أن أعرف هذا الأمر، لقد ذهبت إلى حلاق ليحلق لي شعري وذقني، ومن غير المعقول أن كل شخص أصادفه أسأله عن أخوته وأخواته أو عن أشياء من هذا القبيل.

«غبي لأنه لم يقل لك ذلك». ثم ضحك بقهقهة عالية، كان يقصد أنا الغبي لأني لم أعرف.

وفي تلك اللحظة دخلت جولي وهي تحمل بيدها الصينية الفضية المزخرفة ورائحة لحم الضأن انتشرت في فضاء الصالة، وضعت الصينية على الطاولة المقابلة للمكتبة وانسحبت دون أن تقول شيئاً، بينما عاد القاشا إلى مكانه وأشار بيده لي على الطعام.

جلست وأخذت أأكل بشهية ظاهرة فقد كنت جائعاً بالفعل، ألتهم الطعام وأنا أنظر إلى الكتب الموضوعة دون اعتناء بعضها فوق بعض، التفتّ إليه، كان جالساً على طاولته وهو يبرد إحدى العدسات، ويقرأ في كتاب مفتوح أمامه، يسجل

مكتبة الفكر الجديد

بعض الأرقام، ثـم يقيس العدسة بآلة معدنية مدرجة، ويسجل على الورق، فجاة سألته سؤالاً لم أسأله من قبل: «أنت تبرد العدسات منذ اليوم الذي جئت فيه أنا إلى تل مطران، هل هي عدسات نظاراتك؟».

نظر بوجهي ملياً وهو صامت، ثم أخذ يغالب ضحكة خرجت بالرغم منه، كتمها أول الأمر، وأخذ يقهقه مع نفسه، ثم انفجرت رغماً عنه بعد ذلك. وضع العدسة على الطاولة وأخذ يقهقه حتى دمعت عيناه، لقد أصبح بلون الروبيان الأحمر، يضحك ويضحك، وأنا كذلك أخذت أضحك وأنظر إليه، أضحك وأمسح بالفوطة على فمي، دون أن أعرف السبب، فسألته: «شنو بسؤالي مضحك قاشا؟».

«سؤالك» قال وهو يضحك «سؤالك طبعاً».

«كيف تخيلت أني أمضيت كل هذا الوقت لإصلاح نظارتي؟، والعدسات ألا تستخدم لشيء آخر؟».

«والله العدسة تستخدم للنظارة، ولا أعرف لها استخداماً آخر».

«غبي» صرخ بوجهي.

قلت بعصبية وأنا أرمي الفوطة من يدي على الطاولة: «أنا؟».

قال: «لا، أنا لأني لم أخبرك». وانفجر ضاحكاً، وأخذ يتلوى مثل الثعبان وهو ينظر نحوي.

مكتبة الفكر الجديد

«قاشا أنت تهينني دون سبب» قلت له وقد شعرت بالاختناق من سلوكه معي.

«لا أبداً. أنت زعلت، لا تزعل. هذه عدسات التلسكوب، أقوم بصنعها بنفسي. عد إلى طعامك فأنا أفسدته عليك، أحب أمزح معاك، لا تزعل». عدت إلى الطعام، لقد خشيت أن أنطق أمامه بكلمة وأنا آكل فيهجم علي بحديثه المضجر والممل وسيفسد علي لذة الطعام، ومع ذلك لم يتركني مستسلماً لوحدتي، تنحنح أول الأمر، ثم ابتسم لي وقال: «عوافي». فلم أجبه بشيء، إنما أخذت أنقل عيني بين عناوين الكتب الموضوعة أمامي، كانت هنالك صورة فوتوغرافية مخفية وراء الكتب، ولأنه أخرج كتابين أو ثلاثة فقد كشف جانبها الأيمن عن فتاة سمراء جميلة في أحد شوارع لندن، عرفت ذلك من الباص الأحمر (ليلاند) موديل الستينيات بطابقين، قلت في نفسي ربما هذه هي أماليا الممثلة اللبنانية التي كانت صديقته، والتي قرأت بعض رسائلها في مكتبة البيعة. كانت لدي رغبة شديدة أن أسأله عنها، ولكنني خشيت أن أسأله فيهجم علي بحديث لا ينقطع عن مآثره وبطولاته الشعرية، وبالتالي سيفسد علي لذة الطعام، مع ذلك لم أستسلم كلياً للطعام، لأني بقيت متوجساً كل لحظة أن يهجم علي بواحدة من هجماته التي اعتاد أن يواجهني بها، وبمجرد التفكير به، فقد كان قلبي يدق بسرعة، وكنت أشعر بالاختناق كلما تحرك من مكانه، وأقول في نفسي سيهجم علي الآن ويصرخ صرخته السخيفة «آسيا... آسيا».

ولأني كنت منتظراً هجمته هذه، فقد أفسد علي الطعام أيضاً.

مكتبة الفكر الجديد

(٨٨)

نهضت من مكاني وذهبت إلى المغسلة المقابلة للتواليت، كانت هنالك نافذة مربعة صغيرة تطل على الحديقة ولأنها أعلى من السياج فيمكن لمن يقف هناك أن ينظر ولو من بعيد الشارع المؤدي إلى الميدان، فأدركت لحظتها أنه عرف بلقائي مع أدور الحلاق من هذه النافذة، وربما وقف بالمصادفة هنا ونظر فرآني واقفاً مع أدور، وهكذا أراد أن يثير فزعي، وليقنعني بفكرة أنه يعرف كل ما يدور في تل مطران، لقد ذكرها حيلة عارضة كي يثير في خيالي مقدرته التي لا حد لها إلى الدرجة التي يعرف فيها لقائي بأدور حتى وأنا في الطريق إلى منزله، أي خبيث وشيطان ومحتال هذا الشاعر، أي ماكر هو، ومن أي نوع، قلت في نفسي. مسحت يدي ووجهي بالمنشفة المعلقة بخطاف على الجدار وعدت إلى الكرسي الذي يقابل طاولته فابتسم لي ابتسامته الماكرة وقال: «عوافي رابي، هسه الشاي... مو تمام؟» رفع رأسه وصاح: «جولي، كوبين شاي لي وللرابي».

«أتعرف؟ وصلت الأمور درجة خطيرة». قال دون أن يلتفت لي، إنما بقي منشغلاً ببرد عدسته وهو يزم شفتيه، ويقطب حاجبيه. «أية أمور؟». كنت أعرف بطبيعة الأمر ما يقصده القاشا، ولكني كنت مصراً على أن أتجاهل كل ما يقوله.

«الأمور في تل مطران طبعاً، وصلت إلى درجة خطيرة. الكنز أمر خطير. وشميران إذا حفرت اليوم ستصطدم مباشرة مع جدها». قال ذلك دون أن يرفع رأسه أبداً، أو ينظر لي، قالها وهو يهز برأسه كأن الأمر لا يعنيه. ولكن المسألة الأهم بالنسبة لي، هو أنه استخدم العبارات ذاتها التي قالتها لي شميران: الأمور الخطيرة، وأنها

مكتبة الفكر الجديد

ستصطدم بجدها، مما أثار شكي بالفعل، وربما استخدم القاشا هذه العبارات متعمداً، ليثبت لي أن شميران هي التي أخبرته بهذا الأمر، مما جعلني متلعثماً بالفعل أمامه ومرتبكاً. صمتٌّ دون أن أنطق بشيء.

«تخيل معي... شميران ستحفر اليوم. هناك كنز اليزيديين الذين أودعوه للهورمانيين...» وأخذ ينظر لي من فوق نظارته بخبث، ليدلل لي بأنه يعرف هذا اللغز فعلاً «الذين أودعوه إلى والد جد شميران وقد دفنه في القصر. لا أحد يعرف مكانه. وشميران عرفت مكانه، شيء مضحك والله».

«ما هو المضحك قاشا؟».

رمى العدسات والمبارد من يده على الطاولة، خلع نظارته ووقف أمامي مباشرة وأخذ يمثل: «حفرة كبيرة وسط المنزل. وهناك كنز من الذهب انبثق من باطن الأرض، وقفت شميران من هذا الجانب ووقف المختار من الجانب الآخر لكي يبقى الكنز خارج الأرض. يجب أن يدفن أحدهما داخل الحفرة، إما شميران أو جدها».

قلت له: «ومن تتمنى أن يدفن فيها؟» قلت ذلك وقد شعرت بضيق النفس، كنت أحاول معرفة نوايا القاشا وميوله إزاء شميران. قال: «أنا أتمنى كما تتمنى أنت، أن يدفن جدها في الحفرة. الرجل المناسب في المكان المناسب». وانفجر ضاحكاً.

لقد شعرت لحظتها بأنه يريد استفزازي، ومع ذلك تجاوزت ما قاله، تناولت معطفي من الكرسي ووضعته على كتفي فانتبه لي

مكتبة الفكر الجديد

وعيناه الحمراوان تدمعان. «انتظر، اشرب شايك أولاً» ثم صاح «جولي وين الشاي؟».

جلست على الكرسي دون أن أتكلم بشيء بينما أخرج منديله من جيبه وأخذ يمسح عينيه، وقال: «اسمع رابي، هؤلاء الناس أحياناً هم سرياليون أكثر من السريالية ذاتها. السريالية واقع لا خيال كما يقول أدونيس. ما يهمني حقيقة هو شيء واحد: الإيمان بها. هم بحاجة إلى الحماسة، نحن نجلب معنا أقلام رصاص، مماحي كثيرة وورقاً، نقوم بعمل تحضيري. العمل هو أن ننقل من الكتب إلى هذا الورق كل المعرفة، ولكي نكون خارقين للطبيعة». صمت وأنا أتناول كوب الشاي من جولي وأضعه على الطاولة، بينما هو نظر في وجهي بعمق وقال: «اسألني كيف؟ اسألني» قلت له: «كيف؟». وأنا أشعر بالاختناق.

«حين نقوم بتطبيق ما نكتبه على الناس. نحن نقوم بتطبيق السريالية على الناس. تعرف هذا أعظم عمل يمكن أن يقوم به إنسان. المعرفة كلها حتى المعرفة العلمية هي خاملة لأنها لا تتعدى المختبر. أما نحن فلا، سنقوم بعمل أعظم. سنرى بعيوننا تأثير هذه الأفكار على الناس. هل فهمتني؟».

نهضت من مكاني، استدرت نحو الباب وأنا أقول له: «بشو بشلامة قاشا». كانت جولي واقفة عند باب المطبخ تعلك بعلكتها وتهز بقدمها كما لو كانت ترقص، وحين فتحت الباب نظرت نحوي نظرة سريعة، لوت فمها باشمئزاز واستدارت نحو مغسلة الأواني.

مكتبة الفكر الجديد

(٨٩)

عند الغروب كان البرد قارساً. لم تعد السماء تثلج في تل مطران ولا تمطر، ولكن الشمس حين غابت وراء الأفق، تركت لوناً أحمر في السماء.

هبت رياح باردة من جهة الجبل، فشعرت بالبرد، كنت أبحث عن مكان أحتمي فيه من الرياح الباردة، أبحث عن مقهى أو شيء آخر، لكن عبثاً، فقد أغلقت المقاهي ولم تبق سوى الشايخانات المقامة في الهواء الطلق، ومع ذلك سرت في شارع النبي دانيال من جهة ميدان الراهبات.

كان الشارع مضاءً بأنوار متعددة، خطوط طويلة منسابة تحت الأضواء التي تتلاشى في أفق منخفض، بينما كانت زينة الكباريهات تشع بألق على الواجهات. ومن الأزقة الضيقة الملتوية كنت أرى الحي محتشداً بالناس، فسرت وحيداً في الطريق المؤدي إلى دكان الحلاق أدور، كنت أنظر إلى المنازل من زجاج النوافذ التي ارتخت ستائرها الطويلة وانفتحت إلى النصف، لتكشف عن صالات أنيقة لامعة، تتوسطها الموائد الطويلة المصنوعة من الصاج، وقد احتشدت كؤوس الشراب عليها.

سرت في الطريق.

كانت الأشجار قد ألقت بنفسها على الأسيجة بثقل ولون داكن، وعند باب الملهى كان ضياء يتقد بشكل متوهج، وقد وقفت فتاة في العشرين من عمرها، صدرها ناهد وصلب، تستند إلى قائمة الباب، بينما يسقط النور على شعرها الكث، ترتدي ثوباً ضيقاً

مكتبة الفكر الجديد

واسع الفتحة عند الصدر، سيجارتها الطويلة البيضاء بين أصابعها، ووجهها النحيل مصبوغ بالماكياج، كانت شفاهها عريضة، أسنانها صفر من التدخين، وقد لمعتْ أظافرها بالمانيكير الأحمر وهي تعبث بالعقد الزائف الذي يتدلى على صدرها، كانت تنظر إلي بعينيها السوداوين الغامضتين، وتنفث دخان سيجارتها في الهواء، وحين وصلت قريباً من الباب أشارتْ لي بالدخول، إلا أني تجاوزت الطريق مباشرة وقلبي يدق بقوة.

(٩٠)

تجاوزت دكان الحلاق أدور.

كان يجلس على الأريكة، يمسك مجلة بيديه ويقرأ.

دخل إلى دكانه رجل قصير وبدين يرتدي نظارة سميكة، كان كرشه متضخماً وقد ارتفع بنطلونه قليلاً إلى الأعلى، تجاوزت المحل وأصبحت مباشرة أمام مطعم صغير، كان مشعاً بالمصابيح، إلا أنه بارد ورطب ما خلا المكان القريب من النار المشتعلة، وقد كانت لفة الشاورمة تدور ببطء، وقد وضع النادل قبعة بيضاء على رأسه، يمسك بالساطور ويقطع اللحم المشوي الذي يشكشك تحت لفح النار، فيظهر خلفه اللحم الأحمر النيء.

دخلت. سحبت كرسياً وجلست، بعد ذلك خلعت قفازاتي ووضعتهما على الطاولة، وأخذت أفرك يدي واحدة بالأخرى وأنفخ فيهما بالهواء الدافئ الذي يخرج من فمي، كان أنفي متجمداً بفعل الهواء البارد الذي يهب من جهة الباب، وأخذ يرشح قطرات خفيفة مسحتها بالمنديل الأبيض الذي أخرجته من جيبي.

مكتبة الفكر الجديد

جاءني النادل ووقف أمامي مباشرة وفي يده ورقة وقلم، طلبت كوباً من الشاي، إلا أن عامل المطعم رفض ذلك، قال علي أن أأكل ساندويشاً على الأقل، قلت له لست جائعاً لقد التهمت ماعوناً من اللحم قبل قدومي هنا، هز رأسه بالرفض، قلت له فليجلب صحناً من اللحم ويرمه إلى الكلب.

أخذت أتفحص المطعم المزدحم، كانت هنالك امرأة تطعم كلبها الذي جثم تحت الكرسي إلى جانبها، رجل كبير السن يعد نقوده، مسيحي يرتدي قبعة ويقرأ في الصحيفة وقد وضع الساندويش على صحن قربه دون أن يلمسه. كان الدخان القادم من الشاورمة ساخناً، وكانت أيدي الطهاة تحمل الصحون والأسياخ المحملة باللحم المتبل وتمر قربي ثم تضعها على الطاولات الممسوحة بشكل سيئ، فبقيت صفحاتها الفورمايكا لزجة من السمن.

قدم لي كوب شاي، أخذت أتدفأ به بيدي، أرشف منه رشفات متقطعة وأنا أفكر بكلام القاشا. لماذا قال اليوم هذا الكلام؟ كنت أشعر تلك اللحظة بأني وقفت أمام مفتاح، وهذا المفتاح بالضبط هو مفتاح الساعة الذي علي أن أدوره لكي تستعيد العقارب روحها مرة أخرى، كنت متنكراً بين المتنكرين، وهنالك حفلة ستقام في ليلة لن يقررها أحد سوى القاشا، بقعة سوداء ستؤدي مباشرة إلى ميتات غامضة كثيرة: في تل مطران، في الميدان، في شارع أحمد أفندي، لقد وقفت أمام مدينة جديدة أو صورة جديدة لتل مطران، إن الصورة القديمة التي رسمتها لها كانت مشوشة دون حدود، والأفكار التي كونتها عن شخصياتها كانت تتهدم كل مرة، وتظهر صورة منسوجة ومحبوكة عن شخصياتها: عيسى المحتضر، خوشابا الشاعر الفاشل، تيمور، فريدة، أدور الحلاق، بياتريس الأرمنية، جولي، وأسماء أخرى.

ماذا أفعل بكل هؤلاء؟ كلما أتقدم معهم، أشعر بأني أتقدم خطوة نحو جزيرة موحشة، بينما تتراجع العواطف إلى الوراء وتعود إلى إطار الماضي. إن أفكاري قائمة على مخاوف شميران من القاشا وشكوكها، وكانت هذه الشكوك في كثير منها صادقة، لقد رأيت بعيني هذه المقبرة الباردة والصامتة على وجهه، ومع ذلك لا أجد شميران في أكثر ما قالت صادقة، ولكن ما نفع الصدق والكذب مع المرأة؟ إنه شيء سخيف، بالقياس إلى النشوة التي تجتاحني كلما يمر في ذهني طيف قبلاتها.

(٩١)

خرجت من المطعم بعد أن دفعت إلى الكاشيير، وتوجهت إلى دكان أدور الحلاق.

كانت الحوانيت مضاءة، البنايات القديمة الطراز مطلة على الشارع، ربما كانت الساعة ذلك الوقت تشير إلى الثامنة أو التاسعة، لم أعد أتذكر، الشوارع مهجورة بسبب البرد، والمتاجر مفتوحة لكنها خاوية من الناس، الباعة المتجولون يدفعون عرباتهم ويتجهون إلى ميدان الراهبات، وفي شارع أحمد أفندي بدا الفندق الذي أقطنه شبه معتم، بينما أنارت المصابيح واجهة الملهى وأخذ الناس يتوافدون عليه. وعند بابه وقف رجل يضع على رأسه شعراً مستعاراً، ويحمل بيده مكبر صوت وهو يقرأ فقرات البرنامج الليلي.

سارت أمامي امرأة ودخلت إلى دكان مكوى البخار، نظرت إلى واجهته جميلة ونظيفة وقد علق عليها من الأعلى يافطة مكتوب عليها عبارة: «لوندري شارع أحمد أفندي»، صوت ينفخ بقوة، ووشيش البخار يتصاعد من أنبوب مرمي على الأرض، بخار

يتصاعد مثل ضباب أبيض ثم يتلاشى في الفضاء البارد، إلى جانبه محل المجبراتي وقد ازدحم بمرضى المفاصل، و من خلف الزجاج رأيت الدجال يجلس على الكرسي، يتنهد ويتمطى أمام المرضى الذين يتألمون ويبكون.

وفي آخر الممر دكان أدور الحلاق.

كان المحل مظلماً، ولكنني سمعت صوت أدور في الداخل. لقد أزاح الكرسي قليلاً ووضع الطاولة الصغيرة في أول الدكان، فتسمرت في مكاني مندهشاً ولم أدخل أول الأمر. كان أدور قد وضع عارضة شرائح للصور الملونة على الطاولة، وقد انعكست على صدرية الحلاقة البيضاء التي ثبتها على الحائط بالمسامير، لقد بهر الضوء الساطع عيني، بينما أضاء الجانب الأيمن من وجهه، حين رآني قال لي بصوت خفيض «اجلس هنا رابي، اجلس» ودفع بأحد الكراسي وراءه وأجلسني عليه، ابتسم لي لأني رأيت ما يصنع، وأخذ يشرح لي. يخرج شريحة ويدخل أخرى، وكانت الصور تنعكس على الصدرية البيضاء ثم تختفي، كانت الصور تبرز مجموعة من السياح الأوروبيين يحملون الكاميرات على صدورهم ويضعون قبعات بيضاً على رؤوسهم ويرتدون بنطلونات كاكية من القطن، وقمصاناً قصيرة الأكمام، يتجولون بين الآثار، وكان أدور بوجهه المندهش على الدوام يتقدمهم ويشرح، أما الصور التي لم يكن فيها فقد كان هو الذي صورهم، عرفت دون أن يقول لي ذلك، لأنه كان يختار الفتيات دون الرجال، وكان يختار على الدوام مناطق حساسة من أجسادهن، فلم يكن مهتماً على ما يبدو بالرؤوس أو الأقدام، لقد كان مهتماً على الدوام في المنطقة المحصورة بين أعلى الصدر وأسفل البطن فقط.

مكتبة الفكر الجديد

قال: «هذه الصور مع سياح جاءوا في الصيف الماضي، وقد بعثوها مع هذه الفتاة التي رأيتها..» ضحك أول الأمر، ثم أخذ يسعل «أصدقائي، كل الأجانب الذين يأتون إلى تل مطران يبحثون عني. لقد أصبحت مشهوراً. قال لي القاشا إنهم وضعوا اسمي في الموسوعة البريطانية مع المشاهير».

أغلق الجهاز وأشعل الأضواء، حمل الجهاز ووضعه في الكومدينو، ثم أعاد الكرسي إلى مكانه، وقبل أن يجلس حمل المجلات والصحف وأعادها إلى الطاولة. قال:

«أهلاً رابي، أهلاً بك. كل الذين عرفتهم يأتون أول الأمر لأحلق لهم شعرهم. أنا أعتبر الزيارة الأولى زيارة عمل، ولكن بعد ذلك يزورونني. هذه الزيارات أسميها زيارات صداقة» ثم نهق مثل حمار وقال «زيارتك هذه هي زيارة صداقة، أوصي لك على عشا».

«لا شكراً اتعشيت».

«والله أرجوك، عشا خفيف، ساندويش شاورمة وطرشي ومشويات. أرجوك، زيارتك هذه هي زيارة صداقة».

«لا أشكرك» قلت له متضايقاً من إصراره. إلا أنه لم يتركني، «زين، شاي».

قلت له: «مو مشكلة».

خرج من باب الدكان وأوصى الشايشي الذي يضع دولاباً من،

الألمنيوم في الزاوية، وقد وضع طباخاً صغيراً وعليه قوارير الشاي وخزان الماء الساخن وطنجرة كبيرة للصحون والأكواب. دخل الشايشي وقد ارتدى بنطلوناً وقميصاً قذراً، وشد على كتفه وزرة حمراء منقطة، ومسودة من الشاي، ووضع الكوب أمامي.

كنت أرتشف الشاي وأضع بين أصابعي سيجارة دون أن أشعلها، وسألته عن وردة.

نظر نحوي وقد خاص عينيه وقال: «وردة لا أكلمه من عشرين عاماً».

«كيف؟ سمعت أنه أخوك؟» قلت له وأنا أبتسم. «إيه ولكننا اختلفنا قبل أن يسجن».

«ها.. كان مسجون».

«طبعا كان مسجون. ما تعرف؟».

ثم أخذ يسرد لي قصة عن وردة غريبة جداً، قال إن وردة كان يحب الطيور في الستينيات، يصعد الجبل من الصباح حتى المساء ليصطاد الطيور الغريبة ليبيعها، وفي يوم اصطاد طائراً جميلاً وغريباً، وقد وجد رسالة ملفوفة على أحد أقدامه، وحين فتحها لم يستطع أن يفك شفرتها. ذهب إلى القاشا عيسى اليسوعي وقال له إنها مكتوبة بالروسية ولا يعرف القراءة بها، فأخذها وذهب إلى أحد الموظفين الذين يعملون في شركة النفط فقرأها له، لقد عرف أنها من علماء روس يدرسون على الطيور

المهاجرة، ويطلبون من كل شخص يصطاد هذا الطير أن يكتب لهم عن المكان الذي وجده به.

ففرح جداً وردة بهذا الأمر، وقد شعر بأنه أصبح مشهوراً وسوف يقوم بعمل عظيم (كما يقول أدور.. طبعاً) وقد بقي ثلاثة أيام يجري وراء هـذا الـموظف حتى كتب له رسالة بالروسية، وبعثها على العنوان الموجود في رسالة العلماء الروس، وبعد شهرين وصل طرد بالبريد من روسيا إلى وردة، فيه بذلة صيد وبندقية وقبعة وحذاء وشكر من المؤسسة العلمية في موسكو.

ثم صمت أدور وهو ينظر نحوي وقال: «ألقت الشرطة القبض على وردة وأخذوه إلى السجن».

«لماذا؟» قلت له.

«لقد اتهموه بالتجسس لصالح روسيا».

«مستحيل» قلت له.

«طبعا، اسأل كل تل مطران عن ذلك. الكل يعرف هذه القصة. وحين أطلق سراحه بعد أربعة أعوام أدمن على العرق. يشرب الليل والنهار».

كانت الطاولة التي أمامنا مكتظة بالمجلات والصحف، وكان وجه أدور خالياً من التعبير، أملس مثل قشرة المحار، يتحدث عن أخيه بتحوير حياته بشكل ساخر، دون أن يعرف، رغم لهجته الساخرة، أنه هو أيضاً ضحية لما يمكن أن نسميه الفضول.

مكتبة الفكر الجديد

وقبل أن يسترسل أدور بحديثه عن النساء تركته وخرجت، ولم أخضع لتوسلاته بأن علي أن أبقى معه هذا المساء ليطلعني على تفاصيل علاقته بالسائحة البولونية الجديدة.

«أشكرك أدور، لم يعد لدي وقت».

قال: «زين، أحكي لك عن البلغارية».

«لا أدور، المشكلة في الوقت لا في الجنسيات».

خرجت، كان ثمة رجال من العرب جالسون على الرصيف، يأكلون بأيديهم، ومن أعلى السقف وقفت امرأة وهي تخفق على وسادة الريش، دخلت وسدّت الباب وراءها.

(٩٢)

عبرت الشارع المزدحم وأصبحت في الجهة الثانية من الرصيف.

لملمت علي معطفي دون أن أشعر بالبرد، كان بإمكاني أن أرى منازل الموظفين في تل مطران، أقواسها المعقودة، مستودعاتها، حدائقها الصغيرة، مداخنها، غرف استقبالها، مخازنها وإصطبلاتها، كانت الكنيسة بعيدة ومختفية وراء الظلام، ولكن قرى العرب البعيدة المطلة على الأرض الخضراء كانت تهيمن عليها المآذن الرشيقة والمضاءة بالمصابيح، ومجموعة القباب التي تشبه الصحون انتظمت مصابيحها لتؤلف جملة «الله أكبر».

دخلت الأوتيل.

مكتبة الفكر الجديد

كانت ريزان وراء الحاجز الدائري جالسة بتواضع هادئة الملامح هذه المرة، ترتدي ثوباً أنيقاً يشبه فستان سهرة، وقد بقعته من عند بطنها خمرة الليل الفائتة، وكانت الأضواء الملونة تتلألأ فوق رأسها كأنها في مرقص. حين رأتني ابتسمتْ، وأخرجتْ من جيبها حبة توفي وناولتني إياها، ثم حملتْ برنصها بيدها ووضعته على كتفها. قالت: «ماموستا، كنت سكرانة. البارحة تعبتك معي».

«لا، لا» قلت لها مبتسماً وأنا في طريقي إلى السلم.

قالت: «المهم فريدة...» فتوقفت في مكاني، وقد شعرت بشيء جمدني «اكتم ما حدث وادفنها مع السنة الماضية». وأخذتْ تضحك.

واحدة مثل ريزان ماذا تعني لها السعادة؟ قلت في نفسي وصعدت السلم.

(٩٣)

لقد شعرت وكأني محموم، أمضيت الليل وأنا أتقلب في الفراش، أستسلم مرة للنوم وأحيانا أفز مذعوراً على أصوات تصلصل في أذني، خيال ما يخفق على وجهي، صور كثيرة تمر في خيالي، صور مرعبة، وكلما أفتح عيني أجد الظلام وقد أطبق على فضاء الحجرة تماماً.

في الفجر فتحت عيني وشاهدت ضياء شاحباً يتسلل من الستائر المرخاة على النوافذ، ولكن الصوت اختفى ما خلا نباح كلاب بعيدة، وصوت بغل يمر، وحمحمات مكتومة لعمال يتدفقون نحو ميدان الراهبات.

مكتبة الفكر الجديد

فجأة سمعت صرخة إيلين زوما، صرخة قوية حادة ومرتجفة أيضاً، فزعت، تجمدت في السرير أول الأمر، ثم قفزت مذعوراً، ركضت بسرعة، فتحت باب الحجرة حافياً، وقفزت السلم درجتين درجتين، كان البهو مظلماً وخالياً تماماً، ترددت أول الأمر، كدت أعود إلى مكاني، إلا أني فتحت باب الأوتيل وخرجت.

كان الفضاء متجمداً، وبياض الثلج يغطي الأرض، بينما يغلق عمال الملهى الأبواب وراء السكارى الذين يترنحون على الثلج الذي يغطي الأرصفة. في الحديقة الصغيرة المواجهة للأوتيل كلبان يتشممان بعضهما، وهنالك عمال يسيرون نحو الميدان. كان الهواء البارد قد نفذ إلى عظامي مباشرة، أخذت أرتعش من البرد، بينما كانت المدينة بأسرها نائمة وكأنها مصابة بالبرصام. تل مطران بعيدة وقد حجبها الضباب الخفيف الذي يتصاعد من الوادي القريب، بينما أخذت أضواؤها تنطفئ شيئاً فشيئاً، وفي الشفق احمرار الشروق يتصاعد دون أن نرى الشمس.

***

عدت إلى حجرتي وقلبي يدق بقوة، كاد الخوف أن يخلعه من مكانه. كانت إيلين حاضرة في ذهني تلك اللحظة بقوة. حاضرة، وصورتها الأخيرة ثابتة، وحياتها كانت تتقشر أمامي مثل لحاء الشجر، أغلقت الباب واستلقيت على السرير ثانية، شعرت بالتعب والإرهاق، مع ذلك أقنعت نفسي أن الصوت لا وجود له، لقد كنت أحلم، وأن تل مطران نائمة الآن، وإيلين زوما ما زالت مستلقية على السرير، ووجهها مستسلم للنوم لا للموت مثل طفلة، شعرت براحة كبيرة، شعرت بالأمان، ثم أعدت خيال إيلين، صورة جديدة وهي،

تقيم في منزل كبير مسور بالحجر، وبابه لا ينفتح، كانت جالسة بهدوء، تبسم بخفوت، تتحرك دون ضجيج على البلاط الأبيض النظيف، حافية كانت، وفي الخارج تتساقط أوراق العنب الجافة على الأرض المكنوسة جيداً.

(٩٤)

استيقظت في الضحى بعد أن نمت نوماً عميقاً.

ارتديت ملابسي، وضعت السكارف والقفازات في الكومدينو، أزحت الستائر، كانت الشمس ساخنة، عذبة هذا اليوم، قلت لنفسي: أذهب لأفطر في شارع النبي دانيال أو شارع أحمد أفندي ثم أذهب إلى البيعة.

هبطت بسرعة إلى البهو، كانت ريزان مضطربة مذعورة، تتحدث مع سيدة كردية كبيرة السن، ترتدي زياً محلياً: عمامة معصوبة على الرأس، روباً ملوناً يلف بطنها وقد سحبته من طرفه وعلقته إلى كتفها.

التفتتْ نحوي ريزان، وقالت: «ماموستا عرفت الخبر؟». لقد هبط علي سؤالها مثل صاعقة، لقد هدت قواي، أدركت أن الصوت الذي سمعته بالأمس حقيقة.

«أي خبر ريزان، قولي، أي خبر؟» كان صوتي يخرج رغماً عني مبحوحاً وخائفاً.

«صارت جريمة في تل مطران». لقد خارت قواي، فسحبت كرسياً قريباً وتهالكت عليه، كاد أن يغمى علي لحظتها. من دون أن

أفتح فمي بشيء، استرسلت ريزان بحديثها: «لقد قتل واحد زوجته في تل مطران».

«من هي؟ ما اسمها؟». سألتها.

«إيلين زوما، قتلها زوجها زيا ابن خوري». لقد تسلط على ذهني لحظتها تشوش كامل، كانت ريزان وراء الحاجز الدائري المصنوع من الصاج في بهو الأوتيل، تنظر نحوي مندهشة وهي تفرك يديها، بينما توقفت المرأة الكردية أمامها عن الكلام، وأخذت هي الأخرى تنظر نحوي باستغراب، قلت لريزان: «متى كان هذا؟».

«اليوم في الفجر. ماموستا انخطف لونك، شنو القضية؟».

كأني غفوت غفوة عميقة دون تفكير، وبعد ذلك نهضت، دفعت باب الأوتيل وخرجت.

(٩٥)

لقد أصبح الفضاء موحشاً، رمادياً مع أن شيئاً في الحياة لم يتغير، كنت أشعر بأن ما تغير هو في داخلي لا في الخارج، وقد بدا كل شيء طبيعياً.

اختفت الشمس وراء سحابة تسير من الشمال إلى الجنوب، قمم الجبال البيضاء اختفت وراء الضباب، كانت الشوارع مبللة بالثلوج الهشة الذائبة، وقد بقي البياض في الحفر والوديان يبقع المساحات البعيدة من مكان إلى مكان. سرت بصعوبة مثل سكران في شارع أحمد أفندي، كل شيء أخذ شكلاً آخر. البنايات الكبيرة لم تعد

مكتبة الفكر الجديد

تـدهشني، الفنـادق التي كنت ألامس بالأمس حجارتـها وأحبـها صارت تقززني، المنازل الحجرية، الملاهي، البارات كلها أخذت شكلاً آخر، حتى براميل الزبالة المكتوب عليها بلدية أحمد أفندي والتي أدهشتني يوم وصولي إلى شارع النبي دانيال أخذت شكلاً آخر، غير شكلها الأول، لقد تحول الفضاء إلى مسافات ضدية تعاديني، تحاصرني، تخنقني، كيف تغير كل شيء وبهذه السرعة، لم أكن أعرف، لم أكن قادراً على التفكير أبداً. الشيء الوحيد الذي كان يجرح قلبي ويضغط عليه بقوة، هو أن المدينة كانت تتحرك غير عابئة بمقتل إيلين زوما.

حياة تدور وتدور، عجلات سيارات الشوفرليت التي تقل الراكبين إلى الموصل كانت تدور، عربات الحمل التي تسحبها البغال والحمير كانت تتحرك، باعة الفاكهة الذين يحملون السلال في ميدان الراهبات يركضون، الحوذيون الذين يحملون السياط أمام عربات الربل ذوات السجف السود يضحكون بقوة، أبواب الأوتيلات والمطاعم ومحلات البن ومتاجر العطور مفتوحة، وعلى الرصيف كانت الجرائد وأوراق الأشجار المتساقطة وعلب المقوى تلعب بها الريح على طول الطريق، كل شيء في المدينة يتحرك ولم يتوقف.

هذا الموت لم يصب المدينة بالبرصام ولم يجمدها كالحجر. هذا الموت هو موت إيلين وحدها. ولم يحول الأفنية المضاءة إلى سراديب مظلمة، أو يحول هذه الأرض المرصوفة بالحجر إلى رصاص ذائب.

***

مكتبة الفكر الجديد

وقفت عند شجرة ضخمة، مسكت جذعها الذي كتب عليه العشاق ذكرياتهم وتواريخ لقاءاتهم بيدي، ووضعت رأسي عليه. سمعت صوتاً ورائي، رفعت رأسي، رأيت بياتريس الأرمنية وقد خرجتْ من صالون حلاقة نسائية مطل على الشارع وتوجهتْ نحوي. كانت بياتريس قد صففتْ شعرها وقصته قصة إنكليزية (قصة الليدي ديانا، كانت موضة شائعة بين المراهقات) وقد أبرزتْ خديها الموردين السمينين، كانت رائحة السبراي تضوع من شعرها، توقفتْ أمامي وقالت: «ماذا بك؟». قلت لها: «لقد ماتت إيلين زوما، بياتريس. قتلها زوجها».

«إيلين زوما.. مَن إيلين زوما؟».

«ألا تعرفينها؟ زوجة زيا خوري» وأشرت بيدي إلى تل مطران «هناك في تل مطران». قطبت بياتريس حاجبيها وقالت: «هل هي قريبتك؟» فهززت لها رأسي بالنفي. «إذن لماذا تبكي عليها؟». هذه المراهقة التي لم تفكر إلا بجسدها وبنفسها قالت الحقيقة، إن لم يكن هذا الموت هو موتاً يخصني فلماذا أحزن، ولكنني لم أكن حزيناً على إيلين زوما إنما ما كان يعذبني هي فكرة موتها، فكيف لبياتريس أن تفهم؟

«هل نذهب بنزهة في الربل كما وعدتك بذلك؟». قالت هذا وهي تفتح الزر العلوي من قميصها بأصابعها وتغلقه. لم أجبها. كانت لدي رغبة حقيقية بصفعها، إن لم أقل بسحلها من شعرها الذي يفوح بالسبراي، ولم أشعر بأي نوع من التناقض في تلك اللحظة، لقد شعرت بصدق وحقيقة ما قاله القاشا: كي تنتصر لفكرة صحيحة وحقيقية ومتكاملة

عليك أن تطرق على رؤوس الذين لا يفهمونها، إن لم يكن عليك أن تهشم رؤوس الذين لا يفهمونها.

كيف بزغ هذا الحقد وهذه الكراهية مرة واحدة في نفسي، لا أعرف. لقد حقدت على المدينة تماماً وكانت لدي رغبة حقيقية بتدميرها. كيف برزت هذه المشاعر وبشكل صلب في نفسي، إلى الآن لا أعرف.

(٩٦)

عبرت الشارع، سرت أمام المطعم، كان الدخان القادم من الشاورمة ساخناً، وكانت أيدي الطهاة تحمل الصحون والأسياخ المحملة باللحم وتدور في المطعم، ومن الواجهة الزجاجية كنت أنظر إلى أدور الحلاق وهو يلف اللحم بالخبز يأكل ويتحدث، وهنالك رجل يبيع السجائر بالمفرق يشرب الشاي الساخن ويضم الكوب بكلتا يديه ليتدفأ به، مرت عربة أمامي فصرخت بها، توقفتْ، تمسكت بالرابط الذي يحمل المصباح وصعدت، فانزلقت قدمي واصطدمت ركبتي بالمسند ثم استويت وألقيت بنفسي في الخلفية، أخرجت سيجارة وأشعلتها بينما لم تتحرك العربة إنما بقي الحوذي جالساً، وبعد فترة صمت التفت نحوي وقال: «أين تذهب؟».

«إلى تل مطران..».

سارت العربة ببطء أول الأمر ثم أخذت تسرع شيئاً فشيئاً، فتناثر الحصى تحت عجلاتها في شارع النبي دانيال. كنت أنظر إلى جذوع الأشجار السميكة المشققة، الثلج الملطخ بالوحل،

مكتبة الفكر الجديد

المصطبات التي يسقط عليها ورق الشجر، وخشبها الرطب ينز ماء في الطريق، كنت منشغلاً بهذه التفاصيل الصغيرة لكي أبتعد كلياً عن فكرة موت إيلين زوما ومقتلها.

ومن الزقاق المؤدي إلى المدبغة رأيت فريدة ترتدي تنورتها القصيرة الضيقة وتركض.

لقد وضعت على رأسها إيشارباً أحمر، كانت تركض وتتلفت وراءها.

صرخت بالحوذي: «توقف..».

سحب اللجام، فكشرت الخيول عن أسنانها ومالت أعناقها يميناً وهي تصهل نصف صهلة. توقفت العربة، فهبطت بسرعة، وركضت باتجاه فريدة، اصطدمت بصبي يبيع السجائر بالمفرق وقد وضع صندوقاً برقبته، فسقط على الأرض وهو يسب ويشتم.

«فريدة، ماذا تفعلين هنا؟». تأوهتْ، أنّتْ أنات قصيرة متقطعة، ثم ارتمتْ بين ذراعي «ماذا.. ماذا بك؟» - صرخت بها: «لماذا تركضين؟». كان وجهها دون ماكياج، بشعاً، أصفر، شاحباً مثل وجه ميتة. قالت: «ارحل لا تبق في شارع النبي دانيال». كانت مرهقة وتتنفس بصعوبة.

«لماذا؟» قلت وقد تجمدت قدماي من الرعب «ماذا حدث؟».

«المختار.. مات». قالت، وكانت نظرات اتهامها مرعبة. في تلك اللحظة شعرت بتغير وجهها. لقد كان مزيجاً من الكذب والخيانات

مكتبة الفكر الجديد

والدعارات. لم أكن ممتناً لها أبداً إنما شعرت بقوة بتلك العلاقة الناقصة التي تلطخني، ولم أكن أزدريها وأحتقرها، كما ازدريتها واحتقرتها تلك اللحظة، ركضت دون أن أنظر خلفي. صعدت الربل، وقلت للحوذي: «انطلق. انطلق بسرعة، بسرعة». ما الذي جاء بها في هذا الوقت، ألم ترحل؟ المختار مات.. ما دخلي أنا؟ أيكون القاشا أرسلها؟ وكل ما صنعناه لم يكن في الواقع سوى برنامج خطط له القاشا وطبقته أنا، هل هذا هو الشعر العملي الذي كان يبحث عنه، وحياتي هنا لم تكن سوى قصيدة سريالية كتبها هو؟

(٩٧)

صحراء من الثلج صامتة تمتد على جانبي الطريق بارتفاعها وانخفاضها، هواء بارد جمدني، وكثبان من الثلوج تتموج بشكل بارد وترتعش أمام هبات الرياح.

دخلت العربة إلى تل مطران، كان لزاماً على الحوذي أن يمر قرب البازار الذي يتوسط ميدان المدينة الصغيرة، وصلنا قرب باعة الطيور والحبوب والماعز والأشياء الرخيصة المصنعة والذين يفترشون الرصيف، لقد مرت العربة من خلفهم، فتعالت الضجة، أخذت تتصاعد شيئاً فشيئاً حتى وصلت إلى دكاكين الصاغة ومتاجر الأقمشة والمحلات التي تبيع البضائع التركية المهربة عند حافة البازار.

هرب باعة الرز والحنطة والبقول، كانوا جالسين على الأرض دون حوانيت، هربت الخراف والنعاج والسخول التي تتجول في الساحة على ضجة البائعين، كل بائعة كانت تحمل على رأسها قفصاً للدجاج أو للبط أو للطيور وتركض، كان الجميع يصرخ

مكتبة الفكر الجديد

بأصوات عالية متداخلة متمازجة وقد تركوا على الأرض علب الزينة وصور الممثلين، وقوارير العطور، والدلاء المقلوبة، والنعالات المتروكة وانتقلت الفوضى إلى الحمير والبغال التي هربت مذعورة نحو الجبل. كان الحوذي يتلفت يميناً وشمالاً لا يعرف ما العمل، وكلما تزداد الضجة يضرب بالسوط على الحصانين، وقف على طوله وقد تشبثتْ أقدامه بالعارضة الخشبية وأخذ يضرب بالسوط ويصرخ بكل صوته (ديه.. ديه..).

***

كان ذعر المدينة واضطرابها يزدادان كلما كنا نتقدم داخل الميدان، وفي منتصف الطريق المؤدي إلى منزل القاشا اعترضنا بغل هارب مذعور اصطدم بالجانب الأيمن من العربة، كاد يقلبها، فتشبثت بالسجفة السوداء بكلتا يدي ولكني لم أستطع فانزلقت وسقطت في الداخل، بينما مالتْ العربة يميناً فانفلتتْ عجَلتها إلى الأسفل وسقط الحوذي على الأرض، وحين داسته العجَلة الثانية انقلبت العربة إلى الشمال، فشعرت بالانقلاب وحاولت القفز منها ولكني انحشرت بين السجفة السوداء والقائمة الخشبية، فشعرت بدوار أفقدني وعيي للحظات.

(٩٨)

حين استعدت وعيي، أحسست بأن الحصانين ما زالا يسحبان العربة المقلوبة وأنا داخلها، فنهضت وقفزت إلى الخارج، فلم تحملني ركبتاي وسقطت على الأرض.

دقائق (لا أعرف كم عددها) شعرت بأن ضجة الناس وصياحهم

مكتبة الفكر الجديد

وضحكاتهم كانت تحيط بي من كل مكان، لقد كانوا مثل مجانين، جمهور هائج ومنفلت ماذا كان بإمكانه أن يفعل بضحية ضعيفة بين أقدامه؟! بعضهم كان يقترب مني ليتأكد من ضعفي ولكني حين أتحرك يعطس من الرعب ويولي الأدبار، بعضهم كان يضحك بقوة، ويلوح لي بيده وبالأشياء التي يحملها، لقد هزهم الرعب مني، أعرف، وأفقدهم توازنهم، كان أحدهم يكشر لي بفمه، ولكنه يخشى الاقتراب مني فدفع الذي بجانبه نحوي وتحداه أن يقترب مني، فقبل التحدي ولكنه حين اقترب خطوتين أو ثلاث خطوات عاد هارباً فأخذ الجميع يضحك عليه ويقهقه عالياً. كان البعض منهم يرمي علي قشور البرتقال الموحلة، والعلب الفارغة، وكارتونات البيض الفارغة، والدلاء المقلوبة التي انتشلوها من الزبالة، لقد جعلهم الخوف يمزحون مع بعضهم وكأنهم في عطلة، ربما منحهم هذا الوضع المتوتر نشوة مضاعفة وجعلهم يفقدون توازنهم، لقد انتزع أحدهم حذاء الذي بجانبه ورماه على رأسي وتحداه أن يكون شجاعاً ليستعيده.

***

فتحت عيني بصعوبة، رفعت رأسي، كانت الأرض تدور بي، وهنالك غشاوة بيضاء تمنعني من أن أرى الأشياء بوضوح، شعرت بجفاف شديد في حلقي، وأخذت ذبابة تطن وتحوم على وجهي.

كانت العربة مقلوبة ورائي وقد وقف الحصانان هادئين، بينما سحب الجمهور الحوذي على الرصيف وأخذوا يهفون له، أحسست تلك اللحظة بأني لو أظهرت أي مظهر من مظاهر الضعف سينقضّ علي الجمهور ويمزقني، فصرخت بهم: «يا

جبناء.. يا جبناء» في الواقع كنت أنا أكثر جبناً منهم، أكثر خوفاً، ولكني شعرت بأن إبراز مظهر القوة ربما سيخيفهم. نهضت من مكاني، وأنا أشعر بالألم في كل مكان من جسمي، كنت أشعر بجسمي وقد أصبح مثل دمية مفككة، وحين سرت تطوحت مثل سكران، رفعت قبضتي نحوهم فهربوا أمامي، لقد تقهقروا، فشعرت بنشوة كبيرة لأني أثرت الرعب مرة أخرى في نفوسهم. لقد شعرت تلك اللحظة برغبة قوية، رغبة حقيقية بتدميرهم وسحقهم بقدمي، رغبة هائلة ومنفلتة بسحلهم على الطريق، كانت لدي رغبة أكيدة برؤية أي واحد منهم وقد تعلق على رافدة خشبية مكسور العنق.

كيف حدث هذا التغير؟ لا أعلم. كنت أظن فيما مضى بأن العنف هو مظهر من مظاهر العامة، ولكني الآن وفي هذه اللحظة شعرت بتغير حياتي كلياً، الآن وفي هذه اللحظة عرفت ما كان يعنيه هذا الشاعر الفاشل بجملته وهو: أن نحرر هذا الجمهور من إثمهم بالعنف، لقد تغيرت صورهم في ذهني تماماً، لقد تغيرت سحنات وجوههم، وأشكالهم، وحياتهم، وصورهم، وحتى أزياؤهم، هذه الملابس التي كنت أحبها بالأمس تحولت في نظري إلى ملابس مهرجين، أما وجوههم فقد تشوهت وارتسمت مثل ظلال مخيفة في نهاية الطريق.

سرت نحو البيعة، رأيت رجلين بأردية سود يمسك كل واحد منهما بتلابيب الآخر وقد اشتبكا بصراع عنيف، سمعت ورائي ضحك الجمهور الهارب وهو يندفع نحوي. ضحك عنيف، وضربات قوية منتظمة، أما النساء فقد تمايلن أمامي وكأنهن ثملات، ارتمت امرأة على البلاط المصقول قبالة منزلها وأخذت تبكي، كل شيء

كان مقززاً ودامياً وبشعاً، وحين دخلت البيعة رأيت نور المصابيح شاحباً، وقد نصلت اللوحات الزيتية من ألوانها وتشوهت وجوه القديسين وأصبحت فخامتها بشعة، وتحت النور الضئيل كان القاشا ينحني بصلعته اللامعة على الطاولة التي تحتوي كتباً ومخطوطات قديمة وهو يقلب كتاباً من دون غلاف.

«قاشا، لقد حدثت أشياء فضيعة». التفت نحوي وابتسم بشفتين ذابلتين.

ما أثارني فعلاً هو وجهه الهادئ تماماً والمرتاح، لقد كان يرتدي بذلة قديمة من الصوف ذلك اليوم، وقميصاً أسود ربطه بشريط أبيض عند العنق، وضع قلمه على الطاولة، ونهض من مكانه، قادني إلى كرسي قريب منه وأجلسني عليه وقال بصوت هادئ:

«كل يوم تحدث أشياء فضيعة في تل مطران رابي، كل يوم تحدث جريمة».

أخذ يدور حولي بملابسه السود ووجهه الوردي الذي يشبه النبيذ، كنت أنظر نحوه بعيني اللتين غزاهما الدمع، فشحبت صورته وكأني أنظره من خلف زجاج نافذة هطل عليها المطر. قال: «انظر إلى هذا الخاتم..» كان الخاتم الألماس يشع بإصبع يده اليمنى بخفوت، وأخذ يدوره بأصابع يده اليسرى.

«الجرائم تدور مثل هذا الخاتم، جريمة تتصل بجريمة، جريمة تتصل بجريمة. علينا أن نوقف هذه الجريمة ببتر هؤلاء الزوائد. علينا أن نقضي عليهم». ثم صرخ: «نحن بحاجة إلى جنكيزخان

مكتبة الفكر الجديد

جديد، لنحرق هذه المدينة ونغني على موتها». ثم ضحك ضحكة مسرحية واستدار دورة كاملة وهو يرفع يديه إلى الأعلى، فانزلقت قدمه، وكاد يسقط على الأرض.

(٩٩)

أمضيت الليلة في منزل القاشا، لقد منعني من الذهاب إلى شارع النبي دانيال، وأمر محمد الحوذي أن يجلب لي حقيبتي وكتبي وملابسي من «أوتيل السعادة» في شارع أحمد أفندي.

لقد أصبح كل شيء واضحاً بالنسبة لي: إيلين قتلها زوجها زيا خوري في الفجر، والصرخة التي سمعتها هي صرختها بلا شك، ولكني لم أحدث القاشا عنها، وقد حدثني هو بالتفصيل عن مقتلها، فقد جاء زيا في الفجر وحين أصبحا وجهاً لوجه، هجم عليها وطرحها على الأرض، وأخذ يركلها على وجهها وبطنها، ثم ربطها ومزق ملابسها وهي تبكي، فدخل الجيران المنزل دون أن يتدخل أحد منهم، كان الأمر بالنسبة لهم لا يعدو أن يكون فرجة على فيلم من أفلام الجريمة، ضربها بقبضة يده على رأسها، وانقض عليه بالسكين، طعنها عشر طعنات، ذبحها وشوه وجهها. وحين سألت القاشا عن وردة، قال: «لقد فقد عقله.. بينما سار زيا خوري بهدوء إلى المخفر ملوثاً بالدم وسلم نفسه أما يوسف خوري فقد هرب قبل يوم من وصول زيا ولا أحد يعرف أين».

وفي الضحى جاء حراس قصر المختار إلى القاشا وأخبروه بأن شميران بعثتهم لينقلوا له موت جدها، فقد وجدته ميتاً في السرير، نهض من مكانه وهو يضحك، وقال:

«لقد قتلته، ألم أقل لك أن شميران ستحفر حفرة وتخرج الكنز، ويجب أن يدفن أحد مكانه».

«نعم قاشا، لكن القتل شيء والموت شيء آخر».

«نعم، ذهبت وفحصت الجثة. لا آثار قتل عليها. وحين فحصت رأس المختار جيداً وجدت ندبة صغيرة بسيطة حمراء في رأسه».

«ماذا يعني هذا؟».

«اسمع هذه الطريقة أعرفها. كان دانيال والمختار كلاهما يستخدمانها لقتل أعدائهما، يمسكان الشخص وهو نائم، أو يعطيانه مخدراً، ثم يدقان إبرة طويلة برأسه بهدوء.. حتى تصل إلى الدماغ، فيرتعش رعشة واحدة ويفارق الحياة، ثم يخرجان الإبرة بهدوء ويمسحان على مكانها. ولا أحد يمكنه أن يكتشف هذه الإبرة أبداً. يبدو وكأنه مات، لا آثار جروح، ولا خنق، ولا أي شيء من ذلك».

***

حين أكمل القاشا كلامه عصفت بي رغبة لا ترد لكي أتقيأ، إنهم يتلفظون بهذه المشاهد المروعة، ويتلذذون بها في العمق، كان كل واحد منهم ينظر إلى نفسه بوصفه الفاعل لا الضحية، لم يكن أي واحد منهم يهمه ما يحدث للغير أبداً وكأنه جزيرة معزولة ووحيدة في المحيط.

مكتبة الفكر الجديد

كانت صلعة القاشا تلمع أمامي وهو على وشك أن يقول: علينا كلنا أن نفعل هذا، تنحنح ثم أردف: «هذا العالم لا يمكننا أن نخرجه من العنف إلا بالعنف». كانت روحه ذلك اليوم توحي بمظاهر الصحة، وكان وجهه ينضح بالعافية، كان يتحدث برضا وسرور تامّين، وهو يهز برأسه هزة سلطانية قصيرة، وبصوته المضغوط الذي يخرج مباشرة من بطنه قال: «القتل هو الحل. عليك أن تكون حذراً من الناس. أما رأيتهم اليوم.. لو شعروا بضعفك لمزقوك بأسنانهم». ابتسم لي ابتسامة متكلفة، وهو يدور حولي بملابسه السود، وصرخ: «إننا أحرار لأننا أقوياء. القوة وحدها التي تستحق الإطراء». ثم سألني: «أريد منك إشارة قصيرة برأسك، هل تسير معي؟ أنا قاشا وأنت رابي، وهنالك نبي خفي في مكان ما، نبي لا تراه الناس وهو رمز وشعار السلطة العظيمة. رمز السلطة العظيمة لأنهم لا يرونه، لو رأوه لسخروا منه.. أو لداسوه بأقدامهم. لكي تكون السلطة عظيمة ومخيفة يجب أن تكون خفية ومخبأة ولا وجود إلا لقوانينها وشرائعها على الناس، وهنا ستكون العدالة مطلقة، وهؤلاء الرعاع يمكننا السيطرة عليهم بالكلام الذي لا معنى له. لو كان في كلامنا معنى سيتهدم كل شيء. الشيء الذي يعرفونه ويفهمونه لا قيمة له. الألغاز وحدها لها القوة على ضبطهم وتوجيههم، وفي تلك اللحظة نحولهم إلى سرب من الجراد، سرب سيهجم.. وبيد ثقيلة يهدم كل شيء».

أشرت له برأسي إشارة الموافقة، فابتسم، فتح عينيه على اتساعهما، وغزا اللون الأحمر وجهه، وقف أمامي وقد سمعت عظامه وهي تطقطق، استدار دورة كاملة، ورفع يديه مثل حطاب وصاح: «آسيا.. آسيا».

مكتبة الفكر الجديد

***

كان رأسي على الوسادة، لم أكن نائماً تماماً، كما أني لم أكن مستيقظاً تماماً، كنت أعرف أن هذا الشاعر يدبر شيئاً ما، وأنا مؤمن هذا اليوم بما يقول، أو مؤمن إلى النصف على الأقل، ومع ذلك بقيت الأسئلة الأكثر إلحاحاً والتي تقفز بفجائية كبيرة وسط اللوحة دون أجوبة.

كل الأشياء هنا تحدث كما تحدث المعجزة، كل شيء يظهر ويختفي مثل ضياء يزول قبل أن أقبض عليه براحتي، رأسي على الوسادة، ومن بعيد أسمع صوت الحياة يأتيني عبر النافذة: عجلات العربات وهي تطقطق على الشارع الإسفلت، صوت المنبهات التي تجأر، حمحمة الحراس في الليل حين خيم السكون، صوت الأرجل المنتعلة وهي تدوس الحصى، حوافر البغال وهي تسير ورؤوسها التي تتحرك تهز الخلاخل المربوطة في أعناقها. وأنا اليوم لست خائفاً إلا من شيء واحد هو أن أفقد عقلي ويصيبني الجنون.

(١٠٠)

استيقظت، رفعت الغطاء عن السرير، ارتديت ملابسي، وهبطت إلى الصالة. كانت جولي تزيل آثار التراب عن السجاجيد بالمكنسة الكهربائية، كانت الصالة ممتلئة بالكتب الملقاة على الطاولة وعلى الأرض.

خرجت دون أن أقول لها شيئاً، كان الهواء بارداً، والغيوم تغطي السماء وقد أخذت تنث مطراً. في الطريق توقفت، خفت من الجمهور أن يهتاج مرة أخرى أمامي، كان هنالك دكان قصابة واسعاً تقريباً، واجهته بيضاء ومبلطة ببلاط أبيض لامع، وجدران

الدكان مبلطة بطلاء أبيض، وهنالك العجول والخراف معلقة، بطونها مفتوحة، وهي تقطر دماً، وأضلاعها مفتوحة في الواجهة، تدور على نفسها بعد أن علقت من عراقيبها بخطافات سود، وقد وقف الجزار السمين أمام الواجهة.

هبطت إلى الهضبة، كانت ملابسي قد ابتلت تماماً، فتحت معطفي وأخذت غصناً مرمياً على الأرض واتكأت عليه، (ماذا أصنع؟). كنت بحاجة لفكرة النبي ذلك اليوم أكثر من القاشا، فلأجمع له أتباعاً ولكن من أين؟.. توجهت إلى قرية العرب.

(١٠١)

كان ثمة جماعة من المسلمين يتجمعون بمواكب كبيرة، بأثوابهم البيض، وعمائمهم الملونة أمام الجامع الكبير، كانوا ينشدون مقاطع من ابن عربي ويدقون على الدفوف، وهنالك أعلام وبيارق حمر بلون الزعفران مرفوعة تخفق تحت المطر، النساء يسرن بأثوابهن الملونة ألواناً بدائية، والهواء يعبث بمقدمة شعورهن، وصوت الصنوج ينطلق في فترات السكون على صوت الدرابك الخفيف والصراخ والنشيج، وأمام الجامع كانت مجامر النار مشتعلة بخفوت، وكانت الخيول تحمحم مكتومة الأنفاس وقد خفقت فوقها الأعلام التي تحملها الرماح القصيرة، وفي العمق انطلقت العربات التي تحمل الصبايا اللواتي يضربن الصنوج والشبان المصبوغي الوجوه وهم يصرخون بقوة.

تقدمت نحو الجامع، ثمة جماعة من الشيوخ يجلسون على الأرض، وقد اتكأوا على الحائط الحجري للجامع، كانت وجوههم قاتمة السمرة، يرتدون عمائم بيضاً متربة قليلاً،

مكتبة الفكر الجديد

وقفاطينهم مفتوحة الأزرار، والعباءات العريضة مبطنة بصوف الخراف، وهي واسعة الأكمام تنتهي عند المعاصم.

رأيت عجوزاً يتوسطهم وهو يجلس على وسادة مهدبة، كانت أسنانه سوداً، يمسك مبسماً خشبياً ويدخن بصورة متواصلة، وهو يحني رأسه للأسفل، ومن الجهة الأخرى هنالك مجموعة من النساء يتحركن في الشارع المقابل للجامع وأطفالهن يتقافزون في الوحل تصدر عنهم أصوات مختلطة.

كانت الشوارع موحلة باردة، وحجر المنازل الأبيض كان رطباً، أما الأسلاك الكهربائية فقد كانت تهتز في الهواء سميكة مرتخية على الجدران. في تلك اللحظة مر رجل بعربة خشبية يدفعها بيديه، وقد كتب عليها باللون الأصفر (صلي على النبي) كانت العربة مكعبة الشكل، تحمل قصاع الخضرة والفواكه، وكانت عجلاتها كبيرة تحدث قرقعة وهي تسير. توقف الرجل بها على مقربة من الجامع، وأخذ يصرخ: «خضرة.. خضرة.. فواكه» لم أتبين وجهه، لأنه كان يلف رأسه بكوفية سوداء وقد وضع دشداشته بلباسه الذي يصل إلى ركبتيه، وما أن توقف حتى تجمعت النساء حوله حافيات يسرن بالوحل بسهولة وطلاقة، وملابسهن المشجرة والمقلمة ضيقة تبرز الصدور الكبيرة إلى الأعلى، وتخط أذيالهن في الوحل، وكنت رأيتهن من الخلف، كانت مؤخراتهن مدورة ثقيلة، وحين استدرن، رأيت ضخامة نهودهن من الأرواب المفتوحة.

***

وقفت أمام الجماعة التي تجلس على الأرض، سلمت عليهم،

مكتبة الفكر الجديد

واجهني شاب نحيف، وجهه شاحب أسمر وقد لوحته الشمس بقوة، صافحني بينما نظر الشيوخ لي دون اكتراث، لم أنطق بشيء أول الأمر. خرجت عجوز من المنزل الحجري وصفقت الباب الخشبي وراءها، فناداها رجل جالس على الأرض، أمرها أن تعد كوخ الضيوف، بقيت واقفاً، بينما دخلت المرأة المنزل الحجري، وبعد قليل تصاعدت النيران خلف المنزل بقوة، ومن بعيد سمعت صهيل الخيل في الوديان وهي تتجاوب مع بعضها بأصوات حادة منفرة.

رفعت يدي إلى السماء وأشرت إلى النار الموقدة خلف المنزل، وقلت بصوت مرتجف وأنا أقلد القاشا وحركاته، وقلت: «ها هي الحرائق قد اشتعلت، لتتقدم نحو الشرق، خلف هذه الجبال ستلتهب النيران وتحرق أطراف الشجر». نظروا إلى الخلف، فلم يروا شيئاً سوى حائط الجامع المصنوع من الحجر، ابتسموا لي أول الأمر، ثم ضحكوا، كأني قلت لهم مزحة، نظروا لي مرة أخرى وأخذوا يقهقهون، وحين سمعت النساء الضجة تركن البائع وتقدمن نحوي بخطوات بطيئة حذرة، وقفن على مقربة مني صامتات مبتسمات، وقد رفعت إحداهن ابنها على صدرها، ثم لحق الأطفال بهن، كانت رؤوسهم حليقة، أثوابهم مرقعة، وأقدامهم حافية، قلت لهم وأنا أمسك بعصاي:

«سيظهر النبي هذه الأيام هناك، وأشرت إلى تل مطران، سيظهر النبي وسنتبعه. السلام لكل البشر». كنت أريد تقليد البلاغة الدينية كي أجذبهم، إلا أن أحداً منهم لم يجبني بكلمة، أخذوا ينظرون إلى تل مطران، ثم ينظرون نحوي، وعيونهم خابية، وجوههم بليدة تماماً قلت بعصبية: «قلت لكم سيظهر النبي هناك. لا جائع بعد اليوم. الكل مثل أسنان المشط».

مكتبة الفكر الجديد

التفت الشاب نحوي، ثم نحو الشيوخ، وبعد ذلك أخرج مشطاً أسود من البلاستك من جيبه، كان المشط غير متساو بالمرة، إنما يتدرج من السميك إلى الرفيع جداً في النهاية، رفعه بوجهي ونظر إلى الشيوخ، ثم استدار نحوهم، وبين لهم الفرق في أسنانه، فضحكوا، وتعالت ضحكاتهم، ثم اختلطت الضحكات مع بعضها: الشيوخ، الشباب، النساء، الأطفال، أخذوا ينظرون إلى بعضهم ويضحكون.

في تلك اللحظة ازداد الحشد كثيراً، خرج رجال كثيرون، ونساء جلسن على العتبات، وأحاط بي الأطفال من كل مكان، يضحكون مني على ضحك أهلهم، رفع البائع العجلة الأمامية من عربته وتقدم نحوي، صار أمامي مباشرة، قلت لهم بصوت عال: «لا أقصد هذا المشط، هذا المشط صنعه من له مصلحة بذلك. ولكني أقصد المشط القديم، مشط أبناء الصحراء، سيظهر النبي هناك في تل مطران. هل تعرفون...».

قال البائع بصوت نحيف أشبه بصوت امرأة: «نحن مسلمون». قلت لهم: «أنا أيضا مسلم». التفتُّ نحوهم بعصبية، قلت لهم: «هاكم انظروا..». مددت يدي إلى سحاب بنطلوني، ترددت أول الأمر، ثم أخرجت قضيبي، وقلت: «انظروا أنا مطهَّر. أنا مسلم. لكن النبي لكل البشر».

أشاحت النساء وجوههن مبتسمات، ثم ضحك الأطفال ورفعوا دشاديشهم، وأخرج كل واحد منهم قضيبه، وهم يتلفتون إلى بعضهم، فانطلق الصخب بقوة، أخذ الجميع يقهقه في وجهي، النساء، الأطفال، الشيوخ، بائع الخضروات، الشباب، لقد

مكتبة الفكر الجديد

وضعوا أيديهم على بطونهم وأخذوا يقهقهون، ينظرون نحوي يشيرون بأصابعهم ويطلقون ضحكاتهم، ابتسمت لهم أول الأمر، ثم ضحكت على ضحكاتهم، بعد ذلك نفد صبري، وصرخت بوجوههم بعصبية: «أرجوكم اسمعوني...». رفعت عصاي إلى الأعلى بصورة مسرحية، واستدرت صارخاً: «ورائي.. يا فقراء الأرض..».

سرت إلى الأمام، خطوت خطوات واثقة، بمعطفي وعصاي، سرت أكثر من عشر خطوات. التفتُّ نحوهم، لم يتحرك أحد منهم، كانوا ينظرون نحوي بوجوه جامدة، فعدت إليهم.

«هل أنتم خائفون؟ سيروا ورائي. ماذا بكم؟». لم يتكلم أحد منهم، لقد تصلبت وجوههم أكثر فأكثر، كنت أرى القسوة في عيونهم ملتهبة، قلت لهم: «طيب، إن كنتم خائفين سيروا أنتم أمامي وأنا أسير وراءكم». لم يتحرك أحد منهم.

«تحركوا من مكانكم. لا يمكنكم البقاء هكذا جامدين. انهضوا.. آسيا نهضت آسيا ستجدد شباب البشرية. آسيا ستعيد إلى أوروبا شبابها. ستعمر الأرض. ستعيد إليها نهارها وليلها».

ولكن هل يعرفون آسيا؟

هؤلاء الرجال الجالسون على الأرض بأسنانهم السود، ووجوههم المغبرة، هل يعرفون على أية بقعة من الأرض يعيشون؟ «آسيا – قلت لهم – هل تعرفون آسيا يا حمير؟ هل تعرفون أوروبا؟ هل تعرفون؟». في تلك اللحظة تغير الأمر تماماً، لقد اجتاحهم الغضب

مرة واحدة، وقفزوا بوجهي، هرع الأطفال ورائي بالقشور الموحلة ورموني بها، كنت أنظر إليهم وأنا خائف، ركضت أمامهم وهويت على الأرض، ثم نهضت وركضت.

كانت رؤوسهم الحليقة المقملة، رؤوسهم الملأى بالبراغيث، رؤوسهم السمر الصغيرة، وآذانهم المنحنية مثل الفطر، أخافتني أرعبتني، كيف تحولت هذه الوجوه إلى مصدر رعب، هذه الوجوه التي كانت بريئة، تحولت بلحظة واحدة إلى وجوه ذئبية يمكنها أن تفتك بي، وتمزقني، لقد اختل النظام، لقد عرفوا بغرائزهم البسيطة أن قتلي يحتل موقع رضا في قلوب الجالسين على الأرض، ومن هنا أدركت عظمة الأخلاق التي أرادها القاشا، هذه القوة التي تضبط الرعاع وتحركهم، القوة وحدها يمكنها أن تفصل على هذه الأرض، القوة ولا شيء غيرها.

***

ركضت على الأرض الموحلة، تعلقت بصخور الجبل، أمسكت عصاي ورفعتها عالياً، ثم طرحتها على الأرض وتسلقت الصخور. في السماء، غربت الشمس وتركت لوناً أحمر في الأفق، ثم ظهر القمر عالياً، فمرت سحابة وغطته تماماً. ربما ضللت الطريق ولم أصل إلى تل مطران، قلت في نفسي، بعد ذلك شعرت براحة أضحكتني من كل قلبي، كنت عشت لحظة سريالية بالكامل، لقد شعرت بتنوير عظيم. كل ساعات هذه الأرض وسنواتها، كل تاريخها لن يعادل لحظة مما كنت عشت ذلك اليوم بفضل هذا الشاعر الفاشل الذي علمني جوهر الشعر، علمني أن أكون متوحشاً وملهماً وكأن الأرض تولد من جديد. كان علي أن أرقص وأصفق

مكتبة الفكر الجديد

بيدي وأقول لقد عشت لحظة أكبر من عام على هذه الأرض، لقد عرفت الطريق وحدي، وسمعت الموتى وهم يتكلمون، لا شيء يزعج إلا أولئك المتوحشون الذين لا يسترشدون بأرواحهم، لقد عرفت الإلهام الذي يتحدث عنه الشعراء ولا يعرفونه، إن كنت جائعاً فسأقتات به، إنه العطايا التي تتفجر في داخلي مثل نافورة من الماء، إن كنت تائهاً فإن أقدامي لا تخطئ الطريق وتقع في الفخاخ المنصوبة للخنازير، إن كنت خائفاً فإن روحي تعرف كيف تهدئ نفسها، كل شيء أمامي يتحرك ويحس ويضحك ويبتسم عند اقتراب الليل، لقد سمعت الحمام في صلاته المسائية وهو يشق السكون المخيم، رأيت الذئاب أمامي في الظلام وعيونها تشع مثل الفوسفور، عرفت هروب الأرانب التي تتدفأ في أوراق الشجر، لم أعد خائفا ولا مرتجفاً حتى وإن غطتني الثلوج، وقدماي غاصتا في الوحل إلى العرقوب، لقد شعرت بجذوة الشعر وهي تشتعل مثل لحاء الشجر الذي أكلت منه الدببة، شعرت بها وهي تحول كل شيء إلى فردوس، تحول الفاقة المطلقة إلى ثراء، والحزن إلى سعادة، فاهتز كياني كله، وسقطت على الأرض بعد أن تعلقت بجذع شجرة مقلوبة، أغمي علي أول الأمر، ثم نهضت، تنفست، وضحكت، لقد وجدت طريقي، وأخذت أتوكأ على عصاي وأنا أغني على صوت الذئاب التي عبرت في الوادي ورائي، تعثرت بجذع أجوف وتجاوزته، وسرت، فهربت الخنازير أمامي.

لحظات، ورأيت تل مطران.

كانت مزركشة بالمصابيح وسط الظلام الدامس، وقدماي عرفتا كيف تنفلتان من الفخاخ المنصوبة ومن الثقوب السود التي تريد أن تبتلعني، أردت تسلق الصخور لكن يديّ ضعيفتان فهويت، ثم

مكتبة الفكر الجديد

نهضت، رفعت عصاي وتسلقت الصخور بقدمي اللتين ترتجفان، وسرت، رأيت من بعيد مشاعل معلقة تضيء الليل، كانت ملامح تل مطران تتلاشى في غمام خفيف، وكانت الورود تخرج من الأرض دون سيقان، ثمة صوت يناديني يأتيني حاداً مرتجفاً مثل الناي في البرية يسيل أمامي ويملأ أذني، قال: «أنت لن تقطف هذا العود المزهر. ولن تأكل لحم الجاموس. ولن تضع الشمع الأسود في أذنيك. ولن تضع ذكر العقاب في الصحن».

دخلت تل مطران، ضربت قدمي على الأرض المزفتة فتساقط الوحل من حذائي، مر بي رجل يضرب على فخذه ويتهكم ويسخر من نفسه، وشخص آخر يصرخ وهو يسحق على عنق زوجته بالحذاء، ومن الزاوية البعيدة شخص آخر مجدور الوجه يجلد أولاده ويهينهم.

(١٠٢)

وقف القاشا أمام الكنيسة وقد زحفت الجموع أمامه، كانوا يلطمون على وجوههم ويبكون، ومن بعيد سمعت صوت حوافر الجياد تقرقع على الأرض الحجرية، فأخذ صوت القاشا يعلو بارتجاف ودمدمة تخترقها بين الحين والآخر أصوات عنيفة وصرخات وأصوات الطبول المصنوعة من جلود الجمال، كان صوته يتموج، يصمت، ثم ينتعش مرة أخرى، ومن زقاق الكنيسة الضيق اندفعت مجموعة من الصبيان بصمت وجلال كبيرين، وقفت بين الحشد فاندفع من الكنيسة مجموعة من الشبان حليقي الرؤوس، وهم يحملون المشاعل، ومجموعة أخرى تحمل السكاكين قصيرة الأنصال، اندفعوا بقوة إلى الخارج، والتحقوا بموكب الفرسان الذين يحملون البيارق والأعلام.

مكتبة الفكر الجديد

سرنا خلفهم بموكب طويل، وقد غمرنا جميعاً ضوء القمر. كانت الضربات على الطبول عنيفة، والصنوج ترتعش بقوة أمام الرهبان الذين ارتدوا كامل ملابسهم، وسارت وراءهم النيران والمشاعل في الظلام، أخذنا نخبط بأقدامنا في الثلج الذي أخذ يلسع قدمي ولكنه لا يؤذيني، وحين وصلنا إلى حافة الجبل، ركضت إلى القاشا الذي صعد على صخرة كبيرة، رأيت أشياء خارقة: السير على الجمر، شرب الزجاج المذاب، أكل العقارب الحية، والرقص إلى ما لا نهاية، الرقص حتى الغيبوبة والتلاشي، أو حتى الموت والجنون، كانت الحشود تزداد، والضجة تعلو، تنيرها المشاعل والمجامر النحاسية المثقبة، والفوانيس المرفوعة بالأيدي، في تلك اللحظة تغير وجه القاشا تماماً، لقد شعر بأن العالم أصبح في مطلق يديه، فصرخ بقوة، صرخ صرخة غضب.

لقد شعرت بأن صرخته كانت للاشيء، صرخة بوجه العالم، صرخة وكفى، لم يكن يعرف ماذا يريد، فصرخ.

(١٠٣)

مر الحشد أمامنا دون أن يكلمني القاشا، ذهب إلى نهاية الطريق ثم عاد، وصل إلى الحافة الثانية من الطريق دون أن يعرف أحد ماذا يفعلون، ولا هم أنفسهم يعرفون ما يفعلون، ثم عادوا.

كانت الكلاب تنبح، وموسيقى الطبول الكبيرة المصنوعة من جلود الجمال تتصاعد، كان البكاء يزداد شيئاً فشيئاً، والحمى تلتهب بين كل الرجال، فالتفت نحوي القاشا وقال لي: «اتبعني رابي». تبعته، أخذ يسلك الدروب المتعرجة والطرق الملأى بالثلج، حتى وصل إلى قمة عالية من الجبل، جلس عليها وقد هبطت قطرات من العرق

مكتبة الفكر الجديد

على صلعته وملابسه المطرزة السوداء، لقد هرم وجهه، وتشنجت عضلات يده، كان المشهد أمامنا غريباً، أشار بيده إلى الحشد، وقال: «انظر.. انظر..». فنظرت، لم أر شيئاً غير الحشد، ثم أطلق ضحكة مدوية عالية، ضحكة غريبة، وأخذ يقهقه ويسعل، قال وهو يغالب ضحكته المنفجرة في وجهي: «انظر، إنهم سرياليون أكثر منا. إنهم سرياليون أكثر منا. انظرهم». لشدة ضحكته أخذ المخاط يخرج من أنفه دون أن يتمكن منه، لقد اصطدم رأسه بالأرض وتتربت صلعته، وهو يضرب بكف على الأرض ويضع الكف الأخرى على بطنه.

نظرت، كدت أبكي على هذه الجموع التي غاصت وجوهها في الظلام، وأنارت المشاعل والفوانيس أجسادها، لقد رأيت الرجال في تلك اللحظة أشبه بالمهرجين، والنساء أشبه بالبغايا، وكان صوت ضحكته يعلو في أذني على صوت الطبول وصوت الناي العميق والمتموج، كانت قهقهاته تعلو على الصراخ المشوش الذي تطلقه هذه الأمواج من البشر، والذين تكاثروا حول النيران في الظلام، أما هذا الشاعر الذي آمنت به فقد تحول إلى بهلوان، إلى قزم. لقد أدركت أنه مخادع كبير ضحك علي وعلى الناس ونشر خيالاته المريضة والمتشنجة وأقنعنا بزيفه.

***

سرت بين المنازل الحجرية المتداعية في الطريق وفي الحدائق الصغيرة المزروعة بالسرو والنارنج والبرتقال، نظفت حذائي على الرصيف، فتوقف قريباً مني شخص وسيم ونحيف، قال: «خنتا شميران تريدك، اتبعني». تبعته حتى وصلت إلى منزل صغير

واجهته مصنوعة من القرميد، وعند بوابته الحديدية يقف شخص بمعطف رصاصي وقد وضع الطرطور على رأسه، فتح الباب وأصبحنا مباشرة أمام باب كبير من الصاج. طرق الرجل الباب.

«منو..؟». جاء صوت من الداخل.

«أنا.. جاء الرابي». دخلت، كانت الصالة واسعة، وقد بدت بأبهة عظيمة، كانت الجدران مغطاة بالبسط الملونة، هنالك أرائك فخمة مطرزة طنافسها بخيوط الذهب، وقد فرشت الأرضية بالسجاد الثقيل، ومن الداخل ينبعث الضوء خافتاً، وقد جلس رجلان متقدمان بالسن، يرتديان الثياب الأنيقة، ويرشفان القهوة التي انبعثت منها رائحة الهيل الحادة، وفي الزاوية تجلس شميران.

«شميران، أريد أحكيلك وحدك».

أشارت برأسها إلى ضيفيها، فخرجا من الباب الصاج المواجه لنا، وبقينا هي وأنا وجهاً لوجه، ابتسمتْ شميران، ورفعتْ النقاب عن رأسها، فارتختْ خصلات شعرها المدهونة بالزيت وتدلتْ على وجهها، كان لون وجهها وشفتيها قد جذباني بقوة. قلت لها: «لقد خدعني القاشا».

«اسمع رابي، علينا أن نتخلص منه». قالت ذلك بنغمة أشبه بتلك المنبعثة من كمان.

«كيف؟». قلت لها بصوت خافت، وقد رفعت رأسي نحوها ببطء «كيف؟».

مكتبة الفكر الجديد

«بمساعدتك. المسألة بسيطة. سيعلن القاشا ظهور النبي الليلة». قالت ذلك بصوت عميق وقاس، نهضتْ من مكانها وتحركتْ نحو الكومدينو، أخذتْ كأساً شفافاً وصبتْ به مشروباً بارداً، وتحركتْ نحوي، وقالتْ: «اشرب، هذا عصير بارد، اشرب».

«سيقتل القاشا عيسى اليسوعي وسيقول للناس بأن النبي موجود في إحدى حجرات الكنيسة وبعد ذلك يخرج للناس بين آونة وأخرى ليكون وسيطاً بين الناس وبين النبي. وسيفرض على الناس كل ما يريده باسم النبي».

«لا أصدق. قال إنه لن يقتل أحداً».

«هـذا الأمـر ضـروري لـه. سيـقتلـه ليـكمـل النبـوة». ثم ضحكت شميران، رفعت خصلات شعرها عن وجهها، وقالت: «نعم، إن اختفاء النبي هو المهم. لن يدع أحداً يراه. سيصبح هو الوسيط بينه وبين الناس. اسمع، ستأتي معي إلى القصر وستبقى هناك، فهو لن يتحمل الليلة. سيعلن ظهور النبي وبعد ذلك تتصرف».

***

خرجتْ شميران قبلي، وبقيت أنا وحدي في الصالة، وبعد نصف ساعة جاءني أحد حراسها ودخل الصالة بوجهه الأسمر ونظراته الحادة، وحين تبينته جيداً عرفت أنه رئيس الحراس الذي لاحقني أول يوم زرت فيه شميران في القصر، فخفت منه أول الأمر، إلا أنه ابتسم، وقال: «رابي خنتا شميران تنتظرك في القصر». استدار ودفع الباب.

لملمت علي معطفي وتبعته، سرت خلفه، كانت الضجة قد تعالت في كل تل مطران، حمالون يدخلون السوق وهم يتحدثون بأصوات عالية، مواكب من النساء والرجال يتقدمون نحو الكنيسة، بضعة أطفال يركعون قرب شجرة الجوز، سرنا من الطريق المؤدي إلى الكنيسة ثم انحرفنا في الطريق المؤدي إلى قصر المختار، لمحت جماجم الحيوانات في المزابل، وريش الدجاج أمام البراميل الصدئة، بضعة رجال يسيرون يتقدمهم رجل ضخم البنية وعلى وجهه المدور السمين آثار حروق، وفي السماء كانت الصقور تحوم وترتد إلى أعشاشها في الجبال. وقد واجهنا مباشرة موكب نساء باكيات كانت وجوههن محمصة، ومنقبة بالجدري، وقد وصل إلى الطريق المؤدي للكنيسة، كل المعاقين في تل مطران: المشوهون، والعور، والعرجان، والعميان، جاءوا ليطلبوا من النبي ذراعاً، أو ساقاً، أو عيناً، فسألت الحارس: «ما بهم هؤلاء المشوهون».

«ألا تعرف؟ مات القاشا عيسى اليسوعي». كنت أسير وأنا أنظر إلى المدينة التي هبط عليها الضباب، وفي تقاطع الطريق المؤدي إلى قصر المختار، كانت هناك عربة تبيع الحمص المطبوخ، وعلى مقربة منها محل كبة البرغل، وعند مدخل البازار كانت هنالك عربات أخرى تجرها الخيول والحمير المقرحة، وهنالك بضعة يزيديين يغنون بلحى بيض كاللبن، وعلى الأرض فرشت الصواني التي تحمل البرتقال والليمون والنارنج، وهنالك امرأة تبيع القطط الصغيرة بقفص مصنوع من جريد النخل.

مكتبة الفكر الجديد

(١٠٤)

دخلت الصالة الكبيرة في قصر المختار، كانت شميران ترتدي دوشامبر أحمر، وصندلاً من جلد الغزال، وقد عقصت شعرها الأشقر إلى الأعلى، وعلى الجدار صورة لها معلقة، لقد كانت ألوانها جذابة، انتصبت قامتها وفي عينيها نظرة شفافة دائمة، كانت مثل إلهة عذراء ترقص مرة واحدة في العالم وتموت، كان كل شيء وراءها مصقولاً، وخطواتها منضبطة ودقيقة، أما ملامحها فكانت هادئة، وقد وقع شيء من النبيذ على الكرسي القريب منها.

هنالك معطف واق من المطر، وثوب سهرة موضوع على طاولة صغيرة، وعلبة توفي مدورة، وفي الخلفية كانت الأضواء الخافتة تتلألأ فوق الراقصين. وقفت أمام اللوحة منبهراً، لقد شعرت بانخطاف كامل أمام ألوانها ورشاقتها، فالتفت إليها: «من رسم هذه اللوحة؟». قلت لها وقد أعدت نظرتي إليها لا أريد مفارقتها.

«أوه، فائق حسن ألم تتعرف على توقيعه؟ لقد زار جدي هنا قبل سنوات، وحضر إحدى حفلاته، ثم طلب مني أن يرسمني». لقد كانت لوحة رائعة بحق، كانت ألوانها ساحرة جذابة، حركتها الهادئة عذبة، كانت متوافقة تماماً مع الصالة المزين سقفها بتجاويف مرسومة، والبسط الكثيرة الموضوعة على الأرضية. لقد كانت الذكريات تنتشر في أروقة القصر بل إن القصر ذاته كان عبارة عن ذكريات مكتوبة بالأشياء والأحجار، وحتى المكتبة التي أعيد ترتيبها أوائل هذا القرن كانت تضم كل ما يخص العائلة وخفاياها وعقود زواجها وأملاكها، وفي الممر الذي سلكناه أنا وشميران والذي يقود إلى السلم المصنوع من المرمر كانت هناك لوحات العائلة والتي تنتهي ببورتريه لجدها، وهو بالنظرات ذاتها، النظرات الحادة القاسية.

مكتبة الفكر الجديد

***

لقد شعرت بالزمن وقد توقف أمام الفناء الواسع الذي تحف به أبنية متعددة، كنت أنظر من النافذة العريضة الموجودة على صحن السلم إلى الإصطبلات في الحديقة القريبة من حوض السباحة، وقد سحرتني بواباتها وأسيجتها المطعمة بحجارة الرخام المتعدد الألوان، وحين صعدنا السلم إلى الأعلى واجهتنا التماثيل النصفية لأجساد نسائية مصنوعة من الخزف موضوعة عند البوابة التي تؤدي إلى الشرفات.

كانت الأضواء تنعكس على الخشب الذي يزين الجدران، وهنالك هياكل الغزلان المحنطة، وعلى الجدران صور الجياد معلقة، وألواح عريضة من السنديان المطلي بالورنيش وقد علقت عليه السروج وعدة الرواحل بخطافات من البرونز.

فتحت شميران باباً كبيراً من الخشب مطعماً بالفضة والأحجار، فدخلنا إلى صالة مفروشة بالسجاد وقد ارتمت الستائر المخمل على الأرض وهي تكشف منظر مخازن المحاصيل والإصطبلات، وتوزعت في الصالة عدة مواقد أمام كل موقد أريكة من الخشب، وقد شعرنا عند وصولنا بالدفء المفاجئ لدىَ انتقالنا من الممرات الباردة إلى الصالة، جلسنا قرب الموقد، ثم أخذت شميران تتحدث لي.

رفعتْ رأسي بيديها ونظرتْ بعيني نظرات طويلة ومستمرة، كانت عيناها مغرورقتين بدموع الرغبة، وشفتاها الحمراوان ترتجفان وقد اصطبغت أسنانها البيض الناصعة بخط من حمرتها، وكانت

مكتبة الفكر الجديد

يداها دافئتين ممتلئتين ورقيقتين، رفعتْ يدها اليمنى ومدتها إلى قميصها وأخذتْ تفتح الأزرار، بعد أن خلعتْ الروب دوشامبر ورمته على الأريكة.

خلعتْ قميصها، كانت ترتدي تحته قميصولاً من الحرير، مرتْ يدها إلى الخلف وخلعتْ سوتيانتها ورمتها على الأريكة، لم أر جمالاً بهذا الحسن، كانت بيضاء شفافة، وكان القميصول يحز اللحم عند نهدها، فيبدو أبيض مثل عنق الوز، شهقتْ في وجهي ومسكتْ يدي وسحبتها إلى صدرها، وقالتْ وهي ترتعش: «قبلني..».

ارتجفت، كان جسدها ساخناً، وخصلات شعرها الذهبية تمر برفق على وجهي فتهيجني، وقد شعرت شميران بي، شعرت بجسدي وهو يرتعش ويتهاوى أمامها، ومع ذلك كان هنالك شيء يمنعني، قفزت من الأريكة مثل ملسوع، صرخت «شميران، لقد عشت لحظة تنوير بالكامل. تعالي نكمل ما لم يستطع أن يكمله هو». كنت أقصد القاشا طبعاً. نهضتْ من مكانها، صدرها المنتصب بقوة، خصرها النحيف، واستدارة وركيها الناعمتين. رفعتْ القميص من على الأريكة ووضعته على صدرها، أحنت رأسها فانسدل شعرها على وجهها، بينما انسابت ساقاها البيضاوان بعذوبة، هزت رأسها، أول الأمر، ثم رفعت عينيها بعيني مباشرة وهي على حافة البكاء: «هل أنت أحمق؟ تعال وعش حياتك عشها كاملة غير منقوصة».

«لا، لا لن أتخلى عن هذا التنوير أبداً. تريدينني أن أعيش الحياة؟ لا شميران». نهضت فسقط قميصها على الأرض، وتمسكت بي بذراعيها، وقد احتكت حلمتاها بصدري وشعرت بسيقانها وكأنها

مكتبة الفكر الجديد

تلتهمني، لقد أحاطتني بنظراتها فشعرت بذوقها العالي، لم تكن من الناس الذين كنت أشعر بنفور وتقزز واشمئزاز منهم أبداً، قلت لها وأنا أرتجف: «سنكون بعد يومين من الذين يسعون وراء المال وأنت من النساء اللواتي تستهلكهن الولادة، من الفاسقين والمحتالين الذين يعملون بالتجارة، هذه حياة إذن أنا أحتقرها. إنها تفسخ. جدري. بثور..». صرخت بها: «شميران، علينا أن نتسامى على الحياة لا أن نعيشها. علينا أن نبني حياتنا لمن يأتي بعدنا».

«تريد ضياع حياتك من أجل لحظة لا تعرف ما هي، ما هو شكلها، ما هو لونها؟ حياتك العظيمة تريد ضياعها ليوم لن تراه أبداً، يوم في الظلام، يا لك من أحمق مسكين. يا لك من غبي. حياتك أن تضيع يعني أن يضيع العالم كله. أن تغمض عينيك يعني أن العالم انتهى. مات. ضاع. هل تفهم؟».

لقد ارتعشت أمام جسدها باسترخائه الكسول، أمام بشرتها الثلجية، أمام شهوتها المحرقة. وحين شعرتْ هي بتمزقي وصراعي نهضتْ، وتوقفتْ عند صندوق كبير موضوع على سطح من المرمر، وكان معلقاً من الأعلى بحبلين مجدولين، وفي طرف غطائه حبل آخر.

سحبتُ الحبل، فانفتح الصندوق العظيم، ثم دفعته بيدها إلى أمام، فانهمر شلال من الذهب، شلال من الليرات التي تبرق على ضياء الصالة وتخطف الأبصار، سقط على السجاد وتكوم مثل تل فشعرت بهزة عظيمة في جسدي كله، شعرت برعشة لم أشعر بها من قبل كادت أن تفقدني عقلي، خلعتْ شميران كلسونها وجلستْ عارية وسط تل الذهب وقالتْ: «تعال.. تعال..» بصوت،

مكتبة الفكر الجديد

متخشرج، وبحة مغرية، قاتلة. جلستْ فوق الذهب الذي كان يلصف بلون شعرها، عار جسدها الثلجي ونهداها المنتصبان إلى الأعلى، جلستْ مثل بوذي في معبد وتربعتْ صامتة.

***

لم يكن هذا المشهد صورة تقليصية لشيء أبداً، إنه فكرة، فكرة لا تقوم إلا على الوسيلة المبسوطة تحتها. خلعت ملابسي، وسرت نحوها، كانت برودة القطع الذهبية التي تلسع قدمي، والفضاء الدافئ الذي يحيط بي ومشهدها وهي تجلس متربعة على تل الذهب كل هذا قد هزني بقوة، فركعت قبالتها وقبلتها، فجذبتني من يدي نحوها وأطبقتْ بشفتيها على شفتي.

كان نهداها يرتفعان ويهبطان ببطء، والحلمتان تنتصبان بعد احتكاكهما بصدري، فدفعتها إلى الوراء، والتصقنا بعناق خالد أبدي، بينما أخذت شميران بأصابعها الليرات الذهبية من على الأرض وأخذت تنثرها على ظهري، وكلما لامستني برودتها، كنت أرتعش، أرتعش بقوة، حتى انهار كلانا على تل الذهب.

(١٠٥)

كنا في الصالة، شميران وأنا، نائمين على الأريكة، وقد وضعت رأسها على كتفي، وبأصابعها الرقيقة كانت تمسد صدري، وأنا مثل حصان أبيض مكدود الصدر، أية رقة عظيمة بهذه الأصابع الدافئة والنحيفة وهي تعبث بصدري، أية رقة عظيمة تحيط بي وكأني طعنت في السن وأفسدتني الحكمة، كانت زهور رأسها على كتفي وهي تحضنني، وكنت أرى الليل عبر النافذة وقد قمره

مكتبة الفكر الجديد

الضياء، لقد ابتلعتني، ابتلعتني تماماً وهي تحيط بي وكأنها تحيط بضريح مرمري رائع، لحظتها كنت أشعر بأن الأيام التي تنتظرنا مثل شموع ذهبية حارة ومتوهجة، شموع ذائبة ومحنية، يحزنني أن أنظر إلى وهجها وأرتعد.

حركتْ شميران رأسها ونهضتْ، سارتْ عارية إلى الحجرة الأخرى وتركتني وحدي.

تناولت علبة سجائري، أخرجت سيجارة، أشعلتها، وخططت لأمر هام: سأوهم شميران بأني مؤمن بما تؤمن، ولكني سأنفذ من خلال قوتها كل ما أريد.

في الواقع كنت مؤمناً إيماناً عظيماً بمجتمع النخبة، وأن نيوتن هو الذي سيحكم هذه الساعة الدقاقة والعظيمة، أنه الحركة العظيمة للمواجهة النشطة لكل متمرد على العدالة التي أريدها، والشرائعية التي يفرضها كل منطق وكل عقل ضد الدهمائية والرعاع ومجابهة كل بربرية، حتى لو اقتضى الأمر إلى الجَلد بالسياط، أو الموت بالبتر، أو العقوبة المسرفة. إنه فن، كل الفنانين الذين قابلتهم كانوا يؤمنون بواحدة من هذه التنويعات الكليانية والشمولية، إنه مجتمع مثالي وعلينا أن نفرض هذا المثال بالقوة، لأن الناس لا يمكنهم إلا أن يتمردوا، وليس هنالك ما هو أفضل من لغة القوة والعنف مع هؤلاء الجموحين والمخيفين. صحيح أن هذه الأولغاريشية أرفضها وأدينها ولكنها ضرورية هنا، إنها مزعجة بصورة حاسمة ولكن ما يلطفها في هذا الموضع بالذات، هو قدرتها على تحويل هذا المجتمع العدواني والمولد للفظاظة والخشونة إلى مجتمع حضري. هل هنالك ما هو أسمى من هذا؟ أبداً. سأكون بسمارك

مكتبة الفكر الجديد

ولكن بالرجوع إلى مسرد كامل من الأخلاق لمجابهة الفظاظة المديدة والآثمة لهذا المجتمع، سأضرب عليهم نوعاً من الحجْر المعقم حتى أطهرهم، وأجعل منهم رجالاً مهذبين، جنتلمانات نشيطين لا خاملين، سأجعل منهم تجاراً دؤوبين واستثنائيين. أهلنا هم تجار المتوسط من بيروت إلى تل مطران.

أعرف أن هنالك عائقاً واحداً هو القاشا بطبيعة الأمر، لكن يمكنني إزاحته، حتى لو كان بهذا العدد الضخم من المرتزقة الذين تلهبهم وتحركهم فكرة النبي، دون أن يعرفوا المفارقة اللاذعة لأهدافه المحكوم عليها بالإخفاق المريع بسبب طموحاته المستحيلة والمدعية، لقد آمن بالسريالية فجعلته خاضعاً كلياً لقوتها الخبيثة الماكرة، ومنعته من إصلاح العالم، ليس لدي سوى أمر واحد، هو أن أبرهن بالمال والنية الصحيحة إمكانية خلاص الناس من هذا الطنين السيئ للمعاناة اللانهائية، وهذه الفوضى الدموية التي بدأ رعبها يتجلى.

***

دخلتْ شميران الصالة، كانت ترتدي معطفاً بلون أسود، وبنطلوناً ناعماً من الصوف، ووضعت على رأسها إيشارباً من الحرير الشفاف، وقد كشف عن حركة مراودها الذهبية التي تتدلى في شحمتي أذنيها، ذهب خالص بصلابته واهتزازه الثقيل الذي يبرق ويستفز. فنهضت من مكاني، وكأنها قبضتْ علي متلبساً بأفكاري التي لا أريد أن تعرفها.

«خذ..». قالت، وقد مدتْ يدها بشيء ملفوف بجلد بني، مخرَّز ومشغول بأحجار ثمينة.

«ما هذا؟». قلت لها.

«سكين...» قالتها دون مبالاة، كما لو كانت تقول، تفاحة، أو عصير، أو كأس نبيذ، أو أي شيء آخر.

«ماذا أفعل بها؟» وقد فزعت.

«اسمع رابي، إن القاشا سيقتلنا بعد أن يعلن ظهور النبي».

«لا، قال إنه لن يقتل إنما سيجعل الناس يقتل بعضهم البعض».

«آه، نعم هو محق. اسمعني جيداً. سيقوم القاشا اليوم بإثارة الجمهور، وسيعتمد في ذلك على قدرته في التأثير على الآخرين، بالكلام والشعر. وفي كل مرة سيدخل إلى الحجرة المظلمة ويخرج إلى الناس ليقول لهم إن النبي يأمر بكذا وكذا. وأول شيء سيقوم به هو اتهامنا بأننا خاطئان.. وسيسلمنا لحملة الأعلام والسكاكين والأمواس».

تلك اللحظة ارتعدت. شعرت بجسدي وقد اقشعر. فقلت لها: «وماذا لو أعلن الآن ظهور النبي.. وما أن نصل إليه فإنه سيقتلنا؟».

«لا تخف لن يعلن ظهور النبي. إلا بعد أن نصل إليه». أخذتْ عباءة كبيرة ولفتْ نفسها بها، ثم التفتتْ نحوي وقالت: «لا تخف. معنا الكثير من الحراس، ومعنا كنز من الذهب. سنشتري به الكثيرين. اجلس، اجلس».

مكتبة الفكر الجديد

جلسنا على الأريكة. أخرجت شميران خريطة مرسومة باليد لبيعة تل مطران، وأشارت بإصبعها إلى الطريق الذي يلتف خلفها، قالت:

«سنمر من هنا بالسيارة ونتوقف في الخلف، ندخل من هذا الباب السري. سنجد القاشا في المكتبة، ندخل عليه، نتفق معه ونقنعه بأننا معه. وبعد أن يعلن ظهور النبي، ندخل ونقضي عليه، ثم نكشف للناس بأنه كذاب ولا وجود للنبي. وبعد ذلك نوزع المال على الناس، وسيتبعوننا، سنحرر الناس من هذه الفكرة. هم في داخلهم يريدون الخلاص منها. إنهم خائفون منها».

لقد وافقتها في الظاهر، أما في داخلي فقد قررت أن أسيطر عليها وأحجّم سلطتها، سأغفل كل شيء في المرة الأولى وأسير معها، وسأختار بوعي ما يمكنني أن أختار لأتحكم بكل شيء، سأستخدمها من أجل تطوير سيطرتي، ولم أجد نفسي مضطراً لمناقشة وتحليل ما قالته إلا بشكل معمم ومختزل، هذا الحذف هو الذي يولد لدى شميران الإيحاء بأني تابع لها، سأكون أكثر لطفاً معها، وأقل توسعاً، وأكثر تناسقاً، وأقل مركزية، ولكنني سأنجح شيئاً فشيئاً وأصبح أكثر سلطة وأفخم وأشد هيبة منها.

(١٠٦)

خرجنا معاً، كانت سيارتها في الخارج بانتظارنا.

انطلقنا في الليل الذي أضاءته المشاعل، وما أن وصلنا إلى البازار حتى رمتْ شميران إيشاربها على رأسي وغطت به وجهي، قالت: «لا أريد أحداً أن يراك». كانت السيارة تشق طريقها بصعوبة، لأن زحام الناس كان على أشده في الليل، وتحسست من وراء

الإيشارب الشفاف: حركة الناس، ضياء المشاعل، صخب الحشود وصراخهم، اضطراب الخيول وصهيلها، بكاء الرجال الذين يضربون الطبول المصنوعة من جلود الجمال، وأولئك الذين حلقوا شعورهم وصبغوا وجوههم، وأخذوا يلطمون، كأنه البكاء الأبدي على موت تموز. وعند الكنيسة كان يوم القيامة بحق وحقيقة، نساء، أطفال، ورجال يصرخون بصوت عال، فتمتزج صرخاتهم بضحكات الخاطئين الغريبة المشوشة والمضطربة القادمة من كل مكان، وحين توقفت السيارة وراء الباب الخلفي للكنيسة، دفعتني شميران وهبطت ورائي، ثم قادتني من يدي إلى باب خشبي خلف البيعة، دخلناه، كان مظلماً ظلاماً دامساً، تحسسنا طريقنا فيه، وقد أوصلنا بشكل مباشر إلى باب آخر مصنوع من الخشب مسمر بمسامير من نحاس، دفعناه وأصبحنا مباشرة في السرداب الذي يجاور المكتبة، كانت هنالك صناديق كبيرة من الكتب والأوراق والملابس وقد علاها الغبار، صعدنا بسرعة سلّماً بخمس أو ست درجات، وأصبحنا بمواجهة القاشا في المكتبة: كان جالساً على كرسي كبير، ووجهه أصفر مثل النحاس، وقد كثرت التجاعيد على وجهه، ومن خلفه برزت صورة لراهب طويل ونحيف، لحيته تطفو مثل غيمة فوق روبه المرصع والموشّى بالذهب.

حين رآنا وقف جامداً مثل تمثال وقد غطاه البخور الثقيل الذي ينبعث من إناء نحاسي مزخرف، وتصاعد ضبابه إلى الأعلى حتى وصل إلى أقواس المكتبة التي تمس السقف المطلي بلون أزرق فاتح، ومن النافذة العليا دخل ضوء المشاعل الشاحب واخترق الدخان بقوة. قال بصوت مضطرب: «أين أنتم؟ عيسى اليسوعي مات».

مكتبة الفكر الجديد

«نعم، عرفنا». قلت بشكل واثق، فنظر نحوي بعمق، وكأنه أدرك شيئاً مما أخفيه.

تحركت نحو الطاولة، كانت الكتب مبعثرة عليها، وهنالك عدساته ومباردە، ومعطف ناعم مرمي على الكرسي المقابل للطاولة الكبيرة، أزحت المعطف وجلست. وقد اصطفت الكتب الفخمة وعناوينها المذهبة في رفوف المكتبة، ومن الجهة الأخرى كان باب السرداب شبه مفتوح، وقد انبعثت روائح قديمة في فضاء المكتبة الدافئ.

«ما بك؟ لقد تغيرت...». قال لي وكأنه ينزلق على أطراف أصابعه ببطء ويتقدم نحوي.

«لاشيء، لا شيء». قلت له.

تقدمتْ شميران نحوه، وتوقفت عند الطاولة، واتكأت بيدها عليها، وقالت: «قاشا نحن معك في كل ما تقول. قررنا أنا والرابي أن نتبعك في كل خططك، وسنضع تحت تصرفك ما نملك. هذا الكنز تحت يديك». كانت شميران تتحدث وهو يصغي لها بانتباه، بينما جلست أنا على الكرسي المقابل للطاولة ووضعت ساقاً على ساق، دون أن أعيره أو أعيرها أي اهتمام، ولكني في الداخل كنت مضطرباً جداً وهذا ما جعلني مرة أقلب الأوراق على الطاولة، ومرة أخرى ألعب بمبارده وعدساته، وكان للضجة والصخب والصياح في الخارج تأثير سيئ عليّ، وهو ما جعلني أكثر تشوشاً واضطراباً.

تقدم القاشا نحوي، كان هنالك تعبير رصين وثابت على وجهه،

كان جليلاً في كل شيء، وفي عينيه ثمة تعبير مخيف، وضع يديه على الطاولة وانحنى، ناظراً في عينيّ مباشرة، وقال: «أنت تخفي شيئاً، ولكن ما هو؟ لا أعرف».

«مثل ماذا قاشا؟ جئنا معك.. أنا من جانبي لا تهمني حقائق الشعر، ما يهمني هو الفضيلة في الشعر، وكما قلت أنت، إن الله قد خلق البشر في إطار حكاية شعرية، وهو الشاعر الأعظم، إذن هو الذي زرع الفضائل فينا. وأنا جئت أتبع صوت الفضيلة فيك قاشا، وما أريده هو تحقق هذه النبوءة الشعرية، وأن يحيا الناس في فضائل معممة».

لقد كنت أعرف أنه لا يمكنه أن ينفلت من إسار الشعر وأن كلاماً مثل هذا الكلام كان كافياً أن يخدعه، حتى وإن بقيت عيناه تتحركان يميناً وشمالاً مثل أعين الهر، وقد شعرت مباشرة بأني استطعت أن أمنحه جرعة من المخدر فارتاح، لقد زرقته مصلاً من شعريته، فنظر في عيني طويلاً ثم استدار نحو شميران وهو يحمل ريشة الطاووس التي كان يكتب بها، وقد انبعثت منها رائحة الزعفران، وقد بقيت شميران هادئة رصينة، وهي تنظر بعينيه، ثم قالت له:

«قاشا، متى تعلن ظهور النبي؟».

«اليوم سأعلنه، ولكن أتقسمون على طاعتي؟».

«نعم، نعم». قلنا له، ثم تقدمت شميران منه، وقالت: «قاشا، أعلن أنت ظهور النبي.. ثم قل للناس بأني سأتكلم بعدك، وأنا أقسم بأني من أتباعك. هلِ هذا كاف؟».

***

خرج القاشا للناس.

وبعد دقائق قليلة صمتت الحشود المتجمعة أمام البيعة تماماً. ولأنه ترك الباب مفتوحاً فقد رأينا أنوار المشاعل وظلالها تنعكس على خشب المكتبة مثل حريق عظيم، لحظات ثم سمعنا صوته وهو يتحدث إلى سامعيه، كنت جالساً على الكرسي المقابل للطاولة، وكانت شميران واقفة بملابسها السود، وإيشاربها الأسود الموضوع على رأسها وهي قلقة تماماً ومضطربة، كان صوت القاشا يأتينا حاداً عذباً مرتجفاً ومتموجاً، ثم أخذ يتصاعد شيئاً فشيئاً حتى غطى على كل شيء في الكون، لا أقول سحر الناس ببلاغته المهيبة وأدائه الساحر، إنما أرجفهم وجعلهم يرتعشون، كان يصعد طبقات صوته ويلونها، يصعد الصوت إلى الأعلى تماماً ثم يهدأ بشكل قدري، وحين يصمت كان الحشد يصرخ بأعلى صوته ويجن، لقد جعل أهل الشقالب والمهرجين ينبطحون على الأرض، والحواة يتسمون وهم يرون أفاعيهم تصعد من الأواني على صوته دون أن يفعلوا شيئاً، لقد كان يتحدث شعراً. شعراً عظيماً لم أسمع مثله. وكان له تأثير السحر الأسود على الناس.

التفتت شميران نحوي، قالت «تهيأ..». فتحسست السكين في جيب معطفي حادة باردة. «اسمع – قالت – بإمكانه أن يقضي علينا الآن، هل تعرف نبوءة الكردية إلى نهايتها؟». فتجمدت في مكاني، لقد شعرت بالرعب، ولم أكن أحسب أن للنبوءة نهاية لا أعرفها، نهضت من مكاني، استدرت مباشرة أمام شميران،

ومسكتها من أكتافها، بينما كانت صورة والدها الموضوعة بدائرة ذهبية معلقة في صدرها، وقلت لها: «قولي ما هي نهاية نبوءة الكردية؟».

«اهدأ، اهدأ. تقول النبوءة: إما أن يقتلك القاشا أو أن تقتله. لكن حتى لو سلمك الآن للحشود فأنا لن أتركه يفعل ذلك. ثق بي».

أخذت أرتجف مثل سعفة، وتمسكت بمقبض السكين بقوة، وأخذت أدور في الحجرة مثل مجنون، لحظات وقد قال القاشا: «إن ختنا شميران تريد تتحدث إليكم». فارتاحت شميران، كان التعبير الهادئ الذي غزا وجهها أراحني.

«اسمع، أول ما يدخل القاشا..». ودون أن تكمل، دخل القاشا، فأصبحت بمواجهته، وما أن شهرت السكين، دفعته شميران من أكتافه بقوة، فدخلت السكين في بطنه، بينما اتكأ علي بيديه، وأصبحت نظراته في عيني مباشرة، ولم يقل شيئاً، إنما تمتم بكلمات لم أفهمها. كانت أبياتاً من الشعر أو شيئاً آخر لم أفهمه.

(١٠٧)

لقد قتلت هذا الشاعر السريالي العظيم بالسكين التي أعطتني إياها شميران، وكان دمه على يدي أحمر ساخناً وكثيفاً، لم يكن دماً مثل كل دم أبداً، لقد كان أحمر قانياً مثل صبغةِ البويا، كثيفة ولا يتغير لونها، وحين طرحناه على الطاولة كان هنالك تعبير واحد على وجهه، تعبير من غرق بنوم طويل ومريح.

***

مكتبة الفكر الجديد

تركتني شميران وذهبت إلى الحشد، بينما وقفت أنا أمام وجهه مباشرة، كنت صامتاً وقد بدأت شميران بالحديث، ولكي أتخلص من عذاب هذه الفكرة، فكرة موته بالتأكيد، تركت نفسي أفتن بنبرة حديثها، وكأنها تقف بالقرب مني، وأنا أستمتع باستدارة كتفها وملمس ثوبها، كنت أتخيلها وهي تنظر إلى سماء صافية ماسيّة وقد انعكست صورتها على خشب المكتبة الصقيل بعد أن أنارته المشاعل. ولكني لم أستطع تفادي النظر إليه، ليس هو وحسب، إنما إلى لغز الموت وهو يتبدى لي كما يتبدى لي في كل مرة في الحرب، كما يتبدى لغز الحياة في صرخة طفل ولد للتو.

***

لحظات ثم تغير صوت شميران، لقد أصبح مرعباً، قاسياً، بشعاً، ثم صرخت بصوت عال جمدني:

«لقد صدقت نبوءة الكردية». فصرخت الحشود بقوة وقسوة.

«لقد صدقت نبوءة الكردية حين قالت إن النخرايا، هذا النخرايا الأسود هو الذي سيقتل النبي».

أي رعب جمدني تلك اللحظة. أي رعب هزني من أعماقي، لم أجد فرصة أفضل من هذه الفرصة، فقفزت مثل مجنون من مكاني، واندفعت بقوة نحو باب السرداب، فتحته، وأصبحت مباشرة في الهواء الطلق، وأطلقت ساقي للريح، بينما كنت أسمع ورائي صخب الناس وصراخهم.

مكتبة الفكر الجديد

لقد تذكرت ما قالته لي صافيناز أوغلو ابنة الشاعر التركي: «يكرهونك كما يكرهون الدم على الخبز. كما يكرهون دم الأسنان». لقد تذكرت تحذيراتها بعد فوات الأوان، وركضت حتى كدت أفقد عقلي.

(١٠٨)

في الواقع، أنا لا أتذكر ماذا حدث بعد ذلك، إني أشعر بالأشياء وكأنها تحت ستار كثيف من الضباب، و كل ما أذكره هو أني هربت، ربما إلى منزل القاشا، أو إلى منزل أحد آخر، وكان الأعداء يتبعونني برؤوس حليقة، وطاسات من السم، وسكاكين قصيرة الأنصال، ولا أتذكر بالضبط فيما إذا كانت جولي أو فريدة أو بياتريس هي التي أعطتني حقيبتي، ولا أتذكر فيما إذا كان تيمور أو شخص آخر هو الذي قادني إلى الدرب الذي سلكته يوم وصولي إلى تل مطران، ولكني أتذكر بأني مررت على الخان المشيد بالحجر والمحصن بجذوع الأشجار، أتذكر بابه الخشبي السميك، وأتذكر قن الدجاج في أسفله، ولكن لم يكن هنالك مطر، ربما نمت تلك الليلة في الخان حتى الصباح، وبعد ذلك قادني الكردي بشاحنته الشوفرليت إلى المحطة.

كل شيء مضبب في ذهني، ولا أستطيع أن أتبين الأشياء بوضوح، ولكني أعرف أن كل شيء حدث مثلما حدث في المرة الأولى مع تغير عميق في التفاصيل، كل شيء يعود مرة أخرى بدورته، ولكن بشكل مختلف عن المرة الأولى، حتى القطار الذي صعدته كان القطار ذاته، الشخص الذي يتفحص التذاكر كان نفسه، الراهبات اللواتي يقعدن على مقاعد متقابلة – ربما تغيرت وجوههن – لكن الجلسة ذاتها، قرب الباب الذي يفضي إلى مقصورة التواليت التي تفوح منها رائحة البول النفاذة والصابون المعطر.

مكتبة الفكر الجديد

كل هذه الأشياء تأتيني مثل صور باهتة، ولكن الشيء الأكيد هو أني دخلت شقتي في بغداد، ونمت نوماً طويلاً وعميقاً.

(١٠٩)

استيقظت.. كان هنالك ضوء خفيف يمر من خلال الستائر، ضوء شاحب يتبدد عبر مساره البطيء في الحجرة، وكانت حقيبتي مرمية على الكرسي القريب من النافذة، نهضت، فتحت النافذة، يا لكآبة العاصمة في الشتاء، وقد مر كانيش يائس على رصيفها الحجري المصقول، وأخذ يتسكع، غيمة ترفرف في الهواء وشجرة الرمان يابسة في الفناء.

ذهبت مباشرة إلى الحمام. غسلت وجهي، وما أن وضعت معجون الأسنان على الفرشاة حتى رن جرس التلفون، ارتعبت أول الأمر، أبقيت الفرشاة على المسند وتركت صنبور الماء يوشوش في المغسلة، توقفت أمام التلفون متردداً، ثم رفعت السماعة فجاءني صوت نسائي ناعم وعذب: «ألو صباح الخير..». كنت بحاجة لدقائق لأتعرف إلى الصوت وحين عرفته، قلت: «ليليان، تعالي.. لقد حدثت أشياء فضيعة في تل مطران».

«تل مطران؟ هل أنت مريض؟».

«لا ليليان، لا تمزحي، أريد رؤيتك هذه الساعة».

«أنا آتية».وانطفأ الصوت.

***

مكتبة الفكر الجديد

جلست على الأريكة، لا أعرف ماذا أصنع، كنت أنظر عبر النافذة إلى قطة جائعة منزوية عند مزراب سطح الجيران لا تعرف ماذا تصنع، وفي الشارع مر معطف نسائي أحمر، مر سريعاً على صوت صفارة أحد المعامل القريبة، والمطاعم فتحت أبوابها وقد أضاءت واجهاتها الشمس كما لو كانت المصابيح تضيء بهو الكنائس أو الجوامع، أما الحصى فقد كان يلمع مثل الليرات الذهبية، ليرات كنز اليزيديين. نهضت وتقدمت نحو النافذة الصغيرة، كانت روائح النارنج تأتيني من الحدائق القريبة. نظرت للأعلى، لم أر سوى مئذنة بشعاع يرتخي ببطء مثل دائرة، وعند السياج، كانت أعواد الرمان المزهرة تتمدد تحت نور الشمس.

سمعت طرقات على الباب، طرقتان بالمفتاح، صمت، ثم طرقة واحدة، فعرفت أنها ليليان. فتحت الباب. دخلتْ ليليان ترتدي الملابس ذاتها قبل يوم من سفري. سارت مباشرة إلى الكرسي القريب من السرير، خلعت معطفها فظهرت طية الإبط عند تكويرة الصدر الذي يهتز تحت الترابليس، جلست على الأريكة دون أن تنطق بكلمة، بينما سحبت كرسياً وجلست بمواجهتها. كانت تبتسم لي، وأنا أنظر إلى ركبتيها المدورتين اللامعتين، كنت أنظر إلى ساقها المخروطية التي تهتز وتنتهي بحذاء أخضر مثل السافير، وحين رفعت ساقاً على ساق ظهر جزء أبيض من فخذها من تحت تنورتها القصيرة.

«لماذا تنظر نحوي هكذا؟ هل تريد أن تنام معي؟». قالت ذلك وهي تضحك.

«لا، لا» قلت ذلك، ولم تدرك أن تعليقها البسيط هذا كان أشبه بفاكهة ناضجة على غصن يمتد نحو الشمس. لقد أسكرني،

وأعادني إلى الحياة، لقد شعرت بأني دامي الفؤاد بحبها، ولم يكن بإمكاني تلك اللحظة، أمام نغمات صوتها ونعومة ابتسامتها أن أقول لها كم كان هذا يميتني من الحب، فلولا هذه الكلمات البسيطة التي ارتفعت وهبطت بإيقاع متناغم مثل ارتطام الموج على سطح مركب، لتبدد كل شيء في حياتي مثل دخان، وتلبّسني فراغ كبير، يا لي من أحمق مسكين.

(١١٠)

لقد تحدثت لليليان عن رحلتي إلى تل مطران، تحدثت لها عن كل شيء، دون أن أدخل في التفاصيل، وهي تنظر نحوي بشكل مفزع، وحين انتبهت، أخرجت علبة السجائر من حقيبتها، وضعت سيجارة في فمها ثم أشعلتها، ونفثت الدخان في وجهي. قالت: «هل لي أن أضحك؟».

«لماذا؟».

«لأنك لم تغادر إلى أي مكان». في تلك اللحظة قفز قلبي بين ضلوعي، لقد ارتعبت رعباً حقيقياً من جملتها، أكثر من رعبي من فكرة أني ذهبت إلى تل مطران وقتلت شاعراً سريالياً هناك. إن مجرد التفكير بأن كل ما حدث لم يحدث وبأني لم أغادر إلى تل مطران كان كافياً أن يجعلني أفقد عقلي بحق وحقيقة، وأنا على الدوام أظن بأن الناس تفقد عقلها بسبب خوفها من الجنون. هذا يعني أنا مجنون أو شيئاً آخر يقترب من هذا المبدأ ولا يقصر عليه.

«ماذا تقولين ليليان؟».

مكتبة الفكر الجديد

«أنت محموم، وكنت تحلم، بالأمس كنا معاً».

في تلك اللحظة ذهبت عيناي طواعية إلى الروزنامة المعلقة على الجدار، فشعرت ليليان بما أريد قوله، ومن دون أن تنطق بكلمة قالت: «انظر، هذا هو رقم البارحة» ثم قطعت الورقة، ورمتها على الطاولة، وقالت: «وهذا هو رقم اليوم». قلت لها: «ولكني تركتها هكذا منذ شهر كامل».

صمت كلانا دون أن ينظر أحدنا بعين الآخر.

«لقد ذهبت هناك، ذهبت هناك. لا يمكن أن يكون الأمر غير هذا. لا يمكن لهذه الأحداث أن تكون في الخيال أو في الأحلام». طبعاً كنت واعياً وعياً تاماً باختيار مفرداتي ولم أكن قادراً أن أقول إن هذه الأحداث قد حدثت بسبب جنوني أو فقداني لعقلي. ولذلك كنت أستخدم مفردة خيال وحلم إلخ. كنت أتمسك بالعقل أكثر من أية مرة مضت، لأن بإمكاني أن أتمثل الجنون وأمثله، ولكني لا أتقبله حين يكون حقيقة وواقعاً، وكان علي أن أتماسك أمامها، أتماسك بشكل ثابت ومحتال أيضاً، وقد شعرت ليليان بما كان ينتابني، لقد شعرتْ به وعرفته، فتقدمتْ نحوي، وشبكتْ أصابعها في شعري، فأحنيت رأسي وأسندته إلى وركيها وأغمضت عيني، كم كنت بحاجة لها، وأنا لا أعرف ماذا أقول، تحركتْ مني قليلاً ثم ذهبتْ إلى السرير، وتمددتْ على الفراش وقد تركتْ سيقانها تتدلى إلى الأرض.

كان فضاء الحجرة رطباً وقد أضاءته أشعة الشمس التي تدخل من النافذة، كان البريق ينعكس على ملابس ليليان وألوانها الزاهية، فتوهجت كنزتها مثل بساط أخضر تلتهب فيه زهور حمراء،

مكتبة الفكر الجديد

وكانت ليليان هادئة تمسك خصلة من شعرها الأشقر وتلفها طواعية بأصابعها الناعمة وتضعها على فمها وتبتسم.

كان بإمكاني أن أصرخ بصوت فج أمامها، بعد أن عجزت عن إقناعها، كان بإمكاني أن أحتج ولكني استسلمت، وضعت رأسي بين يدي وبقيت جالساً على الأريكة. لحظات ثم نهضت ليليان من مكانها، وذهبت إلى حقيبتها، مثل امرأة شوشتها مشاعرها ورغباتها، أخرجت سيجارتين من العلبة البيضاء، وضعت واحدة في فمها، والأخرى وضعتها في فمي، ثم أشعلت لي السيجارة وكأنها تريد أن تطرد بالدخان ما علق في نفسي من رعب وفساد وفوضى، ومع ذلك عجزت، رغم البلاغة المهيبة التي رويت بها هذه الأحداث، عن وضع إطار محكم لصورتي، كنت أشعر بأني أفتقر إلى المضمون، وأن ما عشته هو مشروع خداع رهيب، بل هو نهاية لتذبذباتي العميقة، لقد هزتني ليليان بلطف شديد، كم بدا وجهها تلك اللحظة جميلاً وفاتراً، وهي لم تصدق ما قلته لها، لقد أمعنت بي طويلاً، أمعنت بي بنظراتها المغرية المستمرة، ثم وضعت يدها على زندي، وتكلمت بحنو ورقة كبيرتين، وكنت أدرك أن كلماتها لم تكن موجهة لي بشكل كامل، إنما كانت هي أيضاً تختبر أفكارها، لقد حاولت أن تضع نفسها في البكرة الدائرة، ومثل راقصة يحمى جسدها ببطء شديد على قرعات طبل، أخذت ترتدي معطفها، ثم وضعت علبة سجائرها في الحقيبة، وقالت: «بسيطة، يمكننا أن نذهب إلى تل مطران، وسوف نتحقق من كل شيء».

لقد صعقت: «أين نذهب؟».

«إلى تل مطران».

«أخاف..». كان شيئاً مرعباً بحق وحقيقة، كان شيئاً مرعباً بشكل مزدوج هذه المرة، لم يكن بإمكاني أن أواجه هذه الأحداث لو كانت قد حدثت حقيقة، ولم يكن بإمكاني أن أواجه نفسي وأواجهها لو لم تكن قد حدثت حقيقة.

ضحكت ليليان وهي تنظر نحوي، ولم يكن بوسعها إلا أن تجرح إحساسي بهذا الشكل: «أنت لن تستيقظ إلا أن ترى بنفسك وتتحقق من ذلك بنفسك».

لقد انبعث في أعماقي إحساس غريب، انبعثت أفكار كثيرة مشوشة، وكنت أعرف نطق عدد غير يسير من كلمات خارجة عن سياقها، لا لشيء إلا لأن نثبت أن الخط الفاصل بين ما هو عقل ولا عقل يمكننا ثقبه بكلمة إبرة لا بإبرة من حديد، أما ليليان فلم تكن خجلة من إهانتي بهذه الصورة، وكان لها الحق فماذا تصنع وأنا مثل بساط خشن ذلك اليوم لا تستطيع ليليان أن تجلس عليه دون أن تحك مؤخرتها، وكان بإمكاني لمعرفتي بعواطفها وبذوقها الرفيع أن أصبح شديد الالتحام بفكرتي، وربما سأقنعها، ولكنها لم تشأ أن تصنع أو تتصنع بالرغم من فجاجة الفكرة وتفاهتها.

قبلتني قبلة عجلى على فمي وغادرت.

***

خرجت في الظهيرة من شقتي، وتجولت في شارع المغرب، كان العمال ببذلاتهم الزرق يفرغون شاحنة كبيرة من الصناديق، هنالك أطفال يلعبون على الرصيف ويرسمون على سياج

مكتبة الفكر الجديد

الحديقة، امرأة سقطت عبر الشارع، فتحت ذراعيها وصوبت وجهها نحو السماء الشتوية الصافية، ملابسها الصفراء ممددة على الأرض، وقد تدلت ساقها عاجزة بالجورب الطويل الضيق، رجل بقميص وسروال تعثر قربها، وعند شجرة الصفصاف تفوح روائح بنزين وحشرجة السيارات وهي تقف في المحطة، وفي الشارع المقابل دخلت «كافتيريا الخضراء»، كانت مظلاتها تندفع منفوخة على واجهتها، جلست على كرسي بعيد وطاولة دون شرشف، وعلى مقربة مني جلس شبان وصبايا وهم يضحكون، كانوا في سني بالضبط، كم حسدتهم لأنهم لم يفسدوا حياتهم كما أفسدت حياتي.

أمضيت الظهيرة والمساء أتجول في الشوارع، وقد بدا كل شيء في هذه الحياة حياً، لم يهدأ ولم يتوقف، كل شيء في هذه الحياة يحس ويتجول ويتحرك، رجال أنيقون ونساء أنيقات يسيرون وهم يأكلون الساندويشات والبوظة والشوكولاتة، وهنالك المقاصف التي تبيع الهامبرغر والشاورمة عندما تفتح المسارح أبوابها، والسينمات ترفع إعلاناتها، رجال ونساء يزدحمون على الأكشاك، نظرت إلى طاولة وسط الشارع، خشبها صقيل وقد لمعت عليها بقع العسل الممسوح، وحين رفعت رأسي خرجت امرأة من التواليت العمومي وهي تمشط شعرها بمشط خشبي وفي يدها مرآة صغيرة.

(١١١)

في الصباح أيقظتني ليليان، نهضت بسرعة، بحثت عن الموسى، تذكرت أنها في حقيبتي المحزومة، أخرجتها مع معجون الحلاقة وذهبت إلى الحمام، مرغت ذقني بالمعجون وصنبور المغسلة يخشخش بهدوء في المغسلة، حلقت ذقني، أخذت حماماً سريعاً

ونشفت وجهي بالمنشفة، ارتديت بنطلوني والكنزة الرمادية والسكارف، وأفرغت الحقيبة من الكتب، وأعدت ترتيب الملابس وذهبت إلى الثلاجة، كانت ليليان قد سبقتني إليها، وقفت أمامي، كانت قد عقدت شعرها إلى الوراء بينما تدلت خصلة منه على وجهها، وقد ارتدت جاكتة من قماش الجينز على كنزة صوفية ذات رقبة واسعة، وبنطلوناً ضيقاً على حذاء مبرنق من الجلد، وقد حملت حقيبة صغيرة على كتفها.

أخرجت قطعتين من الخبز الممسوح بالزبدة والمربى، ناولتني واحدة، وأخذت تقضم الأخرى بأسنانها، بعد توسع شفتيها كي لا يمس الخبز أحمر شفاهها، شربنا الحليب على عجل. وخرجنا.

***

استأجرت ليليان سيارة مرسيدس مع سائق يعرف المنطقة الشمالية جيداً.

كان هواء الصباح منعشاً يأتينا من نافذة السيارة، وقد أمضينا الوقت نتحدث عن أشياء كثيرة، إلا أننا لم نتحدث عن هذا الموضوع على الإطلاق. وقبل أن نصل إلى الموصل تحدثنا عن تل مطران كلاماً مقتضباً، فالتفت إلينا السائق بوجهه النحيف وعينيه اللامعتين المتقدتين، وقال: (أعرف فندقاً في الموصل اسمه تل مطران، هل تذهبون إليه؟)).

لقد شعرت تلك اللحظة بانخطاف كامل، وقد اهتزت ركبتاي لحظتها، التفتت نحوي ليليان، ولا بد أنها رأت شحوبي

مكتبة الفكر الجديد

وانخطاف لوني، فالتفتت نحو السائق وقالت: «نعم، نعم». أما أنا فلم أنطق بكلمة.

دخلنا مدينة الموصل، كانت أشجار الحدائق يانعة الخضرة وقت العصر، وقد توهجت الحمرة في المدى وانعكست على الخمائل الجميلة النابتة تحت البالكونات، لقد كانت الشوارع الفارهة شبه خالية، ما عدا بعض السيارات التي تمرق بين صفوف الأشجار التي تقطع الشوارع الكبيرة بشكل هندسي جميل، أشجار ضخمة وجذوعها عملاقة، وكان الحصى مبعثراً على أرصفتها، ومن بعيد تلوح القرى في المنحدرات بطينها الأصفر وتنانيرها المتوهجة، أما المدينة من الداخل فكان لها طرازها الخاص الذي لا يشبه طراز بغداد أبداً. جوامعها، كنائسها، وأشجارها المعمرة لها شكلها الفريد والقديم والأزلي، وكانت المتاجر كبيرة، والمقاهي مفتوحة، أما المنازل فقد كانت فخمة بأسوارها العالية وبواباتها الحديدية القديمة. استدارت السيارة بنا من باب الطوب وهو الميدان الحيوي للمدينة، ودخلت إلى شارع الدواسة ثم انعطفت إلى زقاق مزدحم، فبدت المدينة وهي معراة تماماً: ملابس عتيقة معلقة على الواجهات، حطب وطوب وفحم أمام البيوت، أطفال يخوضون بالماء الآسن حفاة الأقدام ويسرقون دراهم الشحاذين، كعوب قذرة راكضة، ثياب مهدلة على أجساد النساء، أما الشارع الرئيس فكان يخفي الأحشاء الداخلية للمدينة: ثمة متاجر ومطاعم وفنادق وسينمات ومكتبات تعرض الكتب على واجهاتها، وهنالك حديقة صغيرة عند الرصيف تزدحم بشجر الآس، وقد ارتفعت من بين صفوف الورد ساعة ضخمة قد أحاطتها بضع نافورات صغيرة، وفي الشارع الفرعي لسينما غرناطة، انعطفت السيارة بهدوء، كان الزقاق ضيقاً ومعتماً قليلاً، وكانت المصابيح

المعلقة على الأعمدة تلقي بشعاعها على الإسفلت المحفور، فتنعكس صورتها على الماء، وكان هذا الشارع يتفرع إلى أزقة صغيرة مزدحمة بالمتاجر الصغيرة وورش النجارين والوقادين والمجبراتية، ومحلات الباصطرمة والفلافل والشايخانجية، وكانت البنايات كبيرة إلا أنها لم تكن حديثة على الإطلاق.

أخذت السيارة تبطئ حتى وصلت إلى فندق تل مطران.

يتكون الفندق من ثلاثة أدوار، واجهته تطل على الشارع الفرعي، كان بناؤه قديماً والحديقة متروكة، ومع ذلك كانت البناية جميلة وعلى طراز الفنادق في الستينيات لم تكن قبيحة على الإطلاق، بالرغم من أن الشبابيك الخشبية كانت مشققة وقد تفقع طلاؤها بفعل الرطوبة، وبعضها كان مخلعاً يحدث صوتاً مزعجاً عند ارتطامه بسبب الرياح، وأمام الفندق ثمة شجر أخضر بخضرة كثيفة وأوراقه شوكية مسننة نابت على أرض الرصيف، وهنالك دكات كبيرة من الإسمنت مغسولة، إلا أنها مبقعة ببقع زيتية كبيرة، وعند الدكة السفلية براميل الزبالة، فصعدنا الدكات. كان الباب طويلاً بزجاجه النظيف ومقطعاً بفواصل خشبية بلون الصاج. دفعنا الباب ودخلنا، فشعرنا بالدفء الكثيف في الداخل وبالرائحة القاتمة.

كانت الصالة التي دخلناها تشبه البار بنورها الضئيل ومراياها الموضوعة على الجدران، أما الأرضية فقد كان بلاطها المرمري الأسود مفروشاً بالسجاد، وثمة منصة دائرية خشبية على اليمين، ولوحة مفاتيح كبيرة يقف أمامها رجل أسمر طويل، أنفه بارز، وهناك خطوط الشيب في شعره، وقف وراء المنصة وابتسم لنا عند

مكتبة الفكر الجديد

دخولنا، وفي الزاوية البعيدة مائدة خشبية مستطيلة جلس عندها ثلاثة رجال وامرأة بدينة، وأمامهم صحون الباصطرمة وزجاجات الويسكي وقد لمعت كتاباتها من بعيد.

«أهلاً وسهلاً..» قال الرجل الجالس وراء المنصة، فتقدمنا نحوه وسلمنا عليه.

قالت ليليان: «نحن نبحث عن شخص يسكن مدينة تل مطران..».

«تل مطران؟ – قال الرجل – لا توجد مدينة بهذا الاسم».

فالتفتت ليليان نحوي وطلبت مني أن أقول كلمة.

«لا توجد مدينة بهذا الاسم؟». قلت.

«لا، أبداً. تل مطران كانت قرية من القوش هدمها الإنكليز من زمان. قرية لا تتجاوز العشرين بيتاً. ما اسم هذا الرجل الذي تريده؟».

«القس خوشابا الساعور».

في تلك اللحظة دخل عامل البار، كان يشبه وردة خوشابا تماماً، فسألته: «مو أنت وردة خوشابا؟».

«لا». وقد نظر نحوي مندهشاً. فقلت له: «مو أنت من تل مطران؟». فهز رأسه بالنفي، ثم قال: «أنا ساكن هنا في الموصل».

مكتبة الفكر الجديد

«تعرف قساً وشاعراً اسمه خوشابا الساعور؟».

قال وكأنه يتوسل: «بالمسيح أنا رجل فقير، عامل في البار هوني ومتسرح من الجيش». وأخرج لي بطاقته.. كان قد تصورني من الشرطة، فأحرجني.

قال صاحب الفندق: «أشتريد زيه.. ماكو مدينة بهذا الاسم. هذا فندق تل مطران». قالها بلهجة موصلية مفخمة مغنغنة وحازمة. بقينا نتلفت نحو بعضنا ليليان وأنا، لم أكن أملك كلمة واحدة لأقولها، قال الرجل: «اسمع هنا قس منزلو قريب من الفندق وهو من مدينة القوش، يسمونو الشاعر، إذا تريد ندليك علينو».

ما كان لي غير أن أوافق فهو قس وشاعر ومن القوش، فقلت له: «طيب دليني عليه».

التفتت ليليان نحوي وهمست بأذني: «سننزل في هذا الفندق. لا خيار لنا. ثم إن ذهابنا اليوم إلى القوش غير مجدٍ. أما سمعتهم يقولون ماكو مدينة بهذا الاسم؟ اليوم نروح إلى هذا الشاعر، وإذا ما فادنا بشي نذهب في الصباح إلى القوش لتتحقق بنفسك من هذا الأمر».

فتحت ليليان حقيبتها وأخرجت جزدانها وأعطت عامل البار والسائق بعض النقود لجلب حقائبنا، فيما جلسنا نحن على أرائك موضوعة في الصالة، تحيط بطاولة واطئة من الزجاج وعليها منفضة دخان، وكان الجالسون الثلاثة المرأة والرجلان يتحدثون مع صاحب الفندق الذي يظهر جذعه من وراء المنصة، وكأن الموضوع لا يخصنا، قال أحدهم:

مكتبة الفكر الجديد

«كانت هناك مدينة اسمها تل مطران. ما مدينة إنما حامية إنكليزية. وقد دمروها في الثلاثينيات وهجرها أهلها إلى القرى القريبة: القوش وبطنايه وتلكيف».

قال له الشخص الجالس وراء المنصة: «لا كان اسمها تل مطيران ما تل مطران. لم يبق منها شي هالساعة صارت مزارع زيتون وعنب وأكو مجموعة من البيوت الحجرية ما تتجاوز العشرين عند الربان هرمز في القوش يسمونهم أهل تل مطران، واللي بنى هذا الفندق في الستينات منهم».

«ربما هم من النازحين في تلك الأعوام» قالت المرأة وهي تضع الزيتونة في فمها ثم تبصق النواة في راحة يدها.

التفت صاحب الفندق نحوي وقال: «منذ متى ذهبت إلى تل مطران؟».

«في الواقع لست أنا، شخص آخر ذهب إليها، وجئت اسأل فيما إذا كانت موجودة أم لا».

في الواقع لم يكن أحد من هؤلاء يهمني، ولكني كنت محرجاً من ليليان وهي تنظر إلى هذه الفوضى التي تحيط بأفكاري. فابتسمت دون أن تنظر نحوي، وربما كان جوابي مضحكاً حتى بالنسبة إلى الشخص الجالس وراء المنصة، إلا أنه أحنى رأسه المدور، وقطب حاجبيه، فامتلأ وجهه بالتجاعيد، وبعد أن هبط السائق وعامل البار من الأعلى وهما يحملان المفاتيح قالا: «الحجرة الأولى من الطابق الثالث». وقد ابتسم السائق وهو يقول: «على الشارع مباشرة». وكأنه قبض على كنز كبير.

مكتبة الفكر الجديد

(١١٢)

قادنا عامل البار في الفندق إلى زقاق شبه مظلم ضيق، انتشرت على جانبيه ورش النجارين والحدادين ودكاكين البقالة وفي نهايته مقاصف تبيع الهامبرغر والشاورمة وقد انبعثت روائح اللحم المختلطة بالبصل والثوم. انتهى هذا الزقاق إلى ساحة معبدة تقف عليها الباصات القديمة، وكانت أرصفتها المقشرة تنز ماء ورطوبة إلا أنها مفتوحة فلا شيء يحجز فيها الهواء الذي يهب من كل جانب هبات قوية مثلجة. وفي نهاية الساحة سرنا يساراً، كان هنالك فراغ شاسع، ومبان شاهقة، وأعمدة حجرية فخمة تقابل حديقة كبيرة مسيجة بأعمدة حديدية تهدلت عليها أغصان الأشجار العملاقة، وفي الوسط بزغت أشجار السرو العالية وهي تلمع ببلل واضح. ومن الجانب الأيمن شارع معبد ومرصوف يقود إلى الجسر الذي يعبر دجلة إلى الساحل الآخر من المدينة، وقد شكلت الفنادق الفخمة المشيدة على النهر بأبنيتها وحدائقها تناقضاً مع البيوت الحجرية الصغيرة ذات الدور الواحد، والعارية من الملاط، ولكن أشجارها أكثر قدماً، كانت كثة وريفية الشكل، وبعد أن سرنا مسافة قصيرة توقفنا عند منزل متوسط تحيط به حديقة مربعة الشكل، لها سياج حديدي دائري، تهدلت عليه أشجار النارنج أكواماً، وارتفعت أشجار السرو والصنوبر والصفصاف عالية قرب الجدار، بينما كانت أشجار البرتقال والزيتون في الوسط، وفي الأسفل صفوف الآس والورد تقطع الحديقة بشكل هندسي جميل.

***

طرقت الباب مرة بعد مرة، وانتظرنا في ظلام الحديقة الدامس،

مكتبة الفكر الجديد

وبعد لحظات اشتعل المصباح الخارجي، ثم فتح القس لنا الباب نصف فتحة، ونظر نحونا بعينين منتفختين، كان بديناً، يرتدي بنطلوناً وصديرياً أسود، وبصوت ناعم ومؤثر قال: «اشتريدون.. أولادي؟». وقد قلب الراء غيناً على طريقة أهل الموصل بالكلام.

مددت رأسي قليلاً لأتبين وجهه، لكني لم أستطع تلك اللحظة أن أجزم بأنه هو القاشا الذي عرفته في تل مطران، ولكن يديه الناعمتين وصوته المؤثر وعينيه الحادتي النظرات وصلعته اللامعة كل هذا جعله يشبهه إلى حد كبير.

قال عامل الفندق: «أبونا، الجماعة من بغداد يسألون عنك».

تحرك قليلاً من الباب وجاء باتجاهنا فانبعثت من الداخل رائحة دافئة وقديمة، وكان الضياء يتمايل وراء الباب فيسقط على صلعته، تقرب منا وهو يرتدي نظارته الدائرية المذهبة، وقرب وجهه مني ومن ليليان ليتعرف إلينا، فكلمته ليليان بالسريانية، هز رأسه وقال: «اتفضلوا، أهلاً وسهلاً». وأدخلنا إلى الصالة، بينما عاد العامل إلى الفندق.

(١١٣)

لقد اندهشت، كان وجهه وردي اللون، يعرج قليلاً بسبب ساقه الاصطناعية، وكل شيء فيه يشبه رابي البيعة في تل مطران، إلا أن ملابسه رثة، وصوته أكثر نعومة، وملامحه أكثر حميمية، وحاله أكثر فقراً.

كان يتحدث بصوت واضح، وبلغة سليمة صحيحة النطق، وعربية سليمة النحو، وديكور الصالة منحه وقاراً وهيبة، وكانت مكتبته

مكتبة الفكر الجديد

عظيمة، تمتد على طول الجدار ومن الأرض إلى السقف، وفي الزوايا كانت هنالك أكداس هائلة من الكتب موضوعة باعتناء، بينما كانت الأرائك موضوعة بصورة دائرية وسط الصالة، وقد فرشت بمراعز الصوف، وأمامها طاولة دائرية من الرخام، وثمة مدفأتان تشتعلان بلهب أزرق واحدة عند مكتبة الصاج والأخرى عند باب الحجرة التي تجاور الصالة. وكان مكتبه من الخشب الثمين والمشغول وقد تناثرت عليه الكتب والأوراق، وعند الحافة: دواة الحبر، وعلبة أقلام، ومبراة، وأوراق ملونة على شكل مربعات. وحين جلسنا كانت المكتبة وراءنا، أما في مواجهتنا فكانت صور لشعراء معروفين مرسومة بالحبر الصيني:

صورة كاريكاتورية ليوسف الخال بلحيته الشبيهة بلحية والت ويتمان، وبدلاً من الفراشات التي تحوم على لحية والت ويتمان، كما تخيلها لوركا كانت لحية يوسف الخال يحوم حولها الذباب.

لوحة لخليل حاوي وهو يشنق نفسه، وقد انقطع الحبل به فسقط وسط أحضان نساء عاريات، شبقات، وقد رفعن أيديهن لتلقفه.

صورة لبولص نويا اليسوعي أشبه بصورة الإله في «لوحة الخليقة» لمايكل آنجلو وهو يمد يده لآدم، ولكن بولص نويا يمد يده التي تحمل أدونيس لأنسي الحاج، وكلاهما بدا كارهاً ومتقززاً.

صورة للسياب وهو يسير على عكازة رامبو، وعبد الوهاب البياتي أسود، يقف وراءه مثل جامي.

صورة لطاغور وهو يجلس في حضن الزهاوي في المحطة التي

مكتبة الفكر الجديد

انتظره فيها الزهاوي يوم قدومه إلى بغداد، وأعقاب السجائر تتكوم عند أقدامهما.

صورة للويس عوض وهو أشبه بآكل البشر في لوحة غويا يلتهم توفيق صايغ، وغالي شكري يرقص رقصة العوالم خلفه.

صورة لريلكة وقد تجمد وسط ساعة كبيرة، وقد تعلق فؤاد رفقة بناقوسها مثل قرد.

وفي النهاية «لوحة العشاء الرباني الأخير» وقد جلس الشعراء العراقيون مثل حواريين، وقد كانت صورته هو مكان المسيح، فسألته: «هل أنت شاعر؟».

«أنا أعظم شاعر على الأرض». قالها بشكل فوري وسريع، ورفع ساقه الاصطناعية أمامنا ووضعها على الطاولة دون تهذيب، وهي الطريقة العراقية في الحديث عند شعراء ذلك الجيل.

وقبل أن أنطق بكلمة، صعد الدم إلى وجهه، ثم هجم علينا مثل جندي روماني بصوته الراعد، وهو يهز يده بوجهي، قال: «ليس هنالك شاعر من جيلي لم يتعلم مني. كلهم كانوا يأتون إلي ويطلبون مني أن أصحح لهم قصائدهم».

وكنت أوافقه بطبيعة الأمر، لأنهم كلهم كانوا يقولون هذا الشيء عن بعضهم، وحين رأى استجابتي تحمس وأخذ يتحدث لنا عن حياته الشعرية حتى أصابنا الغثيان، لقد شعرت تلك اللحظة بأنه قادر على الحديث عن الشعر حتى الصباح، كان يتحدث وكأنه

مكتبة الفكر الجديد

يتجول في أملاكه الخاصة، يسير وهو يتجاوب مع أطول المنولوجات في نفسه، يتغير وجهه فجأة، يهز يده بوجهينا، يتناول غليونه ثم يحشوه بعصبية وحنق، يتناول عود الثقاب من العلبة يشعل غليونه، يسحب نفساً طويلاً، ثم يتركه على مسند الكرسي، ويهجم.

كلما ذكرنا اسم شاعر صاح بصوت عال «هذا شاعر؟ هذا..».

«أنا مشروع إلهي لخلق شاعر عظيم، ولكن المشروع لم يكتمل وبقيت هذه النتيجة».

والواقع أنها نتيجة لا بأس بها: قدم اصطناعية، وصلعة لامعة، وطريقة في الحديث مدوخة ومقززة. ثم نهض من مكانه وجاءنا بمجموعة من اللوحات التي رسمها لنفسه، كان يصور نفسه ميتاً في جميع اللوحات، أما أجمل لوحة له فهي تصوره ميتاً بين الزهور وقد أسند رأسه إلى حزمة من القش.

بعد ذلك تحدث بهدوء عن جيله، قال: «كنا ضحايا، لم يكن أحد منا يفهم ما يريد، كنا نقول حداثة ولكن حداثتنا كانت مترجمة. كانت أشبه بتخطيط قلم رصاص بشكل مشوه عن لوحة أوروبية ملونة. لم نكن نعرف ما معنى الحداثة وحين عرفناها أخذنا نغير ما كنا كتبناه في السابق، وقد كان أشد البعد عن الحداثة، حداثتنا كانت إجابة سهلة على وقائع زائلة. كان أكثرنا ضحايا الهموم السياسية ولم يكن أحد منا له هذا الفهم. نحن ضحايا. كلنا كنا نؤمن بالعنف. كنا نريد تغيير العالم وبصورة سريعة. كنا نتحدث عن الهدم والتخريب، ولكن لم نكن نعرف البدائل».

مكتبة الفكر الجديد

صمت قليلاً وقال: «لم نكن نختلف عن المجتمع الذي كنا ندينه. نحن أيضاً كنا نحمل مشاعر طائفية وأقلياتية كئيبة ومجروحة. لم يكن أي واحد منا لديه فكرة عن الوطن..كما كنا نطعن بعضنا البعض، ونكره بعضنا البعض. وكانت تسحرنا الكلمات: حداثة حضارة، نخبة.. وكل مرة موضة جديدة. ولكن في الحقيقة لم تكن هذه الأشياء التي نقولها مفهومة ومطورة. جيلنا كله مسؤول عن هذه العربدة في الحياة الاجتماعية والسياسية. نعم هو المسؤول عما وصلنا إليه الآن. لقد قصرنا. لا يمكن أن تقول لدينا ثقافة بمستوى الثقافة الآسيوية، أو ثقافة أميركا اللاتينية أو أفريقيا، أبداً». وحين ذهب ليعيد اللوحات إلى مكانها اغتنمت الفرصة وأخذت أتكلم بشكل بسيط ومفصل عن الحادث الذي حدث لي في تل مطران، لقد أصغى لي بكل حواسه وعقله ولم ينطق بكلمة ولم يقاطعني. لقد تجاوب معي، أحنى رأسه الأصلع إلى الأمام وأخذ يهزه هزات قصيرة، كانت عيناه شبه مغمضتين ومليئتين بالشفقة والعظمة معاً، قال لي: «أكمل». كان لكلماتي ترجيع ساحر وغامض على وجهه، وقد كان يساعدني كل مرة لأكتشف شيئاً منسياً في ذكرياتي، وحين انتهيت امتلأ وجهه بالأسى، ولم يكن يعرف ما يقول، تمتم أول الأمر، ثم أخذ يتكلم وبينبوع من الكلمات، حدثنا عن الشعر، عن الحياة، عن الموت، عن السريالية، عن الشعراء الذين رسمهم، عن جماعة «شعر»، عن مجلة «حوار»، لم يكن يرفع يديه مثل حطاب ويصرخ «آسيا. آسيا». أبداً، إنما بهدوء قال كل الأشياء الموجعة في نفسه، وبعد ذلك أخرج لي كتاب «الحكمة الصينية» وترجم لي فقرة منه: «مرة حلم شوانغ تسو بأنه فراشة، وليس يدري هل هو فراشة حلمت بأنها شوانغ تسو أم أنه شوانغ تسو حلم بأنه فراشة؟». تقدم نحوي بجلال قاتم، وبصوته الرثائي قال: «ما هي الحياة وما هو الموت؟ ربما نحن الآن حلم في ذهن الإله.. لحظة يستيقظ ويتحطم كل شيء».

مكتبة الفكر الجديد

(١١٤)

تركت ليليان في الصالة مع القس وخرجت.

كان مصباح الغاز ينير الحديقة، وعلى الرصيف المقابل وقفت فتاة شعرها مضفور يتدلى على أكتافها، وقد عقدت نهايته بشرابية ذات لؤلؤ، جلدها العسلي بلون السكر المحروق، وعبر السياج جوارب نسائية معلقة على حبل غسيل بلون زعفراني فاتح، أهذه هي الحياة؟ يوم يمضي في مساره البطيء، ورقة صفراء في دورانها وهي تهبط في عتمة الليل الباردة على الرصيف، مطر يتساقط على مستودع الحصيد فيخشخش سطحه الألمنيوم بهدوء، ثياب نساء مطبوعة معلقة على واجهة محل، لحن أوروبي ينبعث من دكان الحلاق، امرأة ترتدي سروالاً فاتح اللون، تتحدث مع رجل منحنٍ عليها، وأصواتهما تختلط بقرقعة الجزم والكعوب العالية على الحصى، ما هي الحياة؟ دجاجات تتسكع على الرصيف؟ حلبات ملاكمة؟ مقهى لصراع الديكة؟ أم متجر لبيع البوظة والروست بيف المحمر؟

أهذه هي الحياة، بركان يهدر، يهدر ويفور، وقد يذكرنا الموت بما فيها من قوة، وأحياناً يفوقها بكثير، ويحسم من الضربة الأولى الصيغة النهائية لشروطها الأكثر ضرورة، أهذه هي الحياة بإيجازها وتنوعها وتوهجها، ونحن لا نعرفها إلا في الحرب. هناك، أمام الرؤية الأولى لإنسان مقتول تصبح أنت الشاهد الحقيقي على بروز وتحول مفهوم الإنسان وتهدمه، الشاهد الحقيقي على كل ما تعنيه كلمة حياة، وكل ما تعنيه كلمة موت، ولا يمكنك أن تعرفها إلا حينما تكون أمام الكائنات التي سحقت إنسانيتها وقد تعلمت الكثير من قوة الحقيقة الخشنة.

مكتبة الفكر الجديد

بماذا كان على جيلي أن يحدثكم به: عن هدير الحياة الخالد والأبدي؟ عن آمالنا التي راحت عبثاً؟ عن أصدقائنا الذين قتلوا؟ إن حياتكم كانت موتاً يهدد وجودنا ويؤمن اضطرابنا ويمنعنا حتى من صياغة اعتراف.

أمام دكان الحلاق، مطر يتساقط ويخشخش على مظلة، وعلى اللحن القديم كان علي أن أرقص وأصيح: «ليليان، لقد عشنا يوماً أعظم من عام الطهطاوي في باريس». نحن لن نرث الموتى، نحن نرث الأحياء ما الذي تركوه لنا؟».

***

دخلت الفندق، وقد اشتعلت المصابيح في صالة الاستراحة فأبرزت مظهرها، كانت الأطر النحاسية تشع كالماس، الستائر مردودة على النوافذ، فتشتعل الكؤوس والصحون بلهب ووهج متقطعين، صعدت إلى حجرتي في الطابق الثالث، لم أشعل المصباح، إنما ذهبت مباشرة إلى النافذة وفتحتها، كان وجه ليليان يبرز وسط الظلام، وتعبيرها المهذب الرقيق يمتزج ببياضها الناعم، كان هذا الوجه الذي يومض أمامي بتعابيره المبهمة وبالعينين المعبرتين المتأملتين هو الذي يجذبني قالت: «تعال.. تعال..» فارتعشت لأني لم أستطع مقاومتها، ومثل طفل عانقتها ثم اندفعنا لنسقط من النافذة، لقد سقطنا في دوامة بيضاء مثل شلال.

(١١٥)

في الصباح، في صالة الاستراحة في فندق تل مطران، جلسنا على أرائك جلدية بلون بني غامق، ووضعنا أقدامنا على طاولة

مكتبة الفكر الجديد

دائرية واطئة، أسندت ليليان رأسها إلى كِتفي، أخذنا نأكل مربى نارنج، ونلتقط حبات فستق نسحقها تحت أسناننا ونقذف قشورها على الأرضية.

مكتبة الفكر الجديد

عن المؤلف

علي بدر روائي عراقي صدر له:

* بابا سارتر ـ رواية (بيروت/ ٢٠٠١، ط٢ بيروت/ ٢٠٠٦، ط٣ القاهرة/ ٢٠٠٧، ط٤ بيروت/ ٢٠٠٩).

ـ جائزة الدولة للآداب في بغداد.

ـ جائزة أبو القاسم الشابي في تونس.

* شتاء العائلة ـ رواية (بغداد/ ٢٠٠٢، ط٢ بيروت/ ٢٠٠٧).

ـ جائزة الإبداع الروائي في الإمارات.

* صخب ونساء وكاتب مغمور ـ رواية (بيروت/ ٢٠٠٥، ط٢/ ٢٠٠٧).

ـ منحة من مؤسسة الكوندور الثقافية.

* الوليمة العارية ـ رواية (كولونيا/ ٢٠٠٥، ط٢ بيروت/ ٢٠٠٩).

* الطريق إلى تل المطران ـ رواية (بيروت/ ٢٠٠٥).

* خرائط منتصف الليل ـ رحلات (أبو ظبي/ ٢٠٠٦، بيروت/ ٢٠٠٩).

مكتبة الفكر الجديد

ـ جائزة ابن بطوطة للرحلات في أبو ظبي.

* ماسنيون في بغداد ـ دراسة (كولونيا/ ٢٠٠٥).

ـ شهادة تقديرية من جامعة نونتر في باريس.

* مصابيح أورشليم: رواية عن إدوارد سعيد (بيروت/ ٢٠٠٦، بيروت/ ٢٠٠٩).

* الركض وراء الذئاب ـ رواية (بيروت/ ٢٠٠٧).

* حارس التبغ ـ رواية (بيروت/ ٢٠٠٨).

مكتبة الفكر الجديد

«علي بدر روائي بالغ التميز سواء في قدرته على فتح آفاق جديدة للرواية، وإلحاحه على فهم الرواية بوصفها بحثا موضوعيا عن حقيقة ما، أو شخصية، أو ظاهرة دالة، ولقد لفتت روايته «الطريق إلى تل مطران» الانتباه إليها، سواء بتقنيتها أم بموضوعها».

جابر عصفور

الأهرام القاهرية

«بنيت رواية «الطريق إلى تل مطران» لـ«علي بدر» على فكرة المغامرة السردية، إذ يرحل البطل إلى مكان غريب، فيستكشفه، ويعود منه بتجربة اعتبارية.. وتفتقر الرواية العربية إلى الحركة السردية البارعة التي تقيم صلة قوية بين الأحداث والشخصيات، بينما تنجح «الطريق إلى تل مطران» في تخطي كل ذلك، وتدفع بالرواية خطوة إلى منطقة الأدب الذهني الذي دشنه المؤلف في رواية «بابا سارتر».

عبد الله إبراهيم

الرياض السعودية

«هي واحدة من أهم الروايات العربية التي ظهرت في هذه المرحلة».

كوليت مرشليان

النهار البيروتية

«..عندما قرأت رواية «الطريق إلى تل مطران»، شاقني عالمها الفريد، وكتابتها المرهفة لهوامش الثقافة العراقية الثرية، ومناخاتها السردية التي توشك أن تكون طالعة من إهاب القصص الروسي العظيم، ورؤاها الفكرية المثقلة بالفكر والفلسفة، وشخصياتها الإنسانية الفادحة الثراء».

صبري حافظ

أخبار الأدب المصرية

«إن رواية «الطريق إلى تل مطران» في جماعها قدمت تخييلاً ثراً للفسيفساء العراقية الإثنية والدينية والحضارية. و«تل مطران» بذلك تعزز الإنجاز الذي حققه علي بدر في بابا سارتر، ليتأكد بالروايتين امتياز صوت علي بدر في الرواية العراقية والعربية معا».

نبيل سليمان

الحياة اللندنية

دار الشروق
www.shorouk.com
6 221102 024662

مكتبة الفكر الجديد